إلى القارئ

من حق القارئ المرتقب أن ننبهه إلى أن لفظ الإصلاح الديني ليس عنواناً صادقاً كل الصدق لهذا المجلد ولعل العنوان الأدق منه هو « تاريخ الحضارة الأوروبية خارج إيطاليا من عام ١٣٠٠ إلى عام ١٥٦٤ أو حواليها بما فى ذلك تاريخ الدين فى إيطاليا مع نظرة عارضة إلى الحضارتين الإسلامية واليهودية فى أوربا وأفريقية وآسية الغربية » . وقد يسأل القارئ عن سبب هذا التحديد المتعرج لمنهج البحث فنقول : إن المجلد الرابع المسمى عصر الإيمان من مجلدات هذه السلسلة « قصة الحضارة » قد وقف بتاريخ أوربا عند عام ١٣٠٠ ، وان المجلد الخامس « عصر النهضة » قد اقتصر على البحث فى أحوال إيطاليا بين عامى ١٣٠٤ و١٥٧٦ مرجئاً أضداء الإصلاح الدينى فى بلاد إيطاليا . ومن أجل هذا يجب أن يبدأ هذا المجلد السادس بعام ١٣٠٠ . وهو يفترض أن القارئ سيجد مسلاة فى أن لوثر لا يظهر على مسرح الحوادث إلا بعد أن ننتهى من ثلث هذه القصة . ولكن علينا أن نتفق منذ البداية على أن الإصلاح الدينى قد بدأ فى الواقع بجون ويكلف ولويس البافارى من رجال القرن الرابع عشر ثم واصل سيره إلى جون هوس فى القرن الخامس عشر حتى انتهى فى القرن السادس عشر بالزجة العنيفة التى أحدثها راهب وتنبرج. وفى وسع من لا يهتم من القراء بغير الثورة الدينية أن يغفل قراءة الفصول الثالث والرابع والخامس والسادس . ثم الفصلين التاسع والعاشر دون أن يخسر بذلك خسارة لا تعوض .

فالإصلاح الدينى إذن هو الموضوع الرئيسى : وإن لم يكن الموضوع الوحيد فى هذا المجلد . وسنبدأه بالتحدث عن الدين بوجه عام ، وبما له من أثر فى نفس الفرد وفى الجماعة ، ثم نتحدث بعدئذ عن أحوال الكنيسة الكاثوليكية فى القرنين السابقين على أيام لوثر . ثم نلقى نظرة على أحوال

إنجلترا بين عامى ١٣٧٦ و١٣٨٢ وأحوال ألمانيا بين ١٣٢٠ و١٣٤٧ ، وبوهيميا بين ١٤٠٢ و١٤٨٥ ونفصل القول فى مبادئ إصلاحات لوثر الدينية وما قام على أثر ذلك من نزاع . وسنلاحظ ونحن نمضى قدماً فى البحث كيف كانت الثورة الاجتماعية وما تتضمنه من آمال شعبية تسيران مع الثورة الدينية جنباً إلى جنب : وسنردد فى غير قوة صدى الفصل الذى ورد فى كتاب جبن Gippon عن سقوط القسطنطينية ، وندرك كيف مكن زحف الأتراك إلى أبواب فينا رجلا بمفرده من أن يتحدى البابا والإمبراطور فى وقت واحد . وسننظر بروح العطف إلى ما بذله أرزمس من جهود لحمل الكنيسة على أن تصلح نفسها فى سلام وسندرس أحوال ألمانيا قبيل أيام لوثر لعلنا نستطيع بهذا الدرس أن نفهم أن مجيئه حين جاء كان أمراً محتوماً لامندوحة عنه . وسنسلط الأضواء فى الكتاب الثانى على الإصلاح الدينى نفسه وعلى رجاله لوثر وملنكثون فى ألمانيا ، وزفنجلى وكلفن فى سويسرا ، وهنرى الثامن فى انجلترا ، ونكس فى اسكتلندة ، وجستافس فازا فى السويد ، ثم نلقى نظرة عابرة على النزاع الطويل الذى شب بين فرانسس الأول وشارل الخامس ،لكننا سنؤجل غير هذا من أحوال الحياة الأوروبية فى هذا النصف قرن المضطرب الملىء بالأحداث (١٥١٧ — ١٥٦٤) ، وذلك لكى نترك المجال للمسرحية الدينية لتكشف لنا دون أن يحدث فيها شىء من الاضطراب والارتباك بسبب إرجاء الحديث عنها من حين إلى حين . أما الكتاب الثالث من هذا المجلد فسيطل على « الغرباء الواقفين بالباب » . على روسيا وأمراء موسكو والكنيسة الأرثوذكسية ، وعلى الإسلام وما جاء به من عقيدة ، وثقافة ، وقوة يتحدى بها غيره من الأديان ، وكفاح اليهودية للعثور على مسيحين فى العالم المسيحى . وسيذهب الكتاب الرابع إلى ما وراء أحداث المسرحية ليدرس شرائع أوربا وأحوالها الاقتصادية ، وأخلاقها ، وعاداتها ، وفنها ،

وموسيقاها ، وآدابها ، وعلومها ، وفلسفتها فى أيام لوثر . وسنحاول فى الكتاب الخامس أن نضع أنفسنا فى موضع الكنيسة فننظر إلى الإصلاح الدينى كما تنظر إليه — هى — وقد حاق بها الخطر ، فلا نجد مناصاً من الإعجاب بالطريقة التى اجتازت بها العاصفة المحيطة بها فى جرأة وهدوء . ثم نختم الكتاب بخاتمة موجزة نحاول فيها أن ننظر إلى النهضة والإصلاح الدينى ، والمذهب الكاثوليكي ، والاستنارة نظرة شاملة فى ضوء التاريخ الحديث والأفكار الحديثة .

ذلك موضوع ممتع رائع ولكنه موضوع شائك ، لأننا لا نكاد نكتب فيه كلمة لا تثير الجدل أو الامتعاض . ولقد حاولت أن أقف موقف الكاتب غير المتحيز ، وإن كنت لا أنكر أن ماضى الشخص يلون آراءه على الدوام ، وان لا شيء يضايق الإنسان أكثر من عدم تحيزه . ومن واجبى أن أنبه القارئ من بداية الأمر أنى قد نشأت نشأة الكاثوليكى المتحمس لمذهبه ، وأنى لا أزال أحتفظ بذكريات طيبة خليقة بالحمد لرجال الدين المخلصين ولليسوعيين العالمين ، وللراهبات المشفقات اللائى تحملننى كثيراً فى طيش الشباب ، ولكن على القارئ أيضاً أن يذكر أننى حصلت على جزء كبير من تعليمى خلال محاضراتى التى ألقيتها مدى ثلاثة عشر عاماً فى كنيسة مشيخية Presbyterion church تحت رعاية رجال من البروتستنت المخلص المتسامحين مثال يوناتان داى ، وولين ادامزبراون ، وهنرى سلون كفن ، وادمن تشافى ، وان كثيرين من الرجال المخلصين الذين كانوا يستمعون إلى محاضراتى فى تلك الكنيسة المشيخية كانوا يهوداً أوتوا من التعطش للعلم والفهم ما جعلنى أنظر إلى بنى ملتهم نظرة نافذة جديدة . ولهذا فإنه إذا كان بين الناس من يجدون مبرراً للتحيز فى أحكامهم ، فإنى أنا أقلهم عذراً من هذه الناحية ، وانى لأشعر نحو جميع الأديان بذلك العطف الصادق الذى يمتلىء به قلب من عرف أن الإيمان بالعقل نفسه إنما هو إيمان مزعزع ،

وأننا جميعاً كسف من الظلام الحالك نتحسس الطريق لنور الشمس ، وإنى لا أعرف عما وراء هذه الحياة أكثر مما يعرف أقل طفل فى الطرقات .

وانى لأشكر للدكتور أرثر انهام بوب مؤسس معهد اسية لتصحيحه بعض ماكان فى الفصول الخاصة بالإسلام من أخطاء ، وللدكتور جيرسن كوهين عضو حلقة الدراسات الدينية اليهودية الأمريكية مراجعته الصفحات الخاصة باليهود ، ولصديقى هنرى كوفمان من رجال لوس انجليز قراءته الجزء الخاص بالموسيقى ولزوجتى عظيم مساعدتها الدائمة العظيمة وملاحظاتها القيمة عن كل صفحة طوال كدحنا متعاونين فى تأليف هذا الكتاب .

وإذا ما تجمل القارئ بالصبر فسنخرج له مجلداً آخر نختتم به هذه السلسلة وهو المجلد السابع الذى سنسميه عصر العقل ، وسيظهر هذا المجلد بعد نحو خمس سنوات من هذا الوقت ، وسيواصل الحديث عن قصة الحضارة إلى أيام نابليون . فإذا فرغنا من هذا العمل ودعناه وانسحبنا من الميدان شاكرين كل الشكر من حملوا بأيديهم عبء هذه المجلدات وتغاضوا عما لا يحصى من الأغلاط فى هذه المحاولة التى نبغى بها تحليل الحاضر إلى عناصره التى ينطوى عليها الماضى . ذلك ان الحاضر ليس إلا الماضى مطوياً ينتظ من يبسطه للعمل كما أن الماضى هو الحاضر مبسوطاً لمن يريد أن يفهم .

لوس انجليز فى ١٢ مايو سنة ١٩٥٧ ول ديورانت .

كيفية استعمال هذا الكتاب

١ – حذفنا من النص تواريخ مولد الأشخاص ووفاتهم .

٢ – الفقرات التي كتبت للقارئ المتعمق لا للقارئ العادي قد كتبت بالخط الصغير

٣ – قد لخصنا في الباب الأول من هذا المجلد بعض الفقرات الواردة في المجلد الخامس الخاص بالنهضة في إيطاليا والتي تبحث في تاريخ الكنيسة قبل الإصلاح

٤ – ستقدر في هذا المجلد قيمة الكرون والليرة والفلورين والدوقية أثناء القرنين الرابع عشر والخامس عشر بخمسة وعشرين دولارا من نقود الولايات المتحدة في عام ١٩٥٤ وستقدر قيمة الفرنك والشلن بخمسة دولارات والأيكو بخمسة عشر دولارا والمارك بـ ٦٦,٦٧ دولاراً والجنيه الاسترليني بمائة دولار على أن هذه القيم كلها تقريبية تقوم على الحدس والتخمين كما أن ما حدث لهذه النقود من تخفيض مراراً عدة يزيد من جعل هذه القيم معرضة للتفاوت الكثير ونلاحظ هنا أن : الطالب في عام ١٣٩٠ كان يستطيع أن يعيش في اكسفورد على : شلنين في الأسبوع ، وأن جواد جان دارك كان يساوي في عام ١٤٢٤ ستة عشر فرنكاً ، وأن أجر خادمة عند والد ليوناردو داقنشي في عام ١٤٦٠ لم يكن يزيد على ثمانية فلورينات في العام .

مؤلف الكتاب

ولد ول ديورانت مؤلف هذا الكتاب فى تورث ادمز بولاية ماساشوستس بالولايات المتحدة الأمريكية فى عام ١٨٨٥ وتلقى تعليمه الأول فى مدارس الابروشية الكاثوليكية فى تلك الولاية فى كرنى بولاية النيوجرس ثم انتقل بعدئذ إلى كلية القديس بطرس الجزويتية فى مدينة جرسى ثم إلى جامعة كولومبيا بنيويورك واشتغل أثناء صيف عام ١٩٠٧ مراسلا لجريدة ولكنه وجد العمل مثيراً لأعصابه فقنع بتدريس اللغات اللاتينية والفرنسية والإنجليزية هى وموضوعات أخرى فى كلية سيتون هول بمقاطعة ثوث أورنج بولاية نيوجرس (١٩٠٧ — ١٩١١) حيث التحق بحلقة الدراسات فى عام ١٩٠٩ ولكنه غادرها فى عام ١٩١١ لأسباب ذكرها فى كتابه « الانتقال » . ثم انتقل من حلقة الدراسات إلى دوائر الرديكالية فى نيويورك وعمل مدرسا فى مدرسة فرو (١٩١١ — ١٩١٣) وكانت هذه تجربة فى التفكير الحر فى عالم التربية . وفى عام ١٩١٢ طاف بأوربا على نفقة الدن فريمان وهو صديق له أخذ على عاتقه أن يساعده على توسيع أفاق تفكيره . وفى عام ١٩١٣ عاد إلى الدراسة فى جامعة كولومبيا وتخصص فى عالم الأحياء يتلقاه على مرجان وكالكنز . وفى الفلسفة على يد دود بريدج وديوى .

ونال درجة دكتور فى الفلسفة من هذه الجامعة فى عام ١٩١٧ ومكث يعلم الفلسفة فى تلك الجامعة وفى عام ١٩١٤ بدأ يلقى فى إحدى الكنائس المشيخية فى الشارع رقم ١٤ والشارع الثانى فى نيويورك محاضرات فى تاريخ الفلسفة والأدب مهدت له السبيل لكتابة « قصة الفلسفة وقصة الحضارة » . ذلك أن معظم مستمعيه كانوا من العمال والنساء الذين يتطلبون أن تكون المادة التاريخية الخليقة بالدراسة واضحة كل الوضوح ذات أثر فى العصر الذى يعيشون فيه وفى عام ١٩٢١ أنشأ مدرسة لير تمبل التى

أصبحت من أكثر التجارب نجاحاً فى تعليم الكبار ولكنه غادرها فى سنة ١٩٢٧ ليتفرغ لكتابة قصة الحضارة فطاف بأوربا مرة أخرى فى عام ١٩٢٧ وسافر حول العالم لدراسة أحوال مصر والشرق الأدنى والهند والصين واليابان فى عام ١٩٣٠ طاف حول العالم مرة ثالثة فى عام ١٩٣٢ زار فى خلالها بلاد اليابان ومنشوريا وسيبريا والروسيا . وأثمرت هذه الأسفار المجلد الأول من قصة الحضارة وهو تراث الشرق وقضى ديوارنت قبل أن يبدأ فى تأليف المجلد الثانى من قصة الحضارة وهو حياة اليونان صيفاً طويلا فى بلاد اليونان نفسها زار فى خلاله أشهر مراكز الحضارة الهيلينية ودرس آثارها وكان طوافه ببلاد البحر المتوسط عوناً له على كتابة المجلد الثالث « قيصر والمسيح » فى عام ١٩٤٤ وقضى ستة أشهر من عام ١٩٤٨ فى تركيا والعراق وإيران ومصر وأوربا الغربية ليستعد فيها لكتابة المجلد الرابع . عصر الإيمان (١٩٥٠) ثم عاد إلى إيطاليا فى علم ١٩٥١ ليعد العدة للمجلد الخامس من قصة الحضارة وهو عصر النهضة (١٩٥٣) وسافر بعدئذ إلى ألمانيا وسويسرا وفرنسا وانجلترا فى عام ١٩٥٤ لكى يدرس الأماكن المتصلة بالإصلاح الدينى وما فيها من آثار استعداداً لكتابة هذا المجلد السادس . ويرجو الدكتور ديورانت أن يفرغ من تاريخ الحضارة فى عام ١٩٦٢ بعد إصدار المجلد السابع من هذه السلسلة وهو عصر العقل الذى يروى قصة الحضارة إلى أيام نابليون وإلى عام ١٨٠٠ وسيبلغ عندئذ السابعة والسبعين من عمره ويكون من حقه بعدئذ أن يستريح .

الكتاب الأول

من ويكلف إلى لوثر

١٣٠٠ - ١٥١٧

الباب الاول

الكنيسة الكاثوليكية الرومانية

١٣٠٠ – ١٥١٧

الفصل الأول

فضل المسيحية

الدين آخر ما تبدأ الأذهان بفهمه . ولربما كنا فى أيام شبابنا قد برمنا فى تعال وكبرياء بما فيه من أمور محببة وان لم تقبلها العقول ، وفى السنين التى نكون فيها أقل ثقة بما نتلقاه من تعاليمها يأخذنا العجب من بقاء هذا الدين مزدهراً فى عصر ينصرف الناس فيه إلى العلم وإلى شئون الدنيا ويدهشنا بعثه من جديد بعد أن تلقى الضربات القاتلة على أيدى أبيقور أو لوكر بشيوس أو لوشيان أو ماكيافلى أوهيوم أو فولتير . ترى ما هو السر الذى من وراء هذه المرونة التى تبعث فيه الحياة من آن إلى آن ؟

ان أعقل الناس ليتطلب أن تمتد حياته مائة مرة لكى يستطيع الإجابة عن هذا السؤال إجابة شافية . ولربما كان أول ما يفعل هو أن يدرك بأن ثمة ظواهر لا يحصيها عدا حتى فى الأيام التى يبلغ فيها العلم ذروة مجده يخيل إليه أنها تعز على الفهم ولايستطيع تعليلها بالعلل الطبيعية أو يقيسها أويعرف نتائجها المحتومة . فأسرار العقل مثلا لاتزال تخفى على قوانين علم النفس وفى علم الطبيعة نجد أن نظام الكون المدهش العجيب الذى يجعل العلم ميسراً مستطاعاً قد يعمل هو نفسه على توكيد الإيمان الدينى القائل بوجود عقل كونى مدبر لهذا العالم . وان معارفنا لأشبه بسراب بقيعة كلما اقتربنا منه زاد

بعداً عنا . وقل من الناس من إذا سئل عن أمر قال لا أدرى ، فإذا واجهته ظاهرة له لا يعرف من قبل حقيقة أمرها عزاها إلى أسباب طبيعية أو خارقة للطبيعة وتصرف بما يتفق مع تعليله هذا أو ذاك ، ولست تجد إلا قلة ضئيلة من العقول تستطيع أن تتريث فى حكمها إذا وقفت أمام الشواهد المتناقضة ، أما الكثرة الغالبة من بنى الإنسان فتحس بأن لابد لها أن تعزو ما ترى من الموجودات أو الحادثات إلى كائنات علوية لا تتقيد بالقوانين الطبيعية ، ولقد كانت الأديان (الأولى) هى عبادة خوارق الطبيعة من الكائنات — باسترضائها ، والتوسل إليها ، أو تمجيدها . وما أكثر من يضجرون من الحياة ويألمون منها ، فيطلبون العون من الكائنات الخارقة للطبيعة إذا لم يجدوا هذا العون فى القوى الطبيعية ، فتراهم يعتنقون وهم شاكرون مغتبطون أدياناً تبعث فى حياتهم الكرامة والأمل ، وتضفى على العالم نظاماً ومعنى لا وجود لها بغير هذه الأديان ، وإن من الصعب على نفوسهم أن تغض الطرف صابرة عما فى الطبيعة من قسوة ووحشية تصيب الناس خبط عشواء ، وما يحدث فى تاريخ العالم من منازعات ومن إراقة للدماء ، وما يصيبهم هم أنفسهم من محن وبلايا وحرمان إذا لم يؤمنوا بأن هذه كلها جزء من خطة إلهية مرسومة يعز عليهم فهمها وإدراك سرها . ان العالم إذا لم يكن له سبب أو مصير يعرف حقاً أشبه بسجن للعقول ، فنحن نتوق إلى الاعتقاد بأن للمسرحية الكبرى منشئاً عادلا وغاية سامية .

هذا إلى أننا نحرص على البقاء ، ويصعب علينا أن نعتقد أن الطبيعة قد كدت وأجهدت نفسها حتى أوجدت الإنسان ، والعقل ، والحب والإخلاص لا لشىء إلا لتلقى بها ظهرياً متى نضجت وكمل نماؤها . والعلم يهب الإنسان فى كل يوم مزيداً من القدرة ، ولكنه ينقص من شأنه على مر الأيام ، فهو يرقى بآلاته وأدواته ولكنه لا يعنى بأهدافه وأغراضه ، ولا يكشف له عن الأصول والقيم والأهداف النهائية ، ولا يضفى على الحياة

والتاريخ معنى أو قيمة لا يقضى عليها الموت أو الزمن المهلك المبيد لكل شيء . ومن أجل هذا يؤثر الناس العقيدة غير القائمة على العقل والبحث الصحيح على الإحجام والتوكل العقلى، ذلك أنهم يملون التفكير المحير ، والحكم غير القاطع ، فيرحبون بقيادة دين ذى سلطان على نفوسهم ، وبأن يتطهروا من الخطايا بالاعتراف بذنوبهم ، وبالإيمان بدين ثابت قديم . وهم حين يستحون من الاخفاق ، ويثكلون من يحبون ، وتظلم نفوسهم لما اقترفوا من ذنوب ، ويرهبون الموت يحسون بأنهم إذا لقوا العون من الله تطهروا من الذنب والجريمة ، وفارقهم الرعب ، واطمأنوا وامتلأت قلوبهم بالأمل ، وسموا إلى أسمى المنازل وكان مآلهم الخلود .

والدين فى أثناء هذا يهب المجتمع والدولة هبات مستورة تسرى فى جميع أجزائهما ، فطقوسه تهدئ النفس وتوثق الرابطة بين الأجيال ، فالكنيسة الابرشية تصبح بمثابة بيت عام تؤلف من الأفراد جماعة ، وترفع الكتدرائية رأسها تعلن فى فخر وازدهاء أنها من عمل البلدة موحدة ، وتزدان الحياة بالفنون المقدسة وتصب الموسيقى الدينية نغماتها المهدئة فى نفس الفرد والجماعة. ويعرض الدين رضاءه وتأييده السماوى للقانون الأخلاقى الذى تنفر منه فطرتنا ولكنه مع ذلك لا غنى عنه للحضارة . ويغرض على عقول البشر ربا سميعاً بصيراً ويهددهم بالعقاب السرمدى ويعدهم بالنعيم الدائم ويصدر إليهم أوامر ليست من سلطة بشرية مزعزعة بل صادرة عن قوة الهية لا سبيل إلى عصيانها وإذا كانت غرائزنا قد تكونت خلال ألف قرن من الزمانوكان الأمن فيها مزعزعاً مضطرباً يطارد فيها الإنسان الحيوان ويطارده، فإنها قد جعلتنا صائدين أشداء وديدننا العنف وطبيعتنا تعدد الأزواج بدل أن تجعلنا مواطنين مسالمين . وإذا كان ذلك العنف القديم الذى استلزمته حياتنا الأولى يزيد على ما تحتاجه حياتنا الاجتماعية الحاضرة فإن غرائزنا يجب أن تفرض عليها مئات من القيود كل يوم على علم منا أوغير علم

حتى يمكن قيام المجتمع والحضارة . لهذا استعانت الأسر والدول قبل التاريخ بأجيال طوال بقوة الدين لكى تخفف من غرائز الإنسان الهمجية ووجد الآباء فى الدين عوناً لهم على كبح جماح أبنائهم المعاندين وإبعادهم عن الشطط وتعويدهم ضبط النفس ، واستعان المربون بالدين فكان لهم وسيلة ذات أثر عظيم فى تهذيب الشباب وتعويده النظام والرقة واتخذته الحكومات من أقدم الأزمنة عوناً لها على إقامة صرح النظام الاجتماعى وتخليصه من الأنانية المقطعة لأوصال المجتمع مما طبع عليه الناس من فوضى . ولو أن الدين لم يوجد لابتدعه كبار المشترعين أمثال حمورابى وموسى وليقورج ونوما بمبليوس. لكنهم لم يكونوا فى حاجة إلى ابتداعه لأنه ينشأ من تلقاء نفسه ويتجدد للوفاء بحاجات الناس وآمالهم .

وقد ظل الدين المسيحى خلال ألف عام من عهد قسطنطين إلى عهد دانتى يهب الأفراد والدول ما ينطوى عليه من مزايا ويقدمها لهم هبة خالصة ، وكان هو نفسه فى هذه الأعوام ينمو ويتكون ، فجعل من صورة المسيح الفضائل مجسمة يغرى بها الهمجية على اصطناع الحضارة وأوجد عقيدة جعلت حياة كل إنسان جزءاً من مسرحية عالمية سامية وان تكن متواضعة ، وأنشأت علاقة قوية ذات خطة بين الإنسان وبين الإله خالقه الذى تحدث إليه فى كتبه المنزلة ووضع له فيها قانوناً أخلاقياً وجعل الكنيسة مستقرا لتعاليمه وممثلة لسلطانه على هذه الأرض . وأخذت هذه المسرحية الفخمة تنمو عاماً بعد عام ، وأخذ القديسون والشهداء يضحون بحياتهم فى سبيل عقيدتهم ويضربون بذلك الأمثال لمن يأتى بعدهم من المؤمنين ويورثونهم فضائلهم ، وأنشأ الفنانون مئات الصور ومئات الآلاف من التحف الفنية يفسرون بها هذه المسرحية ويظهرونها بوضوح لعقول الناس حتى الساذجة منها غير المتعلمة فأضحت مريم العذراء أم المسيح « أينع زهرة فى الشعر كله » وكانت هى نموذج الرقة النسوية التى تنسج النساء على منوالها وحنان

الأمومة توجه إليها أرق الترانيم وأعظمها خشوعاً وإخلاصاً ، وهى التى أوحت بالصروح الفخمة والتماثيل الرائعة والصور الجميلة والشعر العذب والموسيقى الحلوة وهى التى بعثت المراكب ذات الروعة التى تقوم كل يوم حول ملايين من مذابح الكنائس ومن أجلها يقوم القداس بطقوسه الغامضة الرهيبة التى تسمو بالنفس وترفعها إلى السموات العلى . والاعتراف والتوبة يطهران نفس المذنب التائب الخاشع والصلاة تطمئنه وتقويه والعشاء الربانى تقربه من المسيح قرباناً يبعث فى نفسه الرهبة والقداس الأخير يطهره ويعده لدخول الجنة وقلما أخرج دين فى رسالته للانسانية مثل هذه الروعة الفنيــة .

ولقد كانت الكنيسة فى أجمل صورها حين حلت بعقائدها المواسية وطقوسها الساحرة ومبادئ اتباعها الخلقية النبيلة وشجاعة أساقفتها وغيرتهم واستقامتهم ، وعدالة محاكم أسقفياتها وطهارتها ، حين حلت بهذه كلها فى المكان الذى تخلت عنه ، حكومة الامبراطورية فكانت هى الحارس الأكبر للعالم المسيحى للنظام والسلم فى العصور المظلمة (حوالى ٥٢٤ — ١٠٧٩ م) . وأوربا مدينة ببعث الحضارة فى الغرب بعد أن أغار البرابرة على إيطاليا وغالة وبريطانيا وأسبانيا إلى الكنيسة أكثر مما هى مدينة بها إلى أية هيئة أخرى مهما كان شأنها . فقد كان رهبانها هم الذين أصلحوا الأرض البور وكانت الأديرة هى التى تقدم الطعام للفقراء والتعليم للصبيان والمأوى للمسافرين ، وكانت مستشفياتها هى التى تعنى بالمرضى والمعوزين . وكانت أديرة النساء هى التى تلجأ إليها الأرامل ومن لا أزواج لهن فتوجه فيهن عواطف الأمومة إلى أغراض اجتماعية سامية ولقد ظلت الراهبات عدة قرون يتعهدن وحدهن بتربية البنات . وإذا كانت الثقافة القديمة لم يطغ عليها ويمح معالمها تيار الجهل والأمية ، فما ذلك إلا لأن الرهبان قد نسخوا آلاف المخطوطات واحتفظوا بها وحافظوا على حياة اللغتين

اليونانية واللاتينية اللتين كتبت بهما وإن كانوا قد تركوا كثيراً من المخطوطات الوثنية تبيد على مر الزمان فقد كانت دور الكتب الكنسية فى سانت جول ، وفولدا ومونتى كسينووغيرها هي التى وجد فيها الكتاب الانسانيون فى عصر النهضة الآثار القيمة الثمينة للحضارة الرائعة التى لم تسمع قط باسم المسيح . ولقد ظلت الكنيسة ألف عام من أيام امبروز إلى ولزى تدرب فى غرب أوربا المعلمين والعلماء والقضاة ورجال السياسة ووزراء الدولة ، وكانت الكنيسة فى العصور الوسطى هى عماد الدولة وسندها . ولما انقضى عهد العصور المظلمة — ولنفترض أن ذلك كان عند مولد ابلار — كانت الكنيسة هى التى أنشأت الجامعات وشيدت الكتدرائيات القوطية فأوجدت بذلك بيوتاً لعقول الناس وتقواهم ، وبفضل حمايتها ورعايتها جدد الفلاسفة المدرسون ماحاولوه قديماً من تفسير غوامض الحياة البشرية ومآل العقل الإنسانى . ولقد ظل الفن الأوربى كله تقريباً طوال تسعة قرون يتلقى الإلهام والمال من الكنيسة ، وحتى عندما تلون الفن باللون الوثنى ظل بابوات النهضة يناصرونه ويولونه الرعاية فكانت الموسيقى فى أسمى صورها ابنة الكنيسة .

وأكثر من هذا كله أن الكنيسة فى عنفوان مجدها هي التى أمدت دول أوربا بالقانون الأخلاقى العام الذى كان متبعاً فيها كلها كما أمدتها بنظام حكمها . وكما أن اللغة اللاتينية التى تعلمها الكنيسة فى الكنائس كانت هى الأداة التى وحدت أساليب التعليم والأدب والعلم والفلسفة فى الأمم المختلفة ، وكما أن طقوس المذهب الكاثوليكى — أى العالمى — وعقيدته هى التى وهبت أوربا الوحدة الدينية قبل أن تنقسم إلى قوميات مستقلة ذات سيادة ، فإن الكنيسة الرومانية التى تعزو نشأتها وزعامتها الروحية إلى الله سبحانه وتعالى قد طلبت أن تكون هى محكمة دولية تحاسب جميع الحكام والدول من الناحية الأخلاقية . وقد صاغ البابا جريجورى السابع مبدأ الجمهورية المسيحية الأوروبية هذا الصياغة القانونية واعترف به الامبراطور هنرى الرابع حين

خضع لجريجورى فى كانوسا (سنة ١٠٧٧) ، وبعد قرن من ذلك الوقت أذل امبراطور أعظم منه قوة هو فردريك بربروسيا نفسه أمام بابا أضعف من جريجورى هو اسكندر الثالث بعد عناد طويل ومقاومة لم تجده نفعاً ، وفى عام ١٠٩٨ رفع البابا إنوسنت الثالث سلطان البابوية ومقامها إلى درجة بدا معها أن المثل الأعلى الذى كان يطمح فيه جريجورى وهو أن تكون الكنيسة صاحبة السلطان الأعلى على الدول من الناحية الخلقية — بدا أن هذا المثل قد تحقق إلى حين ؛

لكن هذا الحلم اللذيذ قد تحطم على صخرة الطبيعة البشرية . ذلك أن المشرفين على السلطة القضائية البابوية قد أثبتوا أنهم من طينة البشر وأنهم متحيزون جشعون بل نهمون يبتزون الأموال ، وأن الملوك والشعوب كانوا أيضاً بشراً مثلهم يرفضون الخضوع لسلطة فوق سلطة أمتهم . وبعثت ثورة فرنسا المضطردة النماء فى قلوب بنيها الكبرياء والحرص على السيادة القومية ، فقام فليب الرابع يتحدى سلطان البابا بونى فاس الثامن على أملاك الكنيسة وكلل هذا التحدى بالنجاح ، وزج مندوبو الملك بالبابا الكبير السن فى السجن فى اتبان حيث قضى ثلاثة أيام لم يلبث بعدها أن وافته المنية (١٣٠٣) . وهنا وفى تلك الساعة بدأ الإصلاح الدينى من إحدى نواحيه الأساسية — وهى خروج الحكام المدنيين على سلطان البابوات .

الفصل الثانى

الكنيسة فى الحضيض

١٣٠٧ : ١٤١٧

كانت الكنيسة فى القرن الرابع عشر تعانى الذل السياسى والانهيار الخلقى . لقد بدأت أول عهدها يحدوها الإخلاص العميق والولاء الذى اتصف به بطرس وبولس ثم نمت فأصبحت نظاماً جليلا يعمل على تهذيب الأسرة والمدرسة والمجتمع والعالم بأسره وينشر حسن النظام وكريم الأخلاق . أما الآن فقد أخذت تنحط حتى لم يعد لها هم إلا المحافظة على مصالحها المكتسبة وكل ما تعنى به هو المحافظة على بقائها وأموالها . وقد استطاع فليب الرابع أن يعمل على اختيار رجل فرنسي للبابوية ، وأقنعه بأن ينقل الكرسى البابوى إلى مدينة اثنيون على نهر الرون . وظل البابوات بعدئذ ثمانية وستين عاماً بيادق وسجناء فى أيدى فرنسا وسرعان ماأخذ الاحترام الذى كانوا يلقونه من تلك الأمم ينقص تدريجاً ، كما أخذت مواردهم ينضب معينها . وشرع البابوات من ضيقهم يملأون خزانتهم بالمال يحصلون عليه بفرض الضرائب التى لا عداد لها على رجال الدين وعلى الأديرة والأبرشيات . وكانوا يطلبون إلى كل رجل يعينونه فى مناصب الكنيسة الإدارية نصف ما يحصل عليه من منصبه فى العام الأول ثم عشر ما يحصل عليه منه فى الأعوام التالية . وكان على كل كبير أساقفة أن يؤدى إلى البابا مبلغاً كبيراً من المال نظير الطيلسان وهو شريط من الصوف الأبيض يلبسه كبير الأساقفة ويعد رمزاً لسلطانه وتوكيداً له . وإذا مات كردنال أو كبير أساقفة أو أسقف أورئيس دير عادت أملاكه إلى البابوية ، وفى خلال الفترة الواقعة بين موت أحد رجال الدين وتعيين خلفه كان البابوات يستولون على إيراد منصبه ، وكانوا

يهتمون بإطالة هذه الفترة عامدين حتى ينالوا من المال أكثر ما يستطيعون . وكان كل حكم يصدره مكتب البابوية الإدارى (الكيوريا) أو كل نفع يسديه ينتظر أن يؤدى إليه عطية قيمة اعترافاً من صاحبه بما نال من نفع ، وكان الحكم فى بعض الأحيان يتوقف على قيمة العطية .

على أن كثيراً من هذه الضرائب البابوية لم يكن إلا وسيلة مشروعة تحصل بها على المال ، الإدارة المركزية للكنيسة التى كان لها على المجتمع الأوربى سلطان أدبى أخذ يتناقص على مدى الأيام . غير أن بعض هذا المال كان يذهب ليتخم بطون رجال الدين ، بل إن منه ما كان يذهب إلى جيوب الحظايا اللاتى كانت تزدحم بهن حجرات بيوت البابوات فى افنيون . وليس أدل على ذلك من هذه الرسالة التى قدمها وليام ديوراند أسقف مند إلى مجلس فينا (١٣١١) وقد جاء فيها :

يستطاع إصلاح الكنيسة كلها إذا ما بدأت كنيسة روما بالإقلاع عن المثل السيئة التى تضربها بنفسها لغيرها من الكنائس . وهى التى تسىء إلى سمعة الناس وتكون بمثابة الوباء الذى تسرى عدواه إلى جميع الناس ... ذلك أن كنيسة روما قد ساءت سمعتها فى جميع الأقطار حتى أصبح الناس يعلنون فى خارج روما أن جميع من تضمهم من الرجال من أكبرهم مقاماً إلى أصغرهم شأناً قد امتلأت قلوبهم بالطمع والجشع . . . وأن رجال الدين يضربون لجميع الشعب المسيحى أسوأ المثل فى النهم ، وهذا واضح لا خفاء فيه معروف فى جميع الأقطار لأن رجال الدين أكثر انغماساً فى الترف ... من الأمراء والملوك .

وقد رفع الأسقف الاسبانى الفارو بلايو عقيرته بقوله : « إن الذئاب تسيطر على الكنيسة وتمتص دماء الشعب المسيحى » . وقد ذكر إدوارد الثالث ملك انجلترا ، وهو الحبر المتفنن فى فرض الضرائب ، كلمنت السادس بأن « خليفة الحواريين قد وكل بأن يقود غنم الرب إلى المرعى لا بأن يجز

صوفها » . وفى ألمانيا كان جباة الضرائب البابوية يطاردون ، ويسجنون ، وتقطع أطرافهم ، ويخنقون . وفى عام ١٣٧٢ أقسم رجال الدين فى كولونى وبون ، واكسانتن ومانز ألا يدفعوا مال الصدقات الذى فرضه عليهم جريجورى الحادى عشر .

على أن البابوات ظلوا رغم هذا التمرد والعصيان يؤكدون سلطانهم الاستبدادى على ملوك الأرض ، وحدث حوالى عام ١٣٢٤ أن كتب اجستينو ترينفو المشمول برعاية يوحنا الثانى بعد العشرين رسالة فى الدفاع عن رجال الدين رداً على الهجمات التى وجهها إلى البابوية مرسليوس من أهل بدوا ووليم أوكهام . ويقول اجرستينو فى هذه الرسالة إن سلطان البابا من سلطان الله وهو نائبه فى الأرض ، وإن طاعته واجبة وإن أثم أشد الإثم ، ومن حق مجلس الكنيسة العام أن ينزله عن عرشه إذا ثبت كفره وإلحاده ، فإذا لم يرتكب هذا فمهما يكن ذنبه فإن سلطانه لا يعلو عليه إلا سلطان الله وحده وهو أعلى من سلطان جميع ملوك الأرض . ومن حقه أن يخلع الملوك والأباطرة إذا شاء وإن عارض فى ذلك رعاياهم أو منتخبوهم ، ومن حقه أن يلغى قرارات الحكام الدنيويين وأن لا يعبأ بدساتير الدول . وكل ما يصدره الأمراء من قرارات تظل غير ذات أثر إلا إذا وافق البابا عليها . والبابا أعلى مقاماً من الملائكة وهو خليق بأن يعظم كما تعظم العذراء ويعظم القديسون . وقد ارتضى البابا يوحنا كل هذا لأنه فى رأيه النتيجة المنطقية لما يعتقده الناس كافة من أن الكنيسة قد أنشأها ابن الله ، وعمل بهذا المبدأ بإصرار لا يتحول عنه أبداً .

على أن فرار البابوات من رومة وخضوعهم لفرنسا قد قوض سلطانهم وحط منزلتهم ، وكأنما أراد بابوات افنيون أن يعلنوا على الملأ خضوعهم لسلطان فرنسا فاختاروا من بين ١٢٤ كردنالا ١١٣ فرنسياً .

واستشاطت الحكومة الإنجليزية غضباً من كثرة القروض التى منحها

البابوات ملوك فرنسا أثناء حرب مائة العام ، ومن أجل ذلك تغاضت عن مطاعن ويكلف على البابوية ؟ ورفض المنتخبون الألمان الذين كانوا يختارون الإمبراطور أى تدخل من جانب البابوات فى المستقبل فى اختيار الملوك والأباطرة . وفى عام ١٣٧٢ اتفق رؤساء الأديرة فى كومونى وأعلنوا على الملأ أن « الكرسى الرسولى قد انحط إلى درجة من الاحتقار تجعل المذهب الكاثوليكى يبدو معرضاً لأشد الأخطار » . وفى إيطاليا استولى على الولايات البابوية — لا يتوم رامبريا ، وولايات الحدود ، وورومانيا — رؤساء جند مغامرون يظهرون الطاعة بالاسم للبابوات ولكنهم يحتفظون لأنفسهم بإيراد هذه الولايات كله . ولما بعث اربان الخامس مندوبين من قبله إلى ميلان ليعلنوا الفيسكنتى العاصى بقرار الحرمان ، اضطرهما برنابو أن يأكلا هذا القرار — بما فيه من ورق وخيوط من الحرير وأختام من الرصاص (١٣٦٢). وعمدت فلورنس فى عام ١٣٧٦ حين قام النزاع بينها وبين البابا جريجورى الحادى عشر إلى مصادرة كل ما للكنيسة من أملاك فى أراضيها ، وأغفلت محاكم الابروشيات وهدمت أبنية محاكم التفتيش وزجت من قاومها من القساوسة فى السجن أوقتلتهم شنقاً ، وأهابت بإيطاليا أن تضع حداً لكل سلطان الكنيسة الزمنى .

واتضح من ذلك الوقت أن بابوات افنيون أخذوا يخسرون أوربا كلها مقابل خضوعهم لفرنسا وإخلاصهم لها . فلما كان عام ١٣٧٧ أعاد جريجورى الحادى عشر البابوية إلى روما .

ولما مات جريجورى فى عام ١٣٧٨ اختار مجمع الكرادلة وكانت أغلبيته الساحقة من الفرنسيين ولكنه كان يخشى غضبة عامة روما — اختار بابا إيطاليا هو اربان السادس وتبين أن اربان اسم على غير مسمى[1] ؟ فقد كان حاد الطبع عنيفاً فى تصرفاته مصراً على الإصلاحات التى لا يرتضيها

(١) معنى كلمة اربان هو المتحضر أو المهذب .

رجال الكنيسة ، وبلغ هذا الإصرار حداً أعلن معه الكرادلة الذين عادوا إلى الاجتماع أن اختياره لكرسى البابوية لم يكن قانونياً لأنه تم تحت الضغط والإرهاب ، ونادوا بربرت من أهل جنيف بابا . وتولى ربرت منصب البابوية وتسمى باسم كلمنت السابع واتخذ افينيون مقراً له ولكن اربان أصر من جهته على أنه هو البابا وجعل مقره مدينة روما . وكان الذى مهد السبيل إلى الانقسام البابوى (من ١٣٧٨ — ١٤١٧) الذى بدأ على هذا النحو ، والذى مهد السبيل لكثير من القوى التى هيأت العقول للإصلاح الدينى هو قيام الدول القومية ، فقد كان هذا الانقسام فى واقع الأمر محاولة تبغى بها فرنسا أن تحتفظ بالمعونة الأدبية والمالية التى تمدها بها البابوية فى حربها ضد انجلترا . وحذا حذو فرنسا فى هذا نابلى وأسبانيا واسكتلندة . ولكن انجلترا ، وفلاندرز ، وألمانيا ، وبولندا ، وبوهيميا ، وبلاد المجر ، وإيطاليا ، والبرتغال اعترفت باربان ، وأضحت الكنيسة المنقسمة على نفسها سلاحاً فى أيدى المعسكرين المتنازعين وضحية لهما . ونادى نصف العالم المسيحى بأن النصف الآخر ملحد كافر مجدف فى حق الله ، محروم من حظيرة الدين . وادعى كل جانب أن المراسم الدينية التى يقوم بها قساوسة الجانب الآخر المعارض له لا نفع فيها ولا قيمة لها ، وان الأطفال الذين يعمدهم هذا الجانب أو ذاك ، والتوبة التى تتم على أيديهم ، والموتى الذين يفضون إليهم باعترافاتهم ، كل هؤلاء يبقون مذنبين آثمين ، مآلهم الجحيم — أو المطهر على أقل تقدير . وكان الإسلام الآخذ وقتئذ فى الانتشار يسر من هذا الانحلال الذى يدب فى جسم العالم المسيحى .

ولم يخف هذا العداء بموت اربان (١٣٨٩) . ذلك أن الكرادلة الأربعة عشر الذين يؤلفون معسكره اختاروا بنيفاس التاسع خلفاً له ثم اختاروا من بعده انوسنت السابع ثم جريجورى الثانى عشر ، وأطالت الأمم المنقسمة انقسام البابوية . ولما توفى كلمنت السابع (١٣٩٤)

رشح كرادلة افنيون أحد الأساقفة الأسبان لكرسى البابوية فجلس عليه باسم بندكت الثالث عشر . وعرض هذا البابا أن يستقيل من منصبه إذا حذا جريجورى حذوه ، ولكن أقارب جريجورى الذين حلوا فى مناصبهم الدينية ، أصموا آذانهم عن هذا الطلب . وتخلى بعض كرادلة جريجورى عنه ودعوا إلى انعقاد مجلس عام من رجال الدين . وألح ملك فرنسا على بندكت أن ينسحب ، ولكن بندكت أبى أن يصغى إلى الحاحه ، فما كان من فرنسا إلا أن أعلنت خروجها عن طاعته ووقفت من النزاع موقف الحياد . فلما فر بندكت إلى أسبانيا انضم كرادلته إلى زملائهم الذين تخلوا من قبل عن جريجورى ، وأصدروا مجتمعين دعوة إلى مجلس يجتمع فى بيزا ليختار بابا يرتضيه الجميع .

وكان الفلاسفة المتمردون قبل ذلك الوقت بقرن أو نحوه قد وضعوا الأسس النظرية « لحركة المجالس » . فقد كان وليم أوكهام يعارض الفكرة القائلة أن الكنيسة هى رجال الدين ، ويقول أن الكنيسة هى جماعة المؤمنين ، وأن الكل هو صاحب السلطان الأعلى على كل جزء من أجزائه ، وأن من حق هذا الكل أن يعهد بسلطانه إلى مجلس أعلى مؤلف من جميع أساقفة الكنيسة ورؤساء أديرتها ، وأن من حق المجلس المؤلف على هذا النحو أن يختار البابا ويزجره ، ويعاقبه ، ويخلعه . كذلك قال مرسليوس من أهل بدو أن المجلس العام يمثل حكمة العالم المسيحى مجتمعاً فكيف يحق إذن لرجل واحد أياً كان شأنه أن يضع عقله فى منزلة أعلى من عقل العالم المسيحى كله ؟ وكان يرى أن هذا المجلس يجب ألا يؤلف من رجال الدين وحدهم بل يجب أن ينضم إليهم من غير رجال الدين من يختارهم الشعب . وطبق هينريخ فن لانجنشتاين أحد رجال اللاهوت الألمانى جامعة باريس ، (١٣٨١) هذه الأفكار على الانقسام البابوى وقال أنه مهما يكن ما يدعيه البابوات لأنفسهم من سلطان أعلى ، فقد حدثت فى الموقف أزمة لا يجد المنطق

وسيلة إلى الخروج منها سوى سبيل واحد . ولايستطيع إنقاذ الكنيسة من الفوضى التى تقوض دعائمها إلا سلطة خارجة عن البابوية تفوق سلطة الكرادلة ، ولايمكن أن تكون هذه السلطة إلا سلطة مجلس عام .

واجتمع مجلس بيزا فى ٢٥ مارس ١٤٠٩ ، ودعى بندكت وجريجورى إلى المثول أمامه فلما تجاهلا هذه الدعوة أعلن خلعهما واختار بابا جديداً هو إسكندر الخامس وأمره أن يدعو مجلساً آخر إلى الانعقاد قبل أن يحل شهر مايو سنة ١٤١٢ ثم أجل جلساته . وبذلك وجد ثلاثة بابوات بعد أن لم يكن منهما إلا اثنان . ولم يخفف موت الإسكندر (١٤١٠) من حدة النزاع ، لأن كرادلته اختاروا خليفة له يوحنا الثالث والعشرين . لم يكن فى البابوات بعد سميه الثانى والعشرين من هو أكثر منه عناداً وصلابة رأى . وكان هذا الزعيم المغامر وهو يحكم بولونيا نائباً عن البابا باسم بلد سارى كوسا حكم زعماء العصابات المغامرين يفرض الضرائب على كل شىء فى الولاية ويجيز لغيره من رجال الحكم فرضها . كان يفرضها على العاهرات والمغامرين والمرابين ، ويقول أمين سره أنه أغوى مائتى عذراء ، وزوجة ، وأرملة وراهبة .

ولكنه كان ذا مال وكان له جيش ، ولعله كان يستطيع انتزاع الولايات البابوية من يدى جريجورى فيضطره بذلك إلى النزول عن عرشه بعد إفلاسه .

وأرجأ يوحنا الثالث والعشرون دعوة المجلس الذى أمر بانعقاده مجلس بيزا أطول ما يستطيع ، ولما افتتحه فى مدينة كنستانس فى الخامس من نوفمبر عام ١٤١٤ لم يحضره إلا عدد قليل ممن دعوا إليه من البطارقة الثلاثة ، والكرادلة التسع والعشرين ، ورؤساء الأساقفة الثلاث والثلاثين ، والأساقفة الخمسين ، وعلماء اللاهوت الثلثمائة ومندوبى الجامعات الأربعين ، والأمراء الست والعشرين ، والنبلاء المائة والأربعين والقساوسة الأربعة الآلاف . ولو أن هؤلاء جميعاً قد حضروا لكان هذا المجلس أكبر مجلس فى تاريخ

المسيحية وأهم ما عقد من مجالسها منذ مجلس نيقية (٣٢٥) الذى أقر عقيدة التثليث فى الدين المسيحى ، وأصدر المجتمعون فى السادس من أبريل عام ١٤١٥ قراراً ثورياً يدل على الزهو والكبرياء جاء فيه :

إن هذا المجمع المقدس المنعقد فى كنستانس ، بوصفه مجلساً عاماً ، مجتمعاً اجتماعاً قانونياً يرفرف عليه الروح القدس كى يحمد الله ويقضى على الانقسام القائم فى الكنيسة ويعمل على جمع شملها وإصلاح شأنها فى رؤسائها وأعضائها . . يأمر ، ويعلن ، ويقرر ما يأتى : أولا : يعلن أن هذا المجمع المقدس . . يمثل الكنيسة المجاهدة ، ويستمد سلطانه من المسيح مباشرة ، ومن ثم يجب على كل إنسان مهما كانت مرتبته ومنزلته بما فى ذلك البابا نفسه أن يطيع هذا المجلس فى كلّ ما له مساس بالدين كى يقضى على هذا الانقسام القائم وتصلح الكنيسة إصلاحاً عاماً فى رأسها وأعضائها . وهو يعلن كذلك أن كل إنسان . . . بما فى ذلك البابا أيضاً يأبى أن يطيع أوامر هذا المجلس المقدس وقوانينه وقراراته . . . . التى تهدف إلى القضاء على الانقسام أو إلى إصلاح الكنيسة ، يعرض نفسه لطائلة العقاب الذى يتناسب مع جرمه . . . وسيلجأ المجلس ، إذا لزم الأمر إلى غير ذلك من أساليب العدالة[١١] .

وطالب المجلس بخلع جريجورى الثانى عشر وبندكت الثالث عشر ويوحنا الثالث والعشرين . ولم يتلق من يوحنا جواباً على طلبه فقبل ما عرض عليه من التهم الأربع والخمسين التى تتهم يوحنا هذا بأنه كافر مستبد ، كاذب ، متجر بالمقدسات والمناصب الدينية ، خائن ، شهوانى ، لص ، وامتنع المجلس عن قبول ست عشرة تهمة أخرى رآها أقسى مما يليق[١٢] فلما كان اليوم التاسع بعد العشرين من شهر مايو سنة ١٤١٥ قرر خلعه — أما جريجورى فكان أكثر منه مرونة ودهاء ، فقد وافق على أن يعتزل منصبه لكنه اشترط لذلك أن يسمح له بأن يدعو أولا المجلس إلى الانعقاد

التالى بما له من حق فى هذه الدعوة . فلما عاد المجلس إلى الانعقاد على هذا النحو قبل استقالته (٤ يولية) . وأراد أن يثبت تمسكه بالدين وبسلطانه الشرعى فأمر بإحراق المصلح البوهيمى جون هوس (٦ يولية) . وفى اليوم السادس والعشرين من هذا الشهر أعلن خلع بندكت الثالث عشر ؛ فذهب هذا البابا المخلوع إلى بلنسية حيث توفى فى سن التسعين وهو لا يزال يدعى أنه هو البابا — وفى السابع عشر من نوفمبر عام ١٤١٧ اختارت لجنة الناخبين الكردنال اتونى كولنا بابا وتسمى باسم مارتن الخامس . واعترفت المسيحية كلها بهذا البابا الجديد وبذلك انتهى الصدع البابوى .

غير أن انتصار المجلس فى هذه الناحية قد أعجزه عن تحقيق غرضه الآخر ونعنى به إصلاح الكنيسة . ذلك أن مارتن الخامس لم يكد يجلس على الكرسى البابوى حتى استحوذ من فوره على جميع ما كان للبابوية من حقوق وسلطات مختلفة ، فأخذ يغرى كل جماعة من المندوبين من كل دولة بغيرها من الجماعات وأقنعها بقبول أقل قدر من الإصلاح الغامض القليل الأذى وخضع المجلس له لأنه كان قد سئم ومل العمل فلما كان اليوم الثانى والعشرين من أبريل سنة ١٤١٨ أعلن انفضاض جلساته .

البابوية المنتصرة

١٤١٧ — ١٥١٣

نظم مارتن الإدارة البابوية تنظيما يمكنها من أداء عملها خير أداء ، ولكنه لم يجد سبيلا للحصول على حاجتها من المال إلا باتباع أساليب الحكومات الدنيوية القائمة فى ذلك العهد وببيع المناصب والخدمات . وإذا كان فى وسع الكنيسة أن تبقى مائة عام من غير إصلاح ، وإن كان يصعب عليها أن تبقى أسبوعاً واحداً من غير مال ، فقد استقر رأيه على أنها أشد حاجة إلى المال منها إلى الإصلاح . وكانت نتيجة هذا ان بعث مندوب ألمانى فى روما

فى عام ١٤٣٠ أى قبل موت مارتن بعام واحد ، إلى أميره رسالة تكاد تضرب على نغمة الإصلاح الدينى وتندر به قال :

إن الشره يسود دوائر الحكومة فى روما ، وهى تبتدع فى كل يوم أساليب جديدة . . لابتزاز المال من ألمانيا ... وهذا هو منشأ ما نراه من الضجيج والأحقاد الكثيرة . . ومن أجل هذا ستثار أسئلة كثيرة عن أحوال البابوية ، والافسينبذ الناس آخر الأمر طاعتها لكى ينجوا من هذا الابتزاز المرهق الذى يعمد إليه الإيطاليون ، وانا أرى أن هذا المسلك الأخير هو الذى سترتضيه معظم البلدان .

وخلف مارتن على كرسى البابوية راهب فرانشسكانى صالح تقى غير أهل لتصريف الأمور فوجد أمامه المشاكل التى تجمعت حول الكرسى الرسولى . لقد كان على البابوية أن تحكم ولايات دنيو ية وان تحكم الكنيسة الدينية ، وكان على البابوات أن يكونوا رجال سياسة ملمين بشئون الدنيا ولم يكونوا قديسين فحسب . ولسنا ننكر أن يوجينوس الرابع كان يستطيع أن يكون قديساً لو أن متاعبه لم تملأ قلبه حقداً . فقد حدث فى السنة الأولى من ولايته أن عاد مجلس بازل فأكد من جديد سيادة المجالس العامة على البابوات واستحوذ على ماكان للبابوية من وظائف تمارسها من عهد طويل فنقلها إليه واحدة بعد واحدة . من ذلك أنه أخذ يصدر صكوك الغفران ويعين من يشغلون المناصب العامة ويطلب أن ترسل بواكير المرتبات الدينية إلى المجلس لا إلى البابا . فما كان من يوجينوس إلا أن أمر المجلس بالانفضاض ، فرد عليه المجلس بأن خلعه وعين أماديوس الثامن دوق سافوى بابا معارضاً باسم فلكس الخامس (١٤٣٩) .وهكذا تجدد الانقسام البابوى .

وأراد شارل السابع ملك فرنسا أن يتم ما خيل إليه أنه هزيمة للبابوية فدعا إلى الانعقاد جمعية مؤلفة من الأساقفة الفرنسيين والنبلاء والمحامين

أعلنت أن للمجالس العامة السلطة العليا وأصدرت قرار بورج التنظيمى (١٤٣٨) الذى ينص على أن الوظائف الدينية ستشغل من ذلك الوقت بمن يختاره لها رجال الدين المحليون ، على أنه يجوز للملك أن « يوصى » فى ذلك بما يراه ، وأن يحرم رفع الاستئناف إلى المحكمة البابويه إلا إذا استنفذت جميع الطرق القضائية فى فرنسا نفسها ، ولا ترسل بعدئذ بواكير مرتبات الوظائف الدينية إلى البابا . وكان معنى هذا فى الواقع أن القرار التنظيمى قد أنشأ كنيسة فرنسية مستقلة وجعل ملك فرنسا رئيس هذه الكنيسة . وبعد عام من ذلك الوقت اتخذت جميعة منيز قرارات تهدف إلى إقامة كنيسة قومية فى ألمانيا شبيهة بالكنيسة الفرنسية . وكانت بوهيميا قد انفصلت من قبل عن البابوية ولاح أن الكنيسة الرومانية توشك أن تنهار .

وأنقذ الأتراك يوجينيوس من هذا الموقف الحرج . ذلك أنه لما قرب العثمانيون من القسطنطينية قررت الحكومة البيزنطية أن عاصمة الدولة خليقة بقداس رومانى ، وأن عودة المذهبين اليونانى واللاتينى إلى الاتحاد ضرورة لا بد منها للحصول على المعونة العسكرية أو المالية من أوربا الغربية . ولهذا جاء الأساقفة والنبلاء اليونان فى مواكب فخمة إلى فيرارا ثم انتقلوا إلى فلورنس ليلتقوا برجال الكنيسة الرومانية الذين استدعاهم البابا لهذا الغرض (١٤٣٨) . وقضى الطرفان فى الأخذ والرد عاماً كاملا وصلا بعده إلى اتفاق اعترفت فيه بسلطة الرئيس الدينى فى روما على جميع العالم المسيحى ، ولما حل اليوم السادس من شهر يوليو عام ١٤٣٩ ركع جميع أعضاء المؤتمر وعلى رأسهم إمبراطور الروم نفسه أمام يوجينيوس الذى خيل إلى العالم منذ وقت قريب أنه الرجل الذى نبذته المسيحية واحتقرته أشد الاحتقار ، على أن هذا الاتفاق لم يطل عهده لأن رجال الدين اليونان وغير رجال الدين فى تلك البلاد نكثوا عهدهم ، لكنه مع هذا أعاد إلى البابوية مكانتها وساعد على القضاء على الانقسام البابوى الجديد وعلى مجلس بازل :

وتلا ذلك قيام طائفة من البابوات الأقوياء خلف بعضهم بعضاً أغنتهم ورفعت من مقامهم النهضة الإيطالية ، فرفعوا البابوية إلى درجة من الفخامة لم تشهد مثلهامن قبل حتى فى أيام أنوسنت الثالث ذلك البابا الفخور . ونال نقولاس الخامس إعجاب الكتاب الإنسانيين بأن وجه إيراد الكنيسة إلى مناصرة العلم والفن ، وبدأ كلكستس الثالث تلك العادة الظريفة عادة منح الوظائف الدينية للأقارب ، وهى التى كانت مصدراً خصباً للفساد فى الكنيسة . وكافح بيوس الثانى ، الذى كان مؤلفاً نابهاً وبابا عظيما ، لإصلاح الإدارة البابوية والأديرة ، وألف لجنة من كبار رجال الدين المشهود لهم بالاستقامة والتقوى لدراسة معايب الكنيسة واعترف لهذه اللجنة فى صراحة بأن :

أمرين هما أقرب الأمور إلى قلبه ، حرب الترك وإصلاح البلاط الرومانى ، وأن إصلاح الأمور الكنسية كلها ، وهو ما اعتزم المضى فيه ، ليتوقف كله على إصلاح أحوال البلاط البابوى الذى أريد أن يكون مثلا يحتذى . وفى عزمى أن ابدأ بإصلاح أخلاق رجال الدين فى هذا البلد وان أقضى على كل ما فيه من بيع الوظائف الدينية وغير ذلك من المساوئ[١] .

وأصدرت اللجنة توصيات تحمد عليها وصاغ بيوس هذه التوصيات فى مرسوم بابوى . لكن روما لم يكن فيها إلا القليل ممن يريدون الإصلاح لأن نصف من كان فيها من الموظفين والكبراء كان يستفيد من هذا العيب أو ذاك ، ولهذا أحبط الحقد وأحبطت المقاومة السلبية أعمال بيوس بينما كانت الحرب الصليبية العقيم التى شنها على الأتراك ثمة تشغل باله وتستنفذ قواه وماله . وقد وجه قبيل آخر ولايته نداء أخيراً إلى الكرادلة قال فيه :

يقول الناس أننا نسعى فى حياتنا وراء اللذة ونكدس الثروة ، ونتصف بالكبرياء والغطرسة ، ونمتطى صهوة البغال الثمينة والجياد المطهمة . . ، ونربى الكلاب للصيد ، وننفق المال الكثير على الممثلين والطفيليين ،ولاننفق

شيئاً منه للدفاع عن الدين . وإن فيما يقولون لبعض الحق ، ذلك أن كثيرين من الكرادلة وغيرهم من الموظفين فى بلاطنا يعيشون هذه المعيشة أونحوها : وإذا أردتم الحق فإن ما فى بلاطنا من ترف وتباه ليزيد على الحد الواجب . ومن أجل هذا ترى الناس يبغضوننا ويحقدون علينا فيمنعهم ذلك من الاستماع إلينا وان قلنا ما هو عدل يرتضيه العقل . فماذا ترون أن نفعل فى هذه الأمور التى تجللنا بالعار ؟ . . ان علينا أن نبحث عن الوسائل التى اتبعها أسلافنا فنالوا للكنيسة السلطة — والاحترام وعلينا بعدئذ أن نحتفظ بهذه السلطة بتلك الوسائل نفسها . وما من شك فى أن الذى رفع من شأن الكنيسة الرومانية وجعل لها السيادة على العالم أجمع إنما هو الاعتداد ، والعفة ، والطهارة ، والغيرة على الدين . . واحتقار الدنيا ، والرغبة فى الاستشهاد[١٥].

وأخذت رذائل البلاط البابوى تزداد كلما قرب القرن الخامس عشر من نهايته على الرغم من الجهود التى بذلها بابوات من أمثال نقولاس الخامس وبيوس الثانى وما بذله الصالحون من رجال الدين أمثال الكردنالين جوليانو سيزاريني ونقولاس الكوزانى[١٦] فكان بولس الثانى يلبس تاجاً بابوياً تزيد قيمته على قيمة قصر عظيم ، وجعل سكتس الرابع ابن أخيه من أصحاب الملايين ، وأقحم نفسه فى ميدان السياسة ، وبارك المدفع الذى يحارب به وقائعه ، وحصل على المال اللازم لحروبه ببيع المناصب الدينية إلى من يؤدى فيها أكبر الأثمان ، واحتفل أنوسنت الثامن بزواج أبنائه فى قصر الفاتيكان . وكان اسكندر السادس يرى أن بقاء رجال الدين بلا زواج خطأ يجب الإقلاع عنه كما كان يراه لوثر وكلفن ، وكان له خمسة أبناء أو أكثر قبل أن يلتزم العفة وهو بابا ، ولم ير رجال عصره فيما كان يتصف به من مرح وعدم استعفاف ما يؤخذ عليه كما قد يظن الناس ، ذلك بأن الناس لم يكونوا يرون فيما يلجأ إليه رجال الدين سراً من علاقات غرامية أمراً غير مألوف ، وكان كل ما تأخذه أوربا على إسكندر السادس هو سياسته الخارجية التى

لا يرعى فيها إلا ولاذمة وما تأخذه على سيزارى بورجيا هو قسوته فى حروبه وأنه استرد للبابوية ولايتها وزاد الكرسى الرسولى قوة وأمده بالكثير من المال الذى يحتاجه . وقد اتبع آل بورجيا فى هذه الخطط السياسية والمعارك الحربية جميع الخطط الحربية وأساليب الغدر وسفك الدماء التى صاغها مكيافلى بعد قليل من ذلك الوقت فى كتاب الأمير (١٥١٣) وقال أنها لا غنى عنها لتأسيس دولة قوية أو لتوحيد إيطاليا . وفاق البابا يوليوس الثانى سيزارى بورجيا فيما شنه من الحروب على البندقية النهمة الجشعة وعلى الفرنسيين الغزاة ، وكان يفر كلما استطاع من سجن الفاتيكان ، ويقود جيشه بنفسه ويحب الحياة الصعبة والحديث الخشن فى المعسكرات الحربية . وهال أوربا أن ترى أن البابوية لا تكتفى بأن تصبح سلطة زمنية فحسب ، بل ان تصبح فوق ذلك قوة عسكرية ، غير أنها مع ذلك لم يكن يسعها إلا أن تعجب بعض الإعجاب بقوة ذلك المحارب الذى أخطأت المقادير فجعلته بابا ، وترامت الأنباء وراء جبال الألب عما كان يقدمه يوليوس من معونة للفن ومناصرة للممتازين من الفنانين أمثال رفائيل وميكل انجلووكان يوليوس هو الذى بدأ بناء كنيسة القديس بطرس الحديدة ، وأول من منح صكوك الغفران للذين أسهموا فى نفقات بنائها . وفى أيام ولايته قدم لوثر إلى رومة وأبصر بعينيه المظالم . ذلك الاسم الذى أطلقه لورنزو ده ميدتيشى على عاصمة العالم المسيحى . لم يعد فى أوربا حاكم يرى أن البابوية حكومة أخلاقية فوق الحكومات كلها تؤلف من الأمم كلها دولة مسيحية واحدة ، وذلك لأن البابوية نفسها بعد أن صارت دولة دنيوية قد اصطبغت بالصبغة القومية . وتقطعت أوصال أوربا ، كما تتطلب ذلك العقيدة الجديدة إلى أقسام صغيرة قومية لا تعترف بقانون أخلاقى منزل أودولى وتردت فى الحروب بين مختلف أقسام المسيحية ودامت خمسة قرون .

وإذا أردنا أن نصدر حكماً عادلا على بابوات النهضة هؤلاء فإن علينا

أن ننظر إليهم فى ضوء الظروف المحيطة بهم فى أيامهم ، لقد كان فى وسع شمالى أوربا أن تحس بأخطائهم لأنها كانت تمدهم بالمال ولكن الذين عرفوا ماكانت تفيض به إيطاليا بين عهدى نقولاس الخامس (١٤٤٧— ١٤٥٥)— ولو العاشر (١٥١٣) (١٥٢١) هم وحدهم الذين كانوا ينظرون إليها بعين التسامح ذلك أن أكثرهم قد ارتضوا عقيدة النهضة القائلة ان العالم وان كان مسرحاً للدموع والمغويات الشيطانية يمكن أن يكون أيضاً منظراً ذا جمال وحياة قوية عارمة وسعادة سريعة الزوال عابرة وان كان بعضهم صالحين أتقياء . ولم يكونوا يرون عيباً فى أن يستمتعوا بنعيم الحياة والبابوية مجتمعين .

ولم تكن تنقصهم الفضائل . فقد بذلوا جهدهم كى يخلصوا رومة من القبح والأقذار التى تردت إليها أثناء غياب البابوات فى أفنيون . لقد جففوا المستنقعات (لا بأيديهم هم بل بأيدى غيرهم وهم مستريحون) ورصفوا الشوارع ، وأعادوا بناء الجسور ومهدوا الطرق ، وأصلحوا موارد مياه الشرب وأنشأوا مكتبة الفاتيكان ومتحف الكابيتول ، ووسعوا المستشفيات ، ووزعوا الصدقات وبنوا الكنائس أورمموها ، وجملوا المدينة بالقصور والحدائق ، وأعادوا تنظيم جامعة رومة ، وأعانوا الكتاب الإنسانيين على إحياء الآداب والفلسفة والفنون الوثنية القديمة وهيأ وا الأعمال للمصورين والمثالين والمهندسين المعماريين الذين خلفوا وراءهم من الأعمال ما هو تراث خالد ثمين لجميع بنى الإنسان . وإذا كانوا قد بددوا الملايين ، فإنهم قد أنفقوا ملايين مثلها فى أعمال البناء والتعمير . ولسنا ننكر أنهم انفقوا فى بناء كنيسة القديس بطرس الجديدة أكثر مما كانت تطيقه موارد البلاد ولكن ما أنفقوه عليها ليس أكثر نسبياً مما أنفقه ملوك فرنسا فيا بعد على قصور فونتيه بلووفرساى واللوار ، ولعلهم كانوا يظنون وقتئذ أنهم لا يفعلون

أكثر من تحويل فئات الأموال السريعة الزوال إلى مجد خالد للشعوب ولربهم. وكان معظم أولئك البابوات فى حياتهم الخاصة يعيشون عيشة البساطة ومنهم مثل (الإسكندر السادس) من كان يعيش زاهداً متقشفاً ولايظهر بمظهر الترف والضخامة إلا لأن ذلك يتطلبه ذوق الشعب وعاداته وبذلك رفعوا البابوية إلى ذروة الجلال والسلطان بعد أن أضحت معدمة معرضة للسخرية والازدراء؛

الفصل الرابع

البيئة المتغيرة

وبينما كانت الكنيسة يبدو عليها أنها آخذة فى استعادة مجدها وسلطانها ، كان يحدث فى أوربا تغيير اقتصادى وسياسى وعقلى يعمل بالتدريج على تقويض صرح المسيحية اللاتينية .

ذلك أن الدين يزدهر عادة فى ظل النظام الزراعى على حين أن العلم يزدهر فى ظل الاقتصاد الصناعي فكل حصاد معجزة من المعجزات فى الأرض ونزوة من نزوات الجو ، والفلاح الحقير الخاضع لسلطان الجو والذى ينهكه الكدح ، يرى من حوله قوات خارقة للعادة فى كل مكان ، ويوجه الدعوات والصلوات إلى السماء يسترضيها ويستميلها إليه ، ويرتضى الخضوع لنظام دينى إقطاعى يتدرج ولاؤه فيه من السيد المالك إلى الملك إلى الله . أما الصانع فى المدينة والتاجر وصاحب المصنع وذو المال فيعيشون فى عالم من الأرقام يحسبون فيه العمليات والكميات والأسباب المادية والنتائج المرتقبة العادية .وتهيء الآلة ومنضدة العد والحساب عقولهم لأن يروا حكم (القانون الطبيعى) يبسط سلطانه على أرجاء آخذة فى الاتساع . وكان نمو الصناعة والتجارة وتكدس الأموال أثناء القرن الخامس عشر وانتقال العمال من الريف إلى المدن وقيام طبقة التجار واتساع دائرة الاقتصاد من البيئة الصنفية المحلية حتى أصبح اقتصاداً قومياً ثم دولياً — كل هذا كان نذير شؤم للدين الذى كان يوائم أشد المواءمة نظام الاقطاع وما يطرأ على الحقول من تقلبات تبعث فى النفس الكآبة والقنوط . وأخذ رجال الأعمال يحطمون القيود التى يفرضها عليهم رجال الدين كما نبذوا من قبل الضرائب التى يفرضها

سادة الإقطاع ، وكان لابد للكنيسة أن ترضى بشيء من الشعوذة اللاهوتية المكشوفة إلى ما تحتمه ضرورة الأيام من فرض فوائدعلى القروض إذا كان لابد لرؤوس الأموال أن تستخدم فى توسيع دائرة الصناعة والمشروعات المالية ، وما وافى عام ١٥٠٠ حتى أصبح الناس يتجاهلون أوامر الكنيسة القاضية بتحريم «الربا» . ثم حل المحامون ورجال الأعمال شيئاً فشيئاً محل رجال الدين والأعمال فى إدارة أعمال الحكومة ، وأخذ القانون نفسه ، بعد أن ظفر باسترداد تقاليده ومكانته اللتين كانتا له فى عصر الإمبراطورية الرومانية ، يسبق النظم الأخرى فى الانتقال من الصبغة الدينية إلى الصبغة الدنيوية ويعتدى يوماً بعد يوم على نظم الحياة الكنسية التى كانت تخضع من قبل للقوانين الدينية وزادت سلطة المحاكم الزمنية واضمحلت سلطة محاكم الابرشيات .

وأخذت الدول الملكية الناشئة بعد أن بلغت طور الشباب وازداد ثراؤها بفضل ما تجمع لها من المال من التجارة والصناعة ، أخذت تتحرر شيئاً فشيئاً من سيطرة الكنيسة وأخذ الملوك يعارضون فى وجود المندوب البابوى أو القاصد الرسولى فى بلادهم لأنه لم يكن يعترف بسلطان غير سلطان البابا وبذلك جعل كنيسة كل أمة دولة داخل دولة . من أجل ذلك ضيقت القوانين التى صدرت فى انجلترا عام ١٣٥١ و١٣٥٣ أشد التضييق سلطات رجال الدين فى شئون الاقتصاد والقضاء . وفى فرنسا احتفظ الملوك بعد إلغاء قرار بورج التنظيمى من الوجهة النظرية فى عام ١٥١٦ بحقه فى ترشيح كبار الأساقفة والأساقفة ورؤساء الأديرة وكبار رهبانها(١٧) وأصرت دولة البندقية على أن تعين هى من يشغلون المناصب الكنسية العالية فى الأقاليم التابعة لها . وغلب فرديناند وإيزابيلا البابوات على أمرهم فانتزعوا منهم حق تعيين من يشغلون كثيراً من المناصب الدينية الشاغرة فى أسبانيا وفى الإمبراطورية الرومانية المقدسة حيث استمسك جريجورى السابع بحق البابوات فى تعيين رجال الدين رغم معارضة هنرى الرابع ، سلم سكستس

الرابع إلى الأباطرة بحقهم فى تعيين ثلاثمائة ممن يشغلون المناصب الدينية وتعيين سبعة أساقفة وكثيراً ماكان الملوك يسيئون استخدام هذه السلطات.

فكانوا يعينون فى مناصب الكنيسة من يميلون إليهم من رجال السياسة وكان هؤلاء يستحوذون على إيراد الأديرة وأملاك الكنيسة ولكنهم كانوا يتجاهلون ما عليهم من التبعات(١٨) وإن كثيراً من المفاسد الكنسية ليعزى أصلها إلى من كانوا يشغلون هذه المناصب الكنسية من غير رجال الدين .

وكانت البيئة العقلية فى الكنيسة نفسها فى هذه الأثناء آخذة فى التغير تغيراً ينذرها بأشد الأخطار . نعم إنها كانت لاتزال تخرج علماء مجدين ذوى ضمائر حية ، ولكن المدارس والجامعات التى أنشأتها هى من قبل كانت قد أخرجت أقلية من الرجال المتعلمين لم تكن آراؤهم مما يرضى على الدوام القديسين . فها هو ذا القديس برناردينو يقول حوالى عام ١٤٢٠ :

إن كثيراً من الناس إذا ما نظروا إلى ما يرتكبه الرهبان والإخوان والراهبات وغير هؤلاء من رجال الدين لتشمئز نفوسهم ، بل إنهم كثيراً ما يتزعزع إيمانهم ، فلا يؤمنون بشيء أعلى من أسقف منازلهم ولا يرون أن ما ورد فى الكتب عن الدين صادق صحيح بل يعتقدون أنه من اختراع الآدميين وليس وحياً من عند الله . . فهم يحتقرون القربان المقدس ولا يؤمنون بوجود الروح ولا يخشون عذاب النار ولايرغبون فى نعيم الجنة ، بل إن أهم ما تتعلق به قلوبهم هو الأشياء الزائلة ويعملون على أن يكون هذا العالم الأرضى هو جنتهم(١٩)

وأكبر الظن أن طبقة رجال الأعمال كانت أقل الطبقات صلاحاً واستمساكاً بالدين ، ذلك أن الدين يضمحل على الدوام كلما زاد الثراء . فجوور (١٣٢٥ — ١٤٠٨) يقول ان تجار انجلترا قلما يعنون بالحياة الآخرة ويقولون إن من يستطيع الحصول على نعم هذه الحياة ثم يتركها تفلت من يده فهو إنسان أبله فما من أحد يعرف أين يذهب بعد الموت أو من أى طريق

نذهب[٢٠] ، يضاف إلى هذا أن إخفاق الحروب الصليبية قد خلف فى النفوس دهشة أخذت تتناقص على مهل يقول أصحابها كيف سمح رب المسيحية بأن ينتصر الإسلام وكان استيلاء الأتراك على القسطنطينية مما قوى هذه الشكوك ، وكانت كتابات نقولاس الكوزانى ١٤٣٢ ولورند سوفلا ١٤٣٩ التى قالا فيها إن « هبة قسطنطين » زيف وزور ، مما حط من مكانة الكنيسة وأضعف ما تدعيه لنفسها من سلطان زمنى . وفوق هذا كله فإن اكتشاف الكتب اليونانية والرومانية القديمة ونشرها كان سبباً فى تقوية الشكوك لأنه كشف عن عالم من العلوم والفنون ازدهرت قبل مولد الكنيسة المسيحية وهى التى أنكرت فى مجلس لاتيران الخامس ١٥١٢ — ١٥١٧ إن النجاة غير مستطاعة خارج حظيرتها[٢١] كذلك أزاح كشف أمريكا وارتياد بلاد الشرق ارتياداً آخذاً فى الاتساع ، أزاح هذا وذاك الستار عن مائة أمة كانت ترفض الإيمان بالمسيح أو تتجاهله وكانت لها أديان أخرى لا تقل عن المسيحية إيجابية أو تأثيراً من الناحية الخلقية وجاء الرحالة العائدون من بلاد « الكفرة » ببعض العقائد والطقوس التى أخذت تنازع العبادات والعقائد المسيحية فأخذت هذه العقائد المتنافسة تصطرع فى الأسواق وفى الثغور.

ثم إن الفلسفة نفسها التى كانت فى القرن السادس عشر خاضعة لسلطان الدين وخادمة طيعة له همها كله أن تجد أسباباً يقبلها العقل لمبادئ الدين القويم ، قد حررت نفسها فى القرن الرابع عشر على أيدى وليام الأوكهامى ومرسليوس من أهل بدوا وأصبحت فى القرن السادس عشر فلسفة زمنية جريئة تجهر بتشككها بقيادة بمبومنشى ومكيافلى وجوتشياردين . وقد أذاع مكيافلى قبل أن يكتب لوثر رسالته بأربع سنين نبوءة فزع منها القوم قال :

لو أن الدين المسيحى قد احتفظ به كما صدر عن مؤسسه لكانت دول العالم المسيحى أكثر اتحاداً وأعظم سعادة مما هى الآن وليس أدل على ضعفه

من أن أقرب الناس إلى الكنيسة الرومانية التى هى صاحبة السلطة العليا فى هذا الدين هم أقل الناس تديناً . وان من ينعم النظر فى المبادئ التى يقوم عليها هذا الدين ويرى ما بين هذه المبادئ وبين شعائرها الحاضرة وعباداتها من فرق كبير ليحكم من فوره بأن انهيارها أويوم القصاص منها لآت عن قريب » .

الفصل الخامس

ما يؤخذ على الكنيسة

هل لنا أن نعيد هنا ذكرى التهم التي يوجهها الكاثوليك المخلصون إلى الكنيسة في القرنين الرابع عشر والخامس عشر ؟ إن أول هذه التهم وأشدها هي أنها كانت تحب المال وأنه كان لها منه أكثر مما يليق بها إذا أرادت لنفسها(*) الخير وقد وجه مجلس نورنبرج في عام ١٥٢٢ مائة تهمة منها أنها تمتلك نصف ثروة ألمانيا(٢٣) وقد قدر مؤرخ كاثوليكي نصيب الكنيسة بثلث أموال ألمانيا وخمس أموال فرنسا(٢٤) ولكن مدعياً عمومياً في برلمان فرنسا قدر ثروة الكنيسة في عام ١٥٠٢ بثلاثة أرباع أموال فرنسا كلها(٢٥) على أننا ليس لدينا من الإحصاءات ما نرجع إليـــه في هذه التقديرات أما في إيطاليا فإن ثلث شبه الجزيرة بطبيعة الحال كان ملكاً للكنيسة ونعني به الولايات البابوية ، هذا فضلا عما كان لها من الأملاك القيمة في غير تلك الولايات(**) .

وكان لتجمع الثروة في يد الكنيسة ستة أسباب . أولها أن معظم من كانوا يوصون بأموالهم عند وفاتهم كانوا يتركون لها بعض المال وقاية لهم من نار جهنم ، وإذا كانت الكنيسة هي التي تشرف على عمل الوصايا وإثباتها فإن

(*) يقول باستور في كتابه تاريخ البابوات الجزء السابع ص ٢٩٣ ما يأتي :
ان من أسباب سقوط الكنيسة الألمانية ثراءها الفاحش الذي كانت زيادته غير المشروعة مما أثار حسد غير رجال الدين وبغضهم كما كان له أسوأ الأثر في رجال الكنيسة أنفسهم .

(**) ان معظم الكفايات في أي مجتمع تنحصر في عدد قليل من الرجال ولهذا فإن معظم الطيبات والامتيازات والسلطات تستحوذ عليها ان عاجلا أوآجلا أقلية من الرجال . ولقد تجمعت الثروة في يد الكنيسة في العصور الوسطى لأنها كانت تقوم بأعمال خطيرة وكان يقوم على خدمتها أقدر الرجال . وكان الإصلاح الديني من بعض نواحيه عبارة عن إعادة توزيع هذه الثروة التي تركزت بطبيعة الحال وذلك باستيلاء غير رجال الدين على ثروة الكنيسة وإيراداتها .

رجالها كانوا فى وضع يمكنهم من تشجيع أمثال هذه الوصايا . وثانيها ان أملاك الكنيسة كانت أكثر أماناً من كل ما عداها من انتهاب اللصوص والجنود والحكومات ، ولهذا فإن بعض الناس كانوا ينزلون عن أراضيهم للكنيسة ليأمنوا عليها من ذلك النهب ثم يتملكونها هم منها بوصفهم عمالا للكنيسة عليها على أن يؤول كل ما لهم من حقوق إلى الكنيسة بعد موتهم . ومنهم من كان يوصى ببعض أمواله أو بها كلها للكنيسة مشترطين ان تمدهم بما يلزمهم فى حالتى المرض والشيخوخة فكانت الكنيسة بذلك تضمن لهم أماناً من الفقر فى حالة العجز عن الكسب . وثالث هذه الأسباب أن الذين اشتركوا فى الحروب الصليبية قد باعوا إلى الهيئات الدينية أرضهم أو رهنوها لها أو نزلوا لها عنها كى يحصلوا على ما يلزمهم من المال فى مغامرتهم . ورابع هذه الأسباب ان مئات الآلاف من الأفدنة قد آلت إلى الكنيسة لأن طوائف الرهبان هى التى أصلحتها . وخامسها ان ما تمتلكه الكنيسة من الأرض لا يمكن ان ينتقل إلى غيرها — فلا يمكن أن يبيعه أو ينزل عنه أحد من رجالها إلا بوسائل غاية فى التعقيد تجعل هذا فى حكم المستحيل . وآخر هذه الأسباب ان أملاك الكنيسة كانت فى العادة معفاة من الضرائب التى تفرضها الدولة على سائر الأملاك وإن كان بعض الملوك يرغمون رجال الدين على أداء بعض الأتاوات أو يجدون ذرائع قانونية لمصادرة أجزاء من ثروة الكنيسة غير مبالين بما يصبه عليهم رجال الدين من اللعنات ، ولو أن أملاك الكنيسة أو الإيراد الناتج منها أو التبرعات التى لا حصر لها والتى كانت ترد إليها من المؤمنين برسالتها قد بقيت داخل حدود البلاد التى ينتمى إليها المتبرعون أو التى توجد فيها هذه الأملاك لكان تذمر الحكام فى أوربا الشمالية أقل شدة مما شاهدناه ، أما وان هذه الثروة لم تبق داخل تلك الحدود فإن منظر الذهب الذى كان ينساب بآلاف الطرق من أوربا الشمالية إلى رومة كان مما يثير حنق هؤلاء الحكام .

أما الكنيسة فقد كانت تحسب أنها العامل الأكبر فى المحافظة على الأخلاق ، والنظام الاجتماعى ، والتربية والأدب ، والعلم ، والفن ، وكانت الدولة تعتمد عليها فى القيام بهذه المهام ، وكان القيام بها يتطلب نظاماً واسعاً كثير النفقة ، وكان لابد لها فى الحصول على هذا المال من أن تفرض الضرائب وتجبى الرسوم ، ذلك أن الكنيسة هى الأخرى لا يمكن أن تحكم بالصلوات والأدعية . وكان كثير من الأساقفة حكاماً مدنيين وكنسيين فى أقاليمهم ، وكانت السلطات غير الدينية هى التى تعين معظم أولئك الأساقفة تختارهم من بين أعيان البلاد الذين اعتادوا معيشة الترف والتحرر من قيود الأخلاق ، فكانوا يفرضون الضرائب وينفقون مواردها كما يفعل الأمراء وكانوا أحياناً يجللون بالعار ذكرى القديسين بارتداء الدروع وقيادة الجند فى الحروب . وقلما كان الكرادلة يختارون لتدينهم وتقواهم بل كانوا يختارون عادة لثروتهم أو لصلاتهم السياسية أولكفايتهم الإدارية ، ولم يكونوا يرون أنفسهم رهباناً مقيدين بأيمان أقسموها وإنما كانوا يرون أنفسهم شيوخاً ورجال سياسة فى دولة غنية قوية ، ولم يكونوا فى كثير من الأحيان قساوسة ، ولم يكونوا يسمحون لقلانسهم الحمراء أن تحول بينهم وبين الاستمتاع بمباهج الحياة[٢٦] وقصارى القول أن الكنيسة قد أنستها حاجات السلطة وما يلزمها من المال ما كان عليه الرسل الأولون من زهد وفقر.

وإذا كان خدم الكنيسة رجال دنيا لا رجال دين فإنهم لم يكونوا فى كثير من الأحيان يقلون جشعاً عن موظفى الحكومات فى أيامهم . فقد كان الفساد قانون ذلك العصر وطبيعة أهله ، وكانت المحاكم المدنية تشترى بالمال ولسنا نجد فى انتخاب البابوات كلهم ما يضارع فى الرشوة ما حدث فى انتخاب شارل الخامس امبراطوراً . وإذا ما استثنينا هذا الانتخاب وحده فإن أضخم الرشاوى فى أوربا هى التى كانت تقدم إلى محاكم رومة[٢٧] لقد كانت رسوم معقولة محددة تفرض نظير الخدمات التى تقوم بها المحكمة

البابوية العليا ، ولكن جشع موظفيها رفع هذه الرسوم إلى أكثر من قيمتها القانونية عشرين ضعفاً[٢٨] وكان من المستطاع التحلل من الأوامر الدينية كلها تقريباً وقلما كانت هناك خطيئة لا يمكن غفرانها إذا كان الثمن الذى يؤدى لذلك مغرياً . وليس أدل على ذلك من أن اينياس سلفيوس كتب قبل أن يجلس على كرسى البابوية يقول إن كل شيء فى رومة يباع بالمال وان لا شيء فيها يمكن الحصول عليه بغير المال [٢٩] وأشد من هذا ما قاله سفنرولا بعد جيل من ذلك الوقت بشيء من المبالغة التى تصحب الغضب على الدوام ، وهو وصف كنيسة رومة بأنها عاهر تبيع نفسها بالمال [٣٠] ومثل هذا ما قاله ارزمس بعد جيل آخر وهو « ان العار الذى يجلل المحكمة البابوية العليا قد وصل إلى ذروته[٣١] » . ثم انظر إلى ماكتبه بستور ، إن الفساد المتأصل قد استحوذ على جميع موظفى الإدارة البابوية كلهم تقريباً... فالهبات التى لا يحصى عددها واغتصاب الأموال بمختلف الأساليب قد فاق كل ما يتصوره العقل يضاف إلى هذا أن الموظفين أنفسهم كانوا يزورون العقود ويتبادلونها . فلا عجب والحالة هذه إذا علت الشكوى من جميع أجزاء العالم المسيحى مما كان يرتكبه الموظفون البابويون من رشوة وفساد واغتصاب للأموال[٣٢] .

ولم يكن مألوفاً أن يرقى ذوو الكفايات المعدمون فى مناصب الكنيسة فى القرن الخامس عشر ، فقد كان كل منصب تقريباً يتطلب رشوة الموظفين الأعلين فيها رشاوى تختلف بين المبالغ الصغيرة لتيل منصب القساوسة ، والرشاوى الضخمة التى يؤديها كثير من الكرادلة لكى يرقوا إلى هذا المنصب لما يتطلب التملق الخفى للأعلياء . وكان من الأساليب المحببة للبابوات لجمع المال بيعهم مناصب الكنيسة ، وكان هذا فى عرف البابوات هو تعيين أشخاص يرجى أن يسهموا بالكثير من المال فيما تحتاجه الكنيسة من نفقات بمنحهم ألقاب شرف فخرية قد تصل إلى لقب الكردنال نفسه : من ذلك

ان اسكندر السادس أنشأ ثمانين منصباً جديداً وقبض ٧٦٠ دوقة (١٩٠٠٠ دولار) من كل شخص عين فى منصب من هذه المناصب . وأنشأ يوليوس الثانى « مجمعاً » أو مكتباً مؤلفاً من ١٠١ أمين أدوا له مجتمعين ٢٤٠٠٠ دوقة ثمناً لهذه المناصب ، ورشح ليو العاشر ٦٠ من الحجاب و١٤١ من الأتباع فى القصر البابوى واستحوذ منهم على ٢٠٢٠٠٠ (٣٣) دوقة وكان معطى هذا المال وآخذه يرون أن الأموال التى تبتاع بها هذه المناصب ليست إلا أقساطاً ثانوية فى عقود تأمين ، أما لوثر فلم يكن يرى فيها إلا أنها بيع من أدنأ البيوع للمناصب الكنسية .

وكان صاحب المنصب فى آلاف من الأحوال يعيش بعيداً عن مقر منصبه — الابرشية أو الدير أو الأسقفية — التى كان إيرادها ثمناً لكدحه أووسيلة لترفه وكان يحدث فى بعض الأحيان أن يكون شخص واحد هو القائم بالعمل فى كثير من هذه المناصب . من ذلك مثلا ان الكردنال روريجو بورجيا النشيط (الذى صارفيا بعد اسكندر السادس) قد وهب عدة مناصب مختلفة كانت تدر عليه ٧٠٠٠٠ دوقة (١,٧٥٠,٠٠٠ دولار) فى العام وأن عدوه الألد الكردنال دلاروفيرى (الذى صار فيا بعد يوليوس الثانى) قد كان فى وقت واحد كبير أساقفة افنيون واسقفا لبولونيا ولوزان وكوتانس ، وقفير ، ومندى واستيا ونيليتورى ورئيساً لديرى نونانتولا وجبروتا فراتا(٣٤) . كان فى وسع الكنيسة بالجمع بين هذه المناصب أن تؤدى مرتبات كبار موظفيها التنفيذيين وان تنفح بالهبات السخية فى كثير من الأحيان الشعراء والعلماء وطلاب العلم . وها هو ذا بترارك الناقد الشديد لبابوات افنيون كان يعيش من مرتبات المناصب الهينة المجزية التى منحه إياها أولئك البابوات ، وها هو ذا ارازمس الذى سخر من مئات السخافات الكنسية وهجاها الهجو اللاذع كان يقبض معاشاً منتظما من الكنيسة ، وكوبرنيكاس الذى أصاب كنيسة العصور الوسطى بأعظم الأضرار قد ظل سنين

طوالا يعيش من أموال الكنيسة التى لم تكن تتطلب منه إلا القليل من الأعمال التى تحول بينه وبين أعماله العلمية[٣٥] .

ولم يكن هذا التعدد فى المناصب أخطر التهم التى وجهت للكنيسة بل كان أخطر منه ما اتهم به رجال الدين من فساد فى الأخلاق . وها هو ذا واحد منهم هو أسقف تورشيلو(١٤٥٨) يقول : ان أخلاق رجال الدين فاسدة يشمئز منها العلمانيون[٣٦] . وأصبح المنتمون إلى طوائف الرهبان الأربع التى أسست فى القرن الثالث عشر – وهى طوائف الفرانشيسكان والدمنيك ورهبان الكرمل ، والاوغسطينيين أصبح المنتمون إلى هذه الطوائف كلها ما عدا الأخيرة منها مستهترين فى أخلاقهم شديدى الاستخفاف بما يتطلبه مركزهم من تقى وحسن نظام » . وقد تبين أن قواعد الأديرة التى وضعها منشئوها الأولون المتحمسون أشد مما تطيقه الطبيعة البشرية التى أخذت تتحرر شيئاً فشيئاً من مخاوف ما وراء الطبيعة . وإذ كان آلاف الرهبان والإخوان قد استغنوا عن العمل اليدوى بفضل ما تجمع لهم من المال الكثير ، فقد أهمل هؤلاء الخدمات الدينية وخرجوا من صوامعهم يجوسون خلال الديار ، ويتعاطون الخمور فى الحانات ويتخذون لهم عشيقات. وها هو ذا راهب من الدمنيك يدعى جون بروميارد من رهبان القرن الرابع عشر يقول عن إخوانه الرهبان :

إن أولئك الذين من واجبهم أن يكونوا آباء للفقراء . . . يشتهون ألذ الطعام ، ويستمتعون بنوم الضحى . . . ويمنون على الناس بحضورهم صلاة الصباح أو القداس . . . وتراهم منهمكين فى الطعام والشراب إذا لم نقل فى الدنس والأقذار ، حتى لقد أصبحت مجامع رجال الدين مواخير للفجار ومجتمعات من مهرجين[٣٧] .

وكرر أرازمس تلك التهمة نفسها بعد مائة عام من ذلك الوقت فقال : « ان كثيراً من أديرة الرجال والنساء قلما تختلف عن المواخير العامة[٣٩] » .

ولسنا ننكر أن بترارك قد رسم صورة طيبة لما كان يسود دير الكرثوذيين الذى كان أخوه يعيش فيه من حسن نظام وتقى وأن كثيرا من الأديرة فى هولندا وغربى ألمانيا قد احتفظت بروح الدرس والصلاح التى تألفت على أساسها « طائفة إخوان الحياة العامة » وصدر منها كتاب التشبه بالمسيح ، ولكن نيوهانز تريتميوس ، ينس وايرسنهايم (حوالى ١٤٩٠) قد ندد برهبان هذا الجزء من ألمانيا المحيط بنهر الراين تنديداً عنيفاً أشد العنف فقال :

إن هؤلاء الرجال لا يبالون بالأيمان الدينية التى أقسموها . . فإنهم لم يعدوا قط بأن يبروا بها . . . فهم يقضون النهار كله فى الحديث القذر ويقضون وقتهم كله فى اللعب والتهام الطعام . . وإذا كانوا يمتلكون ثروة خاصة طائلة . . فإن كل واحد منهم يعيش فى مسكن خاص به . . وليس فيهم من يهاب الله قط أو يحبه . ولا يفكرون قط فى الحياة الآخرة ويؤثرون شهواتهم البدنية على مطالب الروح . . ويحتقرون ما أقسموا عليه من التزام الفقر ويجهلون يمين العفة وينقضون يمين الطاعة . . وإن رائحة أقذارهم لتحيط بهم من كل الجوانب(٤١) »

ولما أرسل جاى جوينو من قبل البابا لإصلاح أديرة البندكتيين فى فرنسا كتب بعد عودته تقريراً يبعث الغم والاكتئاب فى النفوس (١٥٠٣) قال فيه إن كثيراً من الرهبان يلعبون الميسر ويكثرون من السباب ، ويترددون على الحانات ، ويتسلحون بالسيوف ، ويجمعون الأموال « ويحيون حياة السكيرين » ، وهم أكثر تعلقاً بالدنيا من رجال الدنيا أنفسهم . . ولو أننى أردت أن أقص كل ما وقعت عليه عيناى لملأت بذلك صحفاً طوالا(٤٢) . وقد كانت نتيجة الفوضى المضطردة النماء فى الأديرة أن أهمل الكثير أعمال الصدقات والخدمة فى المستشفيات والقيام بشئون التعليم وهى الأعمال العظيمة الخليقة بالإعجاب التى استحقوا من أجلها ثقة الناس وتأييدهم(٤٣) . ويقول البابا ليو العاشر (١٥١٦) « لقد وصل اضطراب الأمور فى أديرة

فرنسا وحياة الاستهتار التى يحياها الرهبان إلى حد لم يبق لهم معه أى احترام عند الملوك أوالأمراء أو المتدينين من الناس[٤٤] ، وقد أجمل مؤرخ كاثوليكى وصف هذه المفاسد كلها كما رآها فى عام ١٤٩٠ ، ولعله كان مبالغاً بعض الشيء فى قسوته فقال :

اقرأ ما يفيض به ذلك العهد من أدلة وشواهد — طرائف تاريخية وتعنيف ينطق به رجال الأخلاق ، وهجاء يكتبه العلماء والشعراء ، ومراسيم بابوية ومجامع دينية مقدسة — ماذا تجد فى هذه كلها ؟ انك لتجد فيها نفس الحقائق ونفس الشكاوى . . التحرر من حياة الأديرة ومن النظام والأخلاق الكريمة وما أكثر ما تجد فى الأديرة من لصوص وفسقة ، وإذا شئت أن تدرك ما فى هذه الأديرة من فوضى فعليك أن تقرأ ما كشفت عنه البحوث القضائية من تفاصيل الحالة الداخلية للكثرة الغالبة من الأديرة الكبيرة . . . ولقد بلغت المساوئ المنتشرة فى أديرة الكرثوذيين درجة أصبحت معها هذه الأديرة مضرب المثل فى سوء السمعة فى كل مكان تقريباً . . أما أديرة الراهبات فقد اختفت فيها حياة الرهبنة عن آخرها . . . فاستحالت دور العبادة بسبب هذه المساوئ كلها بؤراً للفساد وسوء النظام[٤٥] .

أما رجال الدين غير المنتمين إلى طوائف الرهبان ، فكانوا خيراً من الرهبان والإخوان ، إذا تساهلنا فى عادة التسرى التى كانت شائعة بينهم ، وكانت أكبر آثام قسيس الابرشية هى جهله[٤٦] ولكنه لم يكن يتقاضى إلا القليل الذى لا غناء فيه من الأجر وكان يرهق بالعمل ومن أجل هذا لم يكن يجد من الوقت أوالمال ما يعينه على الدرس ، وتدل التقوى الشائعة بين عامة الشعب على أنه كثيراً ما كان محبوباً مبجلا . وكثيراً ما كان هؤلاء القساوسة يحنثون بقسمهم الكهنوتى على أن يلتزموا العفة والطهارة . ففى نورفولك بانجلترا مثلا نظرت المحاكم فى ثلاث وسبعين تهمة خاصة بعدم العفة فى عام ١٤٩٩ ، وكان منها [illegible] عشرة تهمة موجهة إلى رجال الدين ،

وفى ريبون كانت أربع وعشرون تهمة من ١٢٦ موجهة إلى رجال الدين ، وفى لامبث كانت تسع تهم من ثمان وخمسين موجهة إلى رجال الدين ، ومعنى هذا ان ثلاثاً وعشرين فى المائة من مجموع هذه التهم موجهة إليهم مع أن رجال الدين كلهم كانوا فى أغلب الظن أقل من اثنين فى المائة من مجموع السكان(٤٧) . ومن رجال الدين من كانت لهم صلات جنسية بالتائبات من النساء(٤٨) . وكان للآلاف من القساوسة حظايا ، وفى ألمانيا كان لهم كلهم تقريباً(٤٩) وفى رومة كان هذا هو الأمر المتبع المألوف ، وتقدر بعض التقارير عدد العاهرات فيها بسبعة آلاف من بين السكان الذين لم يكونوا يزيدون على مائة ألف(٥٠) . وها هو ذا مؤرخ كاثوليكي يقول :

لا غرابة وتلك حال أعلى طبقات رجال الدين أن تنتشر الرذيلة وينتشر الشذوذ باختلاف أنواعه بين طوائف الرهبان المنتظمة وبين القساوسة من غير الرهبان وان يزداد هذا الانتشار يوماً بعد يوم . قصارى القول أن الفضيلة قد فقدت معناها على وجه الأرض . . ولكن من الخطأ أن نظن أن فساد رجال الدين كان أسوأ فى رومة منه فى غيرها من المدن ، ذلك أن لدينا أدلة تثبتها الوثائق على فساد أخلاق القساوسة فى كل بلد تقريباً من بلدان شبه الجزيرة الإيطالية . . فلا عجب ، كما يقول كاتب معاصر والحزن يملأ قلبه إذا كان نفوذ رجال الدين قد أخذ ينقص تدريجاً وإذا كان الناس لا يكادون يظهرون أى احترام مهماقل لرجال الدين فى كثير من الأقطار ذلك ان الفساد قد انتشر بينهم إلى حد أصبحنا نسمع معه اقتراحات يبديها البعض بالسماح للقساوسة بالزواج(١٥) .

ويجدر بنا أن نقول انصافا لهؤلاء القساوسة غير المتعففين أن التسرى الشائع بينهم لم يكن يعد دعارة بل إنه يكاد يكون تمرداً عاماً على قانون العزوبة التى فرضها البابا جريجورى السابع (١٠٧٤) على رجال الدين وأرغمهم عليها إرغاماً . ولقد أخذ كهنة الكنيسة الرومانية يطالبون بأن

يسمح للقساوسة بالزواج شأنهم فى ذلك شأن أمثالهم من كهنة الكنيسة الأرثوذكسية اليونانية والروسية فقد ظلت هذه الكنيسة تسمح لقساوستها بالزواج بعد الانشقاق الذى حدث فى عام ١٠٥٤ ، وإذ كان قانون الكنيسة الكاثوليكية لم يسمح لهم بهذا فقد لجأوا إلى عادة التسرى . وها هو ذا هاردون أسقف انجير يقول فى تقرير له (١٤٢٨) ان رجال الدين فى ابرشيته لم يكونوا يرون فى اتخاذ الحظايا إثماً . وأنهم لم يحاولوا قط أن يخفوا ذلك عن أعين الناس [٥٢] . وكان فى بومرانزا ١٥٠٠ حالة من هذا النوع يعترف الأهلون بأنها لا غبار عليها ، بل كانوا يشجعونها ، لأنهم يرونها وقاية لبناتهم وزوجاتهم ، وكان المألوف المتواضع عليه فى الاحتفالات العامة أن يعطى مكان الشرف للقساوسة وحظاياهم [٥٣] ، وحدث فى شلزويج ان طرد أسقف من كرسيه لأنه حاول أن يحرم هذه العادة [٥٤] (١٤٩٩) . ولما عقد مجلس كنتستانس اقترح الكردنال زيرلا ان تعود الكنيسة فتسمح لرجال الدين بالزواج إذا لم يكن مستطاعاً منعهم من اتخاذ الحظايا ، وقال الإمبراطور سجسمند فى رسالة له إلى مجلس بازل (١٤٣١) ان زواج رجال الدين سيصلح من أخلاق الناس بوجه عام [٥٥] ، ونقل المؤرخ بلاتينا أمين مكتبة الفاتيكان عن اينياس سلفيوس قوله ان هناك أسباباً قوية فى صالح بقاء رجال الدين عزاباً ، ولكن هنا أسباباً أقوى منها فى صالح زواجهم [٥٦] ، وجملة القول ان السجل الأخلاقى لرجال الدين قبل الإصلاح الدينى يبدو خيراً مما هو إذا نظرنا إلى عادة اتخاذ الحظايا على أنها تمرد يغتفر لهم ، على سنة مرهقة لا تطيقها الطبيعة البشرية ، ولم تكن عند الحواريين الأولين ، ولا تجرى عليها الكنيسة الشرقية .

أما الشكوى التى أشعلت نار الإصلاح الدينى فى آخر الأمر فقد كانت هى بيع صكوك الغفران . وتفصيلها ان من حق رجال الدين ، السلطات التى خولها المسيح فيما يبدو لبطرس (انجيل متى ١٦ ، ١٩) والتى انحدرت

من بطرس إلى رجال الدين بمقتضى هذه السلطات أن يغفروا للتائب المعترف بذنوب خطاياه وما يترتب عليها من عقاب فى نار جهنم ، ولكنهم لا يعفون أولئك المذنبين من التكفير عن خطاياهم أثناء حياتهم على ظهر الأرض . على أن الذين يستطيعون أن يثقوا بأنهم يموتون بعد أن يكفروا التكفير الواجب عن ذنوبهم كلها ليسوا إلا قلة صغيرة من الناس مهما اعترفوا بذنوبهم وطهرهم هذا الاعتراف ، إن الذين يستطيعون أن يثقوا بذلك هم قلة صغيرة من الناس ، أما الباقون فلابد أن يكفروا عما بقى من ذنوبهم بأن يقدموا عدداً من السنين فى المطهر ، الذى أوجده الإله الرحيم ليكون جحيما مؤقتاً لهؤلاء المذنبين . لكن ثمة طائفة كبيرة من الأولياء الصالحين قد كسبوا بفضل خشوعهم وتقواهم واستشهادهم فى سبيل الدين من الفضائل ما نرى فى أكبر الظن زيادته على ماكفروا به عن ذنوبهم . وقد خلف المسيح وراءه بموته قدراً لا يحصى من الفضائل ، وهذه الفضائل كما تقول الكنيسة ، يمكن أن تعد بمثابة كنز يستمد منه البابا ما يشاء ليمحو جزءا من الآثام التى ارتكبها الناس فى الدنيا . ولم يكفروا عنها كل التكفير. وكانت الكفارة التى تضعها الكنيسة تتخذ فى العادة صورة تكرار بعض الأدعية أو إخراج الصدقات أو الحج إلى بعض الأضرحة المقدسة ، أو الاشتراك فى حرب صليبية ضد الأتراك أوغيرهم من« الكفرة » . أو التبرع بالمال أو العمل لبعض المشروعات الاجتماعية كتجفيف مستنقع ، أو إنشاء طريق ، أوبناء قنطرة ، أو مستشفى ، أوكنيسة . وكان استبدال غرامة مالية (فدية) بالعقاب البدنى سنة مألوفة من عهد بعيد فى المحاكم المدنية ، ومن ثم فإن تطبيق هذه الفكرة على صكوك الغفران لم يغضب الناس فى بادئ الأمر . وكان التائب المعترف ، إذا أدى هذه الفدية أى إذا خرج عن بعض المال — لنفقات الكنيسة تسلم صلك غفران جزئى أوكلى ، ولم يكن هذا الصك ليجيز له أن يرتكب ذنوباً جديدة ، بل يمكنه من أن ينجو .. ماً ،

أو شهراً ، أوعاماً من عذاب المطهر ، أو أن يعفى من جميع المدة التى كان لابد له أن يقضيها فى عذاب المطهر عقاباً له على ذنوبه لولا هذا الصلك ، ولم يكن الصلك ليعفى من جريمة الإثم ، أما هذه الجريمة فقد كانت تعفى حين يغفر القس ذنب التائب النادم أثناء الاعتراف قبل الموت . فصلك الغفران ، والحالة هذه ، معناه أن تمحو الكنيسة بعض العقوبات الدنيوية (أى غير الأبدية) التى يتعرض لها صاحب الخطايا التى غفر أثمها أثناء عملية الكفارة .

وسرعان ما تبدل شأن هذه النظرية البارعة المعقدة بفضل سذاجة الناس أو شراهة الغافرين الذين عهد إليهم توزيع صكوك الغفران أو ادعوا لأنفسهم حق توزيعها . وإذ كان يسمح لهؤلاء الموزعين أن يحتفظوا لأنفسهم بجزء مما تدره من المال ، فقد أغفل بعضهم الإصرار على توبة من يبتاعون الصكوك ، أو اعترافهم بذنوبهم ، أوصلواتهم ، وتركوا لهم حريتهم الكاملة فى أن يفسروا الصكوك بأنها تعفيهم من التوبة ، ومن الاعتراف ، ومن الغفران على يد القساوسة ، وبأنهم يستطيعون الاعتماد كل الاعتماد تقريباً على ما يقدمون من المال . وقد وصل الأمر حدا جعل تومس جسكونى مدير جامعة اكسفورد يجأر بالشكوى ويقول :

يقول المذنبون فى هذه الأيام : « لست أبالى كم ارتكب من الذنوب أمام الله لأن من السهل على أن أتخلص من كل ذنوبى ومما يترتب عليها من العقاب بالمغفرة وصكوك الغفران يمنحنى إياها البابا الذى ابتاعهامنه مستورة نظير أربع بنسات أو ست كانى اكسبها فى لعبة تنس مع من فى مقدرته أن يمنح هذا الغفران » . ذلك أن بائعى هذه الصكوك يطوفون بالبلاد ويفرقون خطابات بالمغفرة نظير بنسين تارة ونظير جرعة من الخمر أو الجعة تارة أخرى . . . بل إنهم يعطونها نظير استئجار عاهر أو نظير الحب الدنس[٧٥] ولقد ندد البابوات — بونيفاس التاسع فى عام ١٣٩٢ ،

ومارتن الخامس فى عام ١٤٢٠ وسكستس الرابع فى عام ١٤٧٨ — أكثر من مرة بهذه المساوئ وهذا الخطأ فى التفكير ولكن حاجتهم إلى المال كانت أشد من أن يستطيعوا معها السيطرة المجدية على هذه العادات السيئة . وكثيراً ما أصدروا القرارات لأسباب عدة يتحير الفكر فيها مع إيمان رجال العلم بهذه النظرية واتهموا الكنيسة بأنها تستغل سذاجة الناس وآمالهم استغلالا يجللها بالعار[٥٨] وكانت اللغة الرسمية فى بعض هذه الحالات كالصكوك التى عرضها يوليوس الثانى فى عام ١٥١٠ أوليو العاشر فى عام (١٥١٣) تحمل من المعانى ما يمكن تفسيره تفسيراً مالياً خالصاً[٥٩] . وقد وصف أحد الرهبان الفرنسيس من ذوى المراتب العليا وهو غاضب أشد الغضب كيف كانت الصناديق توضع فى كنائس ألمانيا كلها لتتلقى الأموال من الذين لم تمكنهم ظروفهم من الذهاب إلى رومة ليشهدوا الاحتفال الذى أقيم فيها عام ١٤٥٠ فاستطاعوا الآن أن تغفر لهم جميع ذنوبهم بالمال يلقونه فى الصناديق ثم حذر الألمان قبل أن يحذرهم لوثر بنصف قرن فقال لهم ان صكوك الغفران وغيرها من الوسائل تستنزف مواردهم وتنقلها إلى رومة[٦٠] وحتى رجال الدين أنفسهم كانوا يشكون من أن صكوك الغفران كانت تقتنص الأموال إلى خزائن البابوات وكان خليقاً بهذه الأموال أن تستخدم فى الأغراض الكنسية المحلية[٦١] ويلخص مؤرخ كاثوليكى هذا الموضوع كله بصراحة خليقة بالإعجاب فيقول :

ان المساوئ ذات الصلة بصكوك الغفران تنشأ كلها تقريباً من سبب واحد وهو أن المؤمنين بعد أن يشهدوا مراسم التكفير وهى الشرط المقرر المعترف به لنيل المغفرة ، يطلب إليهم أن يقدموا من المال ما يتناسب مع ثرائهم وبذلك أصبح المال الذى يؤدى للأعمال الخيرية وهو الذى يجب أن يكون من الأعمال النافلة التى لا يلزم بها إنسان ، أصبح هذا المال فى بعض الحالات هو الشرط الأساسى لغفران الذنوب . . وكثيراً ما أصبح

المال لا العمل الصالح هو الغاية المقصودة من الغفران ولسنا ننكر أن العبارات التى صيغت فيها قرارات البابوية يخيل إلى الإنسان معها أنها لا تحيد مطلقاً عن عقائد الكنيسة وان الاعتراف والندم والأعمال الصالحة المنصوص عليها فى هذه العقائد هى الشرط الأساسى لنيل المغفرة ، إلا أن الجانب المالى كان يبدو واضحاً فى جميع الأحوال وكان للهبات المالية المقام الأول فى هذا الأمر كله مما يسربل الكنيسة بالعار ويجعلها مضغة فى الأفواه . اتخذت صكوك الغفران شيئاً فشيئاً صورة الصفقات المالية ، وأدى هذا إلى كثير من النزاع بين السلطات الزمنية التى كانت تتطلب على الدوام حظها من هذه الموارد(٦٢)

ولايقل عن بيع صكوك الغفران دلالة على حب الكنيسة للمال قبولها أو طلبها المال أوالهبات أو الوصايا نظير تلاوة الأدعية والصلوات التى يقولون إنها تقصر المدة التى تقضيها روح الميت فى المطهر لتعاقب عن ذنوبها وكان الصالحون الأتقياء من الناس يخصصون من أموالهم جزءاً كبيراً لهذا الغرض لتنجو به روح قريب لهم أو ميت فارق الحياة الدنيا أو ليقصروا المدة هم أنفسهم فى المطهر بعد موتهم أويلغوها إلغاء تاماً . ولهذا أخذ الفقراء يشكون من أن عجزهم عن أداء الأموال نظير الأدعية والصلوات أو لابتياع صكوك الغفران يجعل الأغنياء على الأرض لا الوادعين هم الذين يرثون ملكوت السموات ، ولقد كان كوليس حصيفاً حين امتدح المال لأن « من يمتلك المال يستطيع نقل الأرواح إلى الجنة » كما قال(٦٣) .

وازدادت الشكاوى من الكنيسة فبلغت ألفاً أو تزيد فقد غضب غير رجال الدين من إعفاء الكهنوت من الخضوع لقوانين الدولة ومن معاملة المحاكم الكنسية للمذنبين من رجال الدين باللين الذى يعرض الدولة لأشد الأخطار . وها هو ذا مجلس نورنبرج يعلن فى عام ١٥٢٢ أن المدعى من غير رجال الدين لا يمكن أن ينال العدالة إذا كان المدعى عليه من رجال

الكنيسة وكان التقاضى أمام محكمة كنسية وقال منذراً إنه إذا لم يخضع رجال الدين للمحاكم الزمنية فسيثور الناس على الكنيسة فى ألمانيا ثورة عاصفة(٦٤) ، وجدير بنا أن نقول إن هذه الثورة كانت قد قامت بالفعل قبل ذلك الوقت. وكان من الشكاوى الأخرى ابتعاد الدين عن الأخلاق الكريمة وتوكيد العقيدة والإيمان بدلا من توكيد المسلك الطيب ، (وان كان المصلحون من هذه الناحية أشد إثماً من الكنيسة نفسها) وجعل الدين مقصوراً على المراسم والطقوس ، والتعطل العديم النفع والعقم المظنون بين الرهبان ، واستغلال سذاجة الشعب بعرض المخلفات الزائفة والمعجزات الكاذبة وسوء استخدام الحرمان الدينى واللعنة الدينية والرقابة التى يفرضها الكهنة على المطبوعات والتجاء محكمة التفتيش إلى أشد ضروب القسوة والتجسس على الناس وسوء استخدام الأموال التى جمعت لإعداد الحملات الصليبية على الأتراك وتوجيهها إلى أغراض أخرى ، ومطالبة الكهنة المنحطين إلى هذا الدرك الأسفل بأن يكون لهم وحدهم حق القيام بجميع المراسم الدينية وتقديم القرابين ما عدا عملية التعميد.

وقد تجمعت كل هذه العوامل السالفة الذكر فكانت سبباً فى ابتعاد أوربا عن الكنيسة الكاثوليكية الرومانية فى بداية القرن السادس. ويقول باستور فى ذلك « ان احتقار غير رجال الدين وكراهيتهم للكهنة الفاسدين كان من أقوى العوامل فى مروق الكثيرين من الدين(٦٥) » وشكا أحد أساقفة لندن فى عام ١٥١٥ من أن الناس يميلون إلى الإلحاد ميلا بلغ من سوء العاقبة والانحطاط حداً جعلهم .. يندّدون بكل رجل من رجال الدين وان لم يكن يقل طهراً وبراءة عن هابيل »(٦٦) وها هو ذا ارازمس نفسه يقول ان لقب قس أو كاهن أو راهب أصبح يعد من أشد الإهانات(٧٦) وفى مدينة فيينا أصبح منصب القس فى العشرين سنة السابقة على الإصلاح لا يجد من يشغله مع أنه كان قبل ذلك الوقت خير ما يرغب فيه الأهلون(٦٨) .

ولهذا كله رفع الناس عقيرتهم فى جميع أنحاء العالم المسيحى اللاتينى، مطالبين بإصلاح « الكنيسة إصلاحاً يشمل رأسها وأعضاءها جميعاً » . وكان الإيطاليون المتحمسون الثائرون أمثال ارنلد البريشيائى ويواقيم الفلورى ، وسفنرولا الفلورنسى قد هاجموا مساوئ الكنيسة دون أن يخرجوا على المذهب الكاثوليكى ولكن اثنين منهم مع ذلك قد حرقوا وهم على قيد الحياة ، غير أن الكاثوليك الصالحين ظلوا يأملون أن يتم الإصلاح على يد أبناء الكنيسة المخلصين الموالين لها وكان الكتاب الإنسانيون أمثال أرازمس ، وكوليت ، ومور ، وبوديه يخشون ما يحدثه الهجوم العلنى على الكنيسة من اضطراب أمورها واختلال نظامها ، فقد كفاها ضعفاً أن ظلت الكنيسة اليونانية بعيدة عن الكنيسة الرومانية مصممة على هذا البعد كل التصميم ، وكان كل تمزق فى « ثوب المسيح الذى لا درز فيه يهدد كيان العالم المسيحى نفسه بالفناء وكم من مرة حاولت الكنيسة مخلصة فى معظم الأحوال أن تطهر صفوفها ومحاكمها وأن تسلك فى شئونها المالية مسلكاً يتفق مع الخلق الطيب ويسمو على أخلاق غير رجال الدين فى تلك الأيام . ولطالما حاولت الأديرة أن تعود إلى قواعد نسكها القديم ولكن طبيعة الإنسان كانت تنقض كل ما يوضع من الدساتير وحاولت المجالس إصلاح الكنيسة ولكن البابوات عارضوها فأخفقت فى أغراضها ، وحاول البابوات أنفسهم أن يقوموا بذلك الإصلاح ولكن الكرادلة ورجال الإدارة البابوية هزموا أولئك البابوات ولقد شكا ليو العاشر نفسه فى عام ١٥١٦ والحسرة تملأ قلبه من إخفاق هذه المحاولات ولسنا ننكر أن بعض المستنيرين من رجال الكنيسة أمثال نقولاس الكوزائى قد حققوا بعض الإصلاحات المحلية ، ولكن هذه الإصلاحات نفسها كانت قصيرة الأجل . وأثار التنديد بمعايب الكنيسة والتشنيع عليها من أعدائها ومحبيها على السواء ، ثائرة المدارس واضطربت له المنابروفاضت به كتب

الأدب ، وأخذ يزداد يوماً بعد يوم وعاماً بعد عام ويستقر فى ذاكرة الناس ويستثير غضبهم حتى قضى على ما كان للكنيسة فى قلوب الناس من احترام وما كان باقياً من تقاليد واكتسحت أوربا ثورة دينية عارمة كانت أوسع مدى وأعمل أثراً من جميع الانقلابات السياسية التى حدثت فى أيامنا الحاضرة .

الباب الثانى

انجلترا: ويكلف، وتشوسر، والعصيان الكبير

١٣٠٨ – ١٤٠٠

الفصل الأول

الحكومة

أقسم ادوارد الثانى الملك السادس من آل بلانتجت فى الخامس والعشرين من فبراير سنة ١٣٠٨ أثناء تتويجه الرائع أمام رجال الدين والنبلاء المجتمعين فى دير وست منستر، القسم الذى تطلبه انجلترا فى كبرياء من جميع ملوكها.

كبير أساقفة كنتربرى: سيدى هل تمنح أهل انجلترا وتحتفظ لهم وتؤكد لهم بقسمك القوانين والعادات التى منحها إياهم ملوك انجلترا الأقدمون أسلافك الصالحون المتدينون وخاصة القوانين والعادات والامتيازات التى منحها لرجال الدين وللشعب سلفك الملك العظيم القديس ادوارد؟

الملك: إنى أمنحهم إياها وأعدهم بها.

كبير الأساقفة: سيدى هل تؤيد أمام الله وأمام الكنيسة المقدسة لرجال الدين وللشعب السلم والوئام فى سبيل الله بكل مالك من قوة.

الملك: نعم سأؤيدها.

كبير الأساقفة: سيدى هل تعمل على أن تكون جميع أحكامك متصفة بالعدالة الحقة والمساواة والحزم والرحمة والصدق وتسعى لها بجميع قواك.

الملك: سأفعل ذلك.

كبير الأساقفة: هل تعد بأن تستمسك بالقوانين والعادات الصالحة

التى قد تختارها بلادك وأن تحافظ عليها وهل تدافع عنها وتقويها تكريماً لله وتعظيماً له بأقصى ما لديك من قوة ؟ .

الملك : أوافق على ذلك وأعدبه[1] .

وبعد أن أقسم الملك على ذلك ومسح بالزيت المقدس وكرس حسب الأصول المرعية عهد بالحكم إلى موظفين مرتشين عاجزين وصرف حياته فى اللهو مع بيرزجافستون الغلام الذى كان يعشقه . لهذا ثار عليه أعيان البلاد وقبضوا على جافستون وذبحوه (١٣١٢) وأخضعوا ادوارد وانجلترا لحكم الأقلية الثرية والإقطاعية . ولما عاد ادوارد بجلله الخزى والعار بعد أن هزم على أيدى الاسكتلنديين فى بنوكبرن (١٣١٤) أخذ يواسى نفسه بحب جديد هو حب هيو المبذر الثالث . وتآمرت زوجته ازابلا الأميرة الفرنسية التى أهملها مع عشيقها روجردى مورتمر على خلعه عن العرش (١٣٢٦). ثم اغتاله أحد رجال مورتمر فى قلعه بركلى (١٣٢٧) ، وتوج ابنه ادوارد الثالث ملكاً على انجلترا وهو فى الخامسة عشرة من عمره .

وكانت أهم الحوادث فى تاريخ انجلترا فى ذلك العهد وأعلاها قدراً هو أن تقررت فى عام ١٣٢٢ سابقة تحتم موافقة جمعية وطنية على كل قانون تسنه الحكومة كى يصبح نافذاً مشروعاً . فقد جرت سنة الملوك الإنجليز منذ زمن طويل إذا ألزمتهم الحاجة أن يدعوا للاجتماع « مجلس الملك » المؤلف من كبار الأعيان ورجال الدين . فلما كان عام ١٢٩٥ كان ادوارد الأول يحارب فرنسا واستكلنده وويلز فاشتدت حاجته إلى المال والرجال فأمر « كل مدينة ، وكل بلدة كبيرة أن تبعث باثنين من مواطنيها الأحرار وكل إقليم أومقاطعة بأن ترسل فارسين (أقل درجة من النبلاء) إلى جمعية وطنية يتألف منها هى ومجلس الملك أول برلمان إنجليزى . وكان الباعث على هذه الدعوة أن المدن على اختلاف أنواعها كان لديها المال وقد يكون مستطاعاً أن يوافق مندوبوها على إعطائه للملك ، أما المقاطعات والأقاليم

فكان فيها الملاك المزارعون الذين يصبحون رماة بالسهام والحراب أقوياء ، وكان الوقت قد حان لإنشاء هاتين القوتين وجعلهما جزءاً من هيكل الحكومة البريطانية . ولم يكن يدعى للديمقراطية الكاملة . ذلك أن المدن كانت — أو أنها ستكون قبل عام ١٤٠٠ — قد رفعت عن كاهلها سيادة رجال الاقطاع ، فقد قصر حق الاقتراع فيها على أقلية صغرى من الملاك الذكور . ومعنى هذا أن الأشراف ورجال الدين ظلوا كما كانوا حكام انجلترا ، فقد كانوا يملكون معظم الأرض الزراعية ويستخدمون فيها الكثرة الغالبة من السكان إما مستأجرين لها أو أرقاء أرض فيها ، وكانوا هم الذين ينظمون قوى البلاد المسلحة ويوجهونها .

واجتمع البرلمان (وهو الاسم الذى سمى به أيام ادوارد الثالث) فى القصر الملكى بوست منستر المقابل للدير التاريخى المسمى بهذا الاسم . وجلس فيه عن يمين الملك كبير أساقفة كنتربرى ويورك ، والأساقفة الثمانية عشر ، ورؤساء الأديرة الكبيرة ، وجلس عن يساره مائة ممن يحملون ألقاب دوق ، ومركيز ، وايرل ، وفيكونت ، وبارون ، وتجمع ولى العهد ومجلس الملك قرب العرش ، وجلس قضاة المملكة على أكياس من الصوف يذكرهم بأهمية تجارة الصوف لإنجلترا ، وقد جاءوا ليدلوا برأيهم فى النقط القانونية . ولما افتتحت الجلسة وقف نواب المدن والفرسان — الذين عرفوا فيما بعد بالعموم — عراة الرؤوس أمام حاجز يفصلهم عن رجال الدين والأعيان ، وأصبحت الجمعية الوطنية وقتئذ (١٢٩٥) لأول مرة مكونة من مجلس أعلى ومجلس أسفل . واستمع القسمان مجتمعين إلى الملك أو نائبه وهو يلقى خطاباً (سمى فيما بعد خطبة العرش) يشرح فيه الموضوعات التى سيدور فيها البحث والقرارات التى يراد إصدارها . ثم انسحب رجال « العموم » ليجتمعوا فى قاعة أخرى — كانت هى عادة قاعة اجتماع القساوسة فى ديروست منستر . وهناك تناقشوا فى اقتراحات الملك المعروضة عليهم :

فلما انتهت مناقشاتهم انتدبوا « متكلما » ليبلغ المجلس الأعلى ما وصلوا إليه من نتائج ، وليعرضوا ملتمساتهم على الملك . ولما انتهت دورة الانعقاد اجتمع المجلسان مرة أخرى ليستمعا إلى رد الملك وليعلنا انفضاض الدورة وكان للملك وحده حق دعوة البرلمان إلى الاجتماع وفض دورة اجتماعاته .

وكان كلا المجلسين يطالب لنفسه بحرية المناقشة ويستمتع بها فى الأحوال العادية . وكانا فى كثير من الأحوال يرفعان إلى الحاكم ما يستقر عليه رأيهما بعبارات قوية منطوقة أومكتوبة ، غير أن الحاكم فى كثير من الأحوال كان يأمر بسجن من يشتط فى نقده . وكانت سلطات البرلمان تشمل من الوجهة النظرية شئون التشريع ، أما من الوجهة العملية فكان وزراء الملك هم الذين يعرضون على البرلمان مشروعات القوانين التى يقرها ، غير أن المجلسين كثيراً ما كانا يقدمان توصيات وشكاوى ويؤخرون الاقتراع على الأموال المطلوبة حتى تستجاب رغباتهم كلها أوبعضها . وكانت « قوة المال » هذه هى كل ما فى أيدى « العموم » من سلاح ، ولكن سلطتهم هذه زاد شأنها حين زادت نفقات الإدارة وثروة المدن . فلم تكن الملكية والحالة هذه ملكية مطلقة أو دستورية فالملك مثلا لم يكن يستطيع تغيير سنة البرلمان أو سن قانون جديد بنفسه علناً وبطريقة مباشرة ، ولكنه كان خلال معظم العام يحكم دون أن يقيده البرلمان ويصدر قرارات تنفيذية لها أثرها فى كل ناحية من نواحى الحياة الإنجليزية . ولم يكن يرقى العرش عن طريق الانتخاب بل عن طريق الوراثة . وكانت ذاته تعد ذاتاً مقدسة ترعاها الحرمات الدينية ، وكانت جميع قوى الدين والعادات والقانون والتربية واليمين التى تتلى عند تتويجه تبث فى النفوس طاعته والولاء له . فإذا لم يكف هذا كان قانون الخيانة العظمى ينص على أن يقبض عليه متهماً بعصيان الدولة يجر فى الشوارع إلى المشنقة وتنتزع أحشاؤه وتحرق أمام عينيه ثم يشنق بعدئذ(٢) .

ولما بلغ ادوارد الثالث الثامنة عشرة من عمره فى عام ١٣٣٠ تولى

شئون الحكم بنفسه وبدأ عهداً من أكثر العهود حادثات فى تاريخ انجلترا . وقد كتب مؤرخ معاصر له يقول « كان وسيم الخلق ، وكان وجهه كأنه وجه إله[٣] ، وقد ظل حتى أضعفه الإسراف فى المسائل الجنسية ملكاً فى سمته وفى كل جارحة من جوارحه وكاد يهمل شئون السياسة المحلية لأنه كان محارباً لا حاكماً ، وقد أسلم السلطات إلى البرلمان وهو راض مغتبط مادام البرلمان يمده بما تحتاجه حروبه من المال . وقد ظل طوال حكمه الطويل يستنزف دماء فرنسا فيما كان يبذله من محاولات لضمها إلى تاجه ؛ لكنه كان مع ذلك رجلا ذا مروءة ، وكثيراً ما كان شهماً مقداماً ، وقد عامل الملك جون الفرنسى حين أسر معاملة يشرف بها بلاط الملك ارثر لو أنها كانت فى أيامه . ولما تم بناء البرج المستدير فى وندسور بعد أن سخر فى بنائه ٧٢٢ رجلا عقد فيه اجتماعاً حول مائدة مستديرة مع المقربين إليه من الفرسان وأقام حفل مثاقفة رأسه بنفسه . ويرى فرواسار قصة لا نستطيع تحقيقها يقول فيها أن ادوارد حاول أن يغوى كونتيسة سلزبورى الحسناء ، فلما صدته فى أدب ومجاملة أقام حفل ألعاب فروسية لكى يستمتع خلالها بمشاهدة جمالها [٤] ، وتروى قصة أخرى طريفة ان الكونتيسة ألقت على الأرض بربطة ساق حين كانت ترقص أثناء حفل فى البلاط ، فاختطفها الملك من فوق الأرض وقال « فليجلل العار من تخامره فيه فكرة سوء » .

وأصبحت هذه العبارة من ذلك الوقت شعار نوط ربطة الساق الذى أنشأه ادوارد فى عام ١٣٤٩ .

وأثبتت اليس برز أنها أيسر منالا من الكونتيسة ذلك أنها وإن كانت متزوجة قد استسلمت للمليك النهم ، ونالت فى نظير ذلك الاستسلام هبات واسعة من الأرض ، وكان لها عليه من النفوذ العظيم ما جعل البرلمان يسجل احتجاجه على هذا النفوذ . وصبرت الملكة فيلبا (كما يقول فروسار تابعها المغرم بها) على هذا كله صبر الكرام ، وسامحته ، ولم تطلب إليه وهى

على فراش الموت ألا أن يوفى بما قطعه على نفسه من عهود خاصة بالصدقات وألا تختار لنفسك ، حين يريد الله أن تفارق هذا العالم قبراً غير أن ترقد إلى جوارى» . ووعدها بذلك «والدمع يترقرق فى عينيه» ثم عاد إلى إليس وأعطاها جواهر الملكة .

وخاض غمار حروبه بجد وشجاعة ومهارة ، وكانت الحروب تعد وقتئذ أسمى أعمال الملوك وأنبلها ، وكان من يتقاعدون عن الحروب من الملوك يحقرون ، وقد خلع من ملوك انجلترا ثلاثة يتصفون بهذه الصفة ، وكان الموت الطبيعى عاراً لايستطيع معه إنسان ما ان يبقى حياً ، إذا جاز لنا أن نتجاوز بعض الشيء عما فى هذا القول من مفارقة تاريخية ، وكان كل فرد من أبناء الأسر الأوروبية الشريفة يدرب على الحرب ، ولم يكن يستطيع أن ينال السلطان أو الأملاك إلا بالشجاعة فى الحروب والحذق فى استعمال السلاح . وكان الأهلون يقاسون الأهوال من جراء الحروب ، ولكنهم قلما كانوا هم أنفسهم يخوضون غمارها حتى اعتلى هذا الملك العرش ، ونسى أبناؤهم ذكرى آلامها ، وأخذوا يستمعون إلى قصص الفروسية القديمة التى تروى أمجاد الفرسان ، ويتوجون بأحسن الأكاليل رؤوس ملوكهم الذين يريقون من دماء الأجانب أكثر قدر مستطاع .

ولما عرض ادوارد أن يفتح فرنسا لم يكد يجرؤ أحد من مستشاريه على أن يشير عليه بالتراخى والصلح ، ولم ترتفع صيحة السلام من ضمائر الأمة إلا بعد أن استمرت الحرب جيلا من الزمان ، وأثقلت كاهل الأهلين حتى الأغنياء منهم بالضرائب الفادحة . وكاد استياء الشعب يبلغ حد الثورة حين تبدلت حملات ادوارد من نصر إلى هزيمة وهددت الاقتصاد القومى بالخراب . وكان ادوارد هذا قد ظل حتى عام ١٣٧٠ يفيد فى الحرب والسياسة من حكمة السير جون تشاندوس وولائه وإخلاصه فى خدمته . فلما توفى هذا البطل حل محله فى مجلس الملك دوق لانكستر ابن الملك وهو الذى كان

يطلق عليه اسم جون جونت وهو الاسم المشتق من غانت أوغنت التى ولد فيها . وأسلم جون بإهماله حكم البلاد إلى القراصنة السياسيين الذين أثروا على حساب الشعب ، ورفع البرلمان عقيرته يطلب الإصلاح ، وأخذ الصالحون من الرجال يدعون الله أن يرد على الأمة سعادتها بالتعجيل بموت الملك ، وكان فى مقدور ابن آخر من أبنائه يسمى الامير الأسود — ولعل هذا الاسم مأخوذ من لون درعه — ان يبعث روح القوة والنشاط فى الحكومة ، ولكنه فارق هذا العالم فى عام ١١٧٦ على حين ان حياة الملك قد طالت بعد وفاته .

وأصدر « البرلمان الصالح » فى ذلك العام قرارات ببعض الإصلاحات ، وزج فى السجن باثنين من المجرمين وأمر بطرد أليس بروز من البلاط ، وأخذ على الأساقفة عهداً بأن يحرموها من حظيرة الدين إذا عادت إلى البلاط مرة أخرى . ولما انتهت الدورة البرلمانية أغفل ادوارد قراراته ، وأعاد جون جونت إلى سابق سلطانه وأليس برز إلى فراش الملك ، ولم يجرؤ أحد من الأساقفة على أن يوجه إليها التأنيب أو اللوم . ثم رضى الملك العنيد آخر الأمر أن يموت (١٣٧٧) ، وخلفه على العرش ابن للأمير الأسود وتسمى باسم ريشارد الثانى ، وكان غلاماً فى الحادية عشرة من عمره ؛ وكانت البلاد حين تولى الحكم تضطرب فيها عوامل الفوضى الاقتصادية والسياسية وتختمر فيها أسباب الثورة الدينية .

الفصل الثانى

جون ويكلف

١٣٢٠ – ١٣٨٤

ترى ما هى الظروف التى جعلت انجلترا تستجيب لنداء الإصلاح الدينى فى خلال القرن الرابع عشر ؟

أكبر الظن أن أخلاق رجال الدين لم يكن لها إلا دور ثانوى فى هذه المسرحية . فقد رضى كبارهم وقتئذ بحياة العزوبة ، نعم أننا نسمع أن أسقفاً يدعى بيرنل كان له خمسة أبناء ذكور ، ولكن حالته كانت فى أغلب الظن حالة شاذة . ويتفق ويكلف ولانجلاند ، وجوور ، وتشوسر فيما لاحظوه من ميل بعض الرهبان والإخوان إلى الطعام الشهى والنساء الفاسدات ، ولكن البريطانيين ماكانوا ليستولى عليهم الغيظ وينتشر بين أمتهم بسبب خروج هؤلاء على هذا الصراط الذى كان الزمن قد مهده لهم من قبل ، بسبب الراهبات اللائى كن يأتين إلى الصلاة وفى أيديهن مقاود كلابهن وعلى أذرعهن طيورهن المدللة ، أو بسبب الرهبان الذين كانوا يسرعون فى صلواتهم المتقطعة غير المتماسكة (وقد خص الإنجليز الفكهون الشيطان بمعاون خاص يجمع له جميع المقاطع التى « تتساقط من أفواه القابضين ، والقافزين ، والمسرعين ، والمتمتمين والسابقين فى الوثب والجرى » وهم يقومون بصلواتهم المرخمة ، ثم كان الشيطان يختص هؤلاء الآثمين بعام فى الجحيم جزاء لهم على هذه المقاطع التى يغفلونها أو يطئونها بأقدامهم) .

أما الذى كان يقض مضاجع غير رجال الدين ويفت فى عضدهم هم ورجال الحكم على السواء فهو الزيادة المطردة فى ثروة الكنيسة الإنجليزية وتداولها بين أيدى رجال الدين . نعم ان رجال الدين كانوا يسهمون بأداء

عشر إيرادهم للدولة ، ولكنهم كانوا يصرون على ألا تفرض عليهم ضريبة إلا بموافقة مجامعهم الدينية . ذلك أنهم كانوا يجتمعون بأشخاصهم أو بمن يختارونهم للنيابة عنهم ، فى مجامع يرأسها كبير أساقفة كنتربرى ويورك ، وذلك فضلا عن أنهم كان لهم ممثلون فى مجلس اللوردات هم أساقفتهم ورؤساء الأديرة ، وكان رجال الدين يقررون فى هذه المجالس كل الأمور ذات الصلة بالدين أوبرجاله وقد جرت العادة على أن يختار الملك أكبر موظفى الدولة من بين رجال الدين بوصفهم أعظم الطبقات علما فى انجلترا . وكانت القضايا التى يقيمها العلمانيون على رجال الدين ، والتى تمس أملاك الكنيسة ، ترفع إلى محاكم الملك ، ولكن محاكم الأساقفة كانت هى المختصة بالنظر فى الجرائم التى يرتكبها رجال الدين . وكانت الكنيسة فى كثير من المدن تؤجر أملاكها للأفراد ، وتطالب أن يكون لها السلطة القضائية الكاملة على هؤلاء المستأجرين ، حتى إذا ارتكبوا جرائم عادية . وكانت هذه كلها أمور تضايق الأهلين ، ولكن أكثر ماكان يضايقهم هو انتقال الثروة من الكنيسة الإنجليزية إلى البابوات ، أى انتقالها فى القرن الرابع عشر إلى افنيون أى إلى فرنسا نفسها . وقد قدرت الثروة الإنجليزية التى حصل عليها البابا بأكثر من التى حصلت عليها الدولة أو الملك .

وتألف فى بلاط الملك حزب مناهض لرجال الدين ، وسنت شرائع تجعل القسط الذى تسهم به الكنيسة فى نفقات الدولة أكبر وأعظم ثباتاً مما كان . ولما كان عام ١٣٣٣ أبى ادوارد الثالث أن يستمر فى أداء الجزية التى تعهد جون ملك انجلترا عام ٢١٣ بأدائها للبابوات ، وفى عام ١٣٥١ حاول البرلمان فى « قانون الشروط » أن يضع حداً لسلطان البابوات على موظفى الكنيسة الإنجليزية وايراد ممتلكاتها . ونص « قانون السجن والمصادرة » (١٣٥٣) على أن يحرم من حماية القانون كل إنجليزى يتقاضى فى المحاكم الأجنبية (البابوية) فى جميع المسائل التى يرى الملك أنها فى دائرة اختصاص

السلطة الدنيوية . وفى عام ١٣٧٦ شكا مجلس العموم رسمياً من أن جباة البابوية فى انجلترا يبعثون إلى البابا بمبالغ طائلة من المال ، وأن الكرادلة الفرنسيين غير المقيمين فى انجلترا يحصلون على إيرادات كبيرة من الكراسى الأسقفية الإنجليزية .

وكان زعيم الحزب المناهض لرجال الدين فى بلاط الملك هو جون جونت . وكانت الحماية التى بسطها جون هذا على ويكلف هى التى جعلته يموت ميتة طبيعية .

وكان مولد أول المصلحين البريطانيين فى هبسول القريبة من قرية ويكلف ، من أعمال مقاطعة يوركشير فى حوالى عام ١٣٢٠ ودرس فى جامعة اكسفورد ، وصار فيها أستاذاً للاهوت ، وقضى عاماً (١٣٦٠) بعد ذلك رئيساً لكلية بالبول . ورسم قسيساً ، وتلقى من البابوات عدداً من المناصب أو المرتبات من كنائس الابروشيات ، ولكنه ظل خلال ذلك يدرس فى الجامعة . وكان نشاطه الأدبى كبيراً إلى حد روع معاصريه ، فقد كتب رسائل فى الفلسفة المدرسية عما وراء الطبيعة ، وعن اللاهوت ، والمنطق ، وكتب مجلدين فى فن الجدل ، وأربعة مجلدات فى المواعظ ، ورسائل كثيرة متنوعة قصيرة ولكنها عظيمة التأثير منها رسالة فى السلطة المدنية . وكان معظم ماكتب بلغة لاتينية خالية من الرشاقة عسيرة الفهم من شأنها أن تجعلها قليلة الضرر إلا لعلماء النحو . ولكنه كان يخفى فى ثنايا هذا الغموض أفكاراً جد خطيرة ، كانت تفصل بريطانيا عن الكنيسة الرومانية قبل أن يفصلها هنرى الثامن بمائة وخمسة وخمسين عاماً ، وتقذف ببيوهيميا فى أتون الحرب الأهلية وتسبق جميع أفكار الإصلاح التى نادى بها جون هوس ومارتن لوثر إلا القليل منها .

وبدأ ويكلف عمله بداية سيئة ، فاستسلم لمنطق أوغسطين وفصاحته ،

وبنى عقيدته على مبدأ الجبرية الخطير ، وهو المبدأ الذى قدر له أن يبقى حتى يومنا هذا أشبه بالمغناطيس الذى يجذب إليه المذهب البروتستنتى اللاهوتى وينجى القائلين به من العقاب . وفى ذلك يقول ويكلف إن الله يمنح بركته ورحمته لمن يشاء ، وقد كتب على كل إنسان مصيره المحتوم فى الأزل قبل مولده كتب عليه الخسران أو النجاة إلى الأبد . وليست الأعمال الصالحة هى التى تنجى صاحبها ، بل إنها تدل على أن من يعملها قد تلقى رحمة الله ونعمته وأنه ممن اختارهم وخصهم بهذه النعمة وتلك الرحمة ونحن نصدر فى أعمالنا حسبما قسمه الله لنا ، ومصيرنا هو خلقنا وليس خلقنا هو مصيرنا كما قال هرقليطس . وكان آدم وحواء وحدهما هما اللذين استمتعا بحرية الإرادة ، ثم خسرا وأبناؤهما من بعدهما هذه الحرية بمعصيتهما .

والله سيدنا ذو السلطان الكامل علينا ، وولاؤنا له ولاء مباشر أشبه ما يكون باليمين التى يقسمها كل إنجليزى أمام الملك ، وليس هو ولاء غير مباشر عن طريق ولاء لسيد تابع كما هى الحال فى فرنسا الإقطاعية . ومن ثم كانت العلاقة القائمة بين الإنسان والله علاقة مباشرة لا تحتاج إلى وسيط ، ولذلك يجب أن يرفض كل ما تدعيه الكنيسة أويدعيه أىقس من أن تكون هى أويكون هو واسطة لابد منها . وبهذا المعنى يكون كل مسيحى قسيساً وليس فى حاجة إلى أن يرسم كذلك والله مالك الأرض وما عليها ، وليس فى مقدور الآدمى أن يمتلك شيئاً منه بحق إلا بوصفه تابعاً له طائعاً لأمره . وكل من يحمل وزرا — ويكون بذلك عاصياً للملك القدوس — يفقد بذلك كل حق له فيما يملك لأن الامتلاك الحق يتطلب أن يكون المالك متمتعاً بنعمة الله . وواضح مما جاء فى الكتاب المقدس أن المسيح قد قصد ألا يكون للحواريين ولمن خلفهم ، ولمن رسموا بعدهم مندوبين عنهم ألا يكون لهؤلاء جميعاً أملاك ما وأذن فكل كنيسة ، وكل قس يمتلكان شيئاً يعصيان أوامر الله ، وهما لذلك آثمان ، ومن ثم فهما لا يستطيعان تقديم العشاء الربانى . ومن ثم

فإن أعظم ما تحتاجه الكنيسة ويحتاجه رجال الدين من إصلاح هو أن تتخلص ويتخلص رجالها من الأملاك الدنيوية .

وكأن هذا لم يكن يثير من المتاعب ما فيه الكفاية ، فاستنتج ويكلف من مذهبه الديني مذهباً آخر من مذاهب الشيوعية النظرية والفوضى النظرية ، فقال إن كل شخص تحل عليه نعمة الله وبركته يشارك الله فى امتلاك الطيبات ، أى أن كل شيء من الوجهة النظرية يتملكه جميع الصالحين مجتمعين . أما الملك الخاص والحكومة فهما أثر من آثار خطيئة آدم وخطيئة الإنسان التى ورثها عنه أى أنهما متأصلان فى الطبيعة البشرية) كما كان ينادى بذلك بعض الفلاسفة المدرسيين . والمجتمع الذى تعمه الفضيلة لا يكون فيه ملك فردى ، ولاقانون يضعه الإنسان وتسنه الكنيسة أو الدولة . وخشى ويكلف أن يفسر ذلك المتطرفون الذين كانوا يفكرون وقتئذ فى الخروج على الحكومة فى انجلترا تفسيراً حرفياً ، فقام يفسر هو شيوعيته على أنها يجب أن تؤخذ بمعناها المثالى ، وأن السلطات التى تقوم بمقتضاها هى التى نادى بها القديس بولس والتى أمر بها الله ومن ثم كانت واجبة الطاعة . وقد كرر لوثر فى عام ١٥٢٥ تكراراً يكاد يكون دقيقاً كل الدقة ما لمح به ويكلف فى أقواله عن الثورة .

ورأى الحزب المناهض للكنيسة شيئاً من المغنى فى تنديد ويكلف بثروة الكنيسة ، ان لم يره فى شيوعية ويكلف . ولما رفض البرلمان مرة أخرى ان يؤدى الخراج الذى تعهد الملك جون ان يؤديه للبابا (١٣٦٦) عين ويكلف قساً فى خدمة الملك ليعد دفاعاً عن هذا العمل ، وعينه ادواردالثالث فى عام ١٣٧٤ رئيساً لكنيسة ابرشية لوثر وورث ويبدو أنه قصد بذلك أن يكون إيرادها أجراً له يحتفظ به لنفسه . ثم عين ويكلف فى عام ١٣٧٦ عضواً فى اللجنة المكلفة التى أرسلت إلى بروج لتبحث مع عمال البابا ما تصر عليه انجلترا من رفض أداء الخراج ، ولما ان اقترح جون جونت أن تصادر الحكومة بعض أملاك الكنيسة ، دعا ويكلف إلى الدفاع عن هذا الاقتراح

فى سلسلة من الخطب الدينية يلقيها فى لندن .ولبى ويكلف الدعوة (فى سبتمبر من عام ١٣٧٦) ، وكان جزاؤه ان وسمه الحزب المناصر لرجال الدين بأنه آلة فى يد جونت . وقرر كورتناى أسقف لندن أن يشن هجوماً غير مباشر على جونت ، فاتهم ويكلف بأنه رجل مارق خارج على الدين . واستدعى الواعظ للمثول أمام مجلس من الأحبار فى كنيسة القديس بولس فى شهر فبراير من عام ١٣٧٧ . وأطاع الأمر ، ولكنه جاء ومعه جون جونت تتبعهما حاشية مسلحة . وشجر نزاع بين الجنود وبعض النظارة ، قامت على أثره ضوضاء ، فرأى الأسقف أن من الحكمة تأجيل المحاكمة ، وعاد ويكلف إلى اكسفورد دون أن يمسسه سوء . وبعث كورتناى إلى رومة اتهاماً مفصلا نقل فيه اثنتين وخمسين عبارة من كتب ويكلف ، فلما كان شهر مايو أصدر جريجورى الحادى عشر مراسيم بابوية يطعن فيها على ثمانية عشر من أقوال ويكلف ، معظمها من رسالته « عن الحكم المدنى » ، وأمر سدبرى كبير الأساقفة والأسقف كورتناى أن يبحثا الأمر ليعرفا هل لا يزال ويكلف معتنقاً لهذه الآراء ، فإذا تبينا أنه لا يزال يعتنقها فعليهما أن يلقيا القبض عليه ويحتفظا به فى الأغلال حتى تصدر إليهما تعليمات أخرى .

وكان ويكلف فى هذه الأثناء قد كسب تأييد طائفة كبيرة من الرأى العام فضلا عن تأييد جون جونت ولوردبيرسى لورد نورثمبرلند. وكان البرلمان الذى اجتمع فى شهر أكتوبر مناهضاً للكنيسة أشد المناهضة .وكانت حجة القائلين بمصادرة أموال الكنيسة تستهوى كثيرين من الأعضاء ، فقد كان هؤلاء يحسبون أنه إذا ما استولى الملك على الثروة التى يستحوذ عليها الأساقفة ، ورؤساء الأديرة والرهبان ، فإن فى وسعه أن يقيم بها خمسة عشر نبيلا يحملون لقب ايرل ، وألفا وخمسمائة فارس ، وستة آلاف ومائتين من أتباع الفرسان ، وأن يتبقى له بعد ذلك عشرون ألف جنيه . وكانت فرنسا

وقتئذ تستعد لغزو انجلترا ، وكانت الخزانة الإنجليزية تكاد تكون خاوية ، وبدا أن من الحمق أن يسمح لوكلاء البابا بأن يجمعوا الأموال من الابرشيات الإنجليزية لبابا فرنسى ولمجلس من الكرادلة كثرته الغالبة من الفرنسيين . وسأل مستشارو الملك ويكلف « هل يحق لمملكة انجلترا شرعاً ، إذا كانت الضرورة تحتم عليها أن تعمل لصد ما يتهددها من الغزو الفرنسى ، ان تمنع أموال الدولة من الوصول إلى البلاد الأجنبية ، وإن طلبها البابا وهدد من يمنعها بالعقاب معتمداً فى ذلك على وجوب طاعة أوامره ؟ » وأجاب ويكلف عن هذا الاستفتاء بمنشور كان فى الواقع دعوة لفصل الكنيسة الإنجليزية عن البابوية وقد جاء فى هذا المنشور : « ان البابا لايستطيع أن يطلب هذا المال إلا على سبيل الصدقة . . ولما كانت أهل البلاد أولى من غيرهم بهذه الصدقات ، فإن توجيه صدقات الدولة إلى البلاد الخارجية إذا كانت البلاد نفسها فى حاجة إليها ، يخرج بها عن نطاق الصدقات ويجعلها حماقة وبلاهة . ورد ويكلف على الدعوة القائلة بأن الكنيسة الإنجليزية جزء من الكنيسة العالمية الكاثوليكية وان من واجب الكنيسة الإنجليزية لهذا السبب ان تطيعها وتخضع لأوامرها ، رد ويكلف على هذه الدعوى بأن أوصى باستقلال انجلترا الكنسى وقال : « ان الدولة الإنجليزية ، بنص الكتاب المقدس يجب أن تكون هيئة واحدة ، وان يكون رجال الدين ، واللوردات ، والسكان العاديون أعضاء فى هذه الهيئة » . وقد بلغت هذه الدعوى ، التى استبق بها هنرى الثامن من الجرأة حداً جعل مستشارى الملك يطلبون إلى ويكلف أن يمتنع عن الإدلاء بآراء جديدة فى هذا الموضوع .

وأجل البرلمان جلساته فى يوم ٨ نوفمبر . وفى الثامن عشر من ديسمبر نشر الأساقفة — وكانوا قد أعدوا العدة للقتال — قرارات التنفيذ التى أصدرها البابا ، وأمروا مدير جامعة اكسفورد أن ينفذ أمر البابا القاضى باعتقال ويكلف . وكانت الجامعة وقتئذ فى ذروة استقلالها العقلى ، وكانت

فى عام ١٣٢٢ قد اتخذت لنفسها حق خلع أى مدير لها لا ترضى عنه دون أن تأخذ فى ذلك رأى أسقف لنكولن رئيسها الرسمى الأعلى ، وكانت فى عام ١٣٦٧ قد نبذت كل ماكان للأساقفة من إشراف عليها . وأيد نصف كليات الجامعة حق ويكلف فى أن يجهر برأيه على الأقل وأبى مدير الجامعة أن يطيع الأساقفة ، وأنكر كل حق حبر من الأحبار على الجامعة فى المسائل الخاصة بالعقائد ، ولكنه أوصى ويكلف فى الوقت نفسه بأن يبقى إلى حين فى عزلة متواضعاً ، غير أنه قلما يوجد بين المصلحين من يستطيع الصمت ، ظهر ويكلف فى شهر مارس من عام ١٣٧٨ أمام مجلس الأساقفة فى لامبث ليدافع عن آرائه . ولما أوشك النقاش أن يبدأ تلقى كبير الأساقفة رسالة من والدة الملك ادوارد الثانى تستنكر فيه أى قرار نهائى بإدانة ويكلف ، وبينما كانت إجراءات المحاكمة تجرى فى مجراها شق جمهور من الأهلين طريقه من الشارع إلى قاعة الاجتماع ، وأعلن أن الشعب الإنجليزى لايسمح بقيام أية محكمة للتفتيش فى انجلترا . وخضع الأساقفة لرأى الشعب المتفق مع رأى الحكومة وتأجل اتخاذ قرار وعاد ويكلف مرة أخرى إلى داره دون أن يصيبه أذى ، بل إنه فى الحق عاد ظافراً منتصراً . وتوفى جريجورى الحادى عشر فى السابع والعشرين من شهر مارس وحدث الانشقاق البابوى الذى قسم البابوية وأضعف سلطانها كما أضعف سلطان الكنيسة بوجه عام . وعاد ويكلف إلى الهجوم ، وأخذ يصدر المنشور تلو المنشور ، وكان الكثير منها باللغة الإنجليزية ، وكلها تزيد فى مخالفته للكنيسة وثورته عليها .

والصورة التى يصور لنا بها فى تلك السنين هى صورة الرجل الذى أبهظ الجدل كاهله ، وجعله كبير السن متزمتاً فى آرائه الدينية . ولم يكن بالرجل المتصوف ، بل كان إنساناً محارباً ومنظما ، ولعله قد ذهب بمنطقه إلى أبعد حدود التطرف ، وأخذ وقتئذ يطلق العنان للقدح والطعن بلا حساب ، يطعن على الإخوان الرهبان بسبب دعوتهم إلى التمسك بالتقى ، فى حين أنهم

يجمعون المال ويكدسونه ، وكان يرى أن بعض الأديرة ان هى إلا مأوى للصوص ، وعششاً للأفاعى ، وبيوتاً للأحياء من الشياطين » ، وعارض النظرية القائلة بأن فضائل القديسين يمكن أن يستعان بها على إنقاذ الأرواح من المطهر ، وقال إن المسيح والقديسين لم يأتوا إلى الناس بشىء من صكوك الغفران ، « إن الأحبار يخدعون الناس بصكوك الغفران الزائفة أووثائق المغفرة . وينهبون بذلك أموالهم لعنة الله عليهم . . وما أشد حماقة من يبتاعون هذه الصكوك بهذه الأثمان الغالية ؟ وإذا كان فى مقدور البابا أن ينتزع الأرواح من المطهر ، فلم لم ينتزعها منه على الفور عملا بروح الإحسان المسيحية ؟ وذهب ويكلف إلى أبعد من هذا فى عنفه فقال إن « كثيرين من رجال الدين يدنسون أعراض الزوجات ، والعذارى ، والأرامل ، والراهبات ، بكل ضروب الفسق والفجور » ، وطالب بأن يحاكم رجال الدين على جرائمهم أمام المحاكم المدنية غير الدينية ، وهاجم الكهنة الذين يتملقون الأغنياء ، ويزدرون الفقراء ، والذين لايترددون فى أن يغفروا ذنوب الأثرياء ، ولكنهم يحرمون الفقراء المدقعين من حظيرة الدين لأنهم لايؤدون العشور للكنيسة ، والذين يقضون أوقاتهم فى صيد الحيوان والطير ولعب الميسر ، ويقصون على الناس أنباء المعجزات الكاذبة . أما أحبار انجلترا فقد اتهمهم بأنهم « ينتزعون من الفقراء أرزاقهم ، ولكنهم لا يقاومون الظلم » وبأنهم « يقدرون البنس العطن أكثر مما يقدرون دم المسيح الثمين » . ولايصلون إلا تظاهراً وادعاء ويأخذون الأجر عن كل صلاة دينية يقومون بها ويحيون حياة الترف ، فيمتطون الجياد الثمينة ، ذات السروج المصنوعة من الفضة والذهب » ، وهم نهابون . . . خبثاء ، ثعالب ماكرة ، . . . وذئاب ناهشة . . نهمون شرهون . . شياطين . . قردة » . وهو بهذه الأقوال يستبق لوثر فى لغته « والاتجار بالمقدسات منتشر فى جميع أقسام الكنيسة . . وأكثر ما ينتجه هذا الاتجار من الضرر اتجار كنيسة رومة لأنه أوسع ضروب الاتجار انتشاراً ، تحت ستار ادعاء من القداسة ، ولأنه يحرم

بلادنا من الرجال والمال أكثر مما يحرمها غيره » . وان ما هو قائم بين البابوات « فى أنقسامهم » من تنازع شائن ، وتبادلهم الحرمان من حظيرة الدين ، واقتتالهم على السلطان اقتتالا يجللهم العار» يجب أن يدفع الناس إلى ألا يؤمنوا بالبابوات إلا بقدر ما يتبع هؤلاء تعاليم المسيح » ، ان مقام البابا والقسيس فى مقام اللورد بل قل فى مقام الملك » ، فى الشئون الروحية ، ولكنه إذا ما جمع لنفسه الأملاك الدنيوية ، أو السلطة السياسية ، أصبح غير خليق بمنصبه ، ان المسيح لم يكن له مكان يريح فيه رأسه أما هذا البابا فيقول عنه الناس إنه يمتلك نصف الإمبراطورية . . . وكان المسيح وديعاً ... أما البابا فيجلس على عرشه ، ويجعل الأعيان يقبلون قدميه » . ثم يشير ويكلف إشارة رقيقة فيقول ان البابا هو عدو المسيح الذى تنبات به الرسالة الأولى من رسائل الرسول يوحنا ، وأنه الوحش الوارد ذكره فى سفر الرؤيا ، والذى ينبىء بعودة المسيح .

ويقول ويكلف ان هذه المشكلة لا تحل إلا بتجريد الكنيسة من كل الأملاك والسلطات المادية ، ويقول ان المسيح وحوارييه قد عاشوا فقراء وان من واجب القسيسين ان يعيشوا هم أيضاً فقراء ، أما الرهبان والإخوان فيجب أن يعودوا إلى ماكانت تحتمه عليهم قوانين طوائفهم ، فيبتعدوا عن كل ملك وترف . والقساوسة « يجب أن يبتهجوا حين تنتزع منهم كل أسباب السيادة الزمنية » ، ويجب أن يقنعوا بالطعام والكساء ، وان يعيشوا على الصدقات التى يقدمها الناس إليهم طائعين مختارين . وإذا لم يتخل رجال الدين عن ثروتهم ويعودوا باختيارهم إلى الفقر الذى أمرتهم به الشريعة المسيحية ، وجب أن تتدخل الدولة فتصادر أملاكهم « ألا ليصلح السادة والملوك من شأن رجال الدين ، ويرغموا القساوسة على الاستمساك بالفقر الذى أمرهم به المسيح » . ومن واجب الملك حين يفعل هذا ألا يخشى ما يصبه عليه البابا من اللعنات ، لأن « اللعنة الصادرة من الآدمى أيا كان

ليست لها قوة ، إلا إذا كانت اللعنة صادرة من الله نفسه» . والملوك مسئولون أمام الله وحده ، وهم يستمدون سلطانهم منه . ويقول ويكلف فى هذا إن الدولة يجب أن تعد نفسها ذات السلطان الأعلى فى جميع الشئون الزمنية ، وأن عليها أن تستحوذ على جميع أملاك الكنيسة . بدل أن تقبل المبدأ الذى يقول به جريجورى السابع وبونيفاس الثامن وهو أن سلطة الحكومات الدنيوية يجب أن تخضع هى نفسها للكنيسة ، وعلى هذا يجب أن يكون الملك هو الذى يرسم القساوسة .

وكانت سلطة القس تعتمد على حقه فى أن يقدم العشاء الربانى ، ولهذا ولى ويكلف وجهه نحو هذا القربان مستبقا فى ذلك ما قام به لوثر وكلفن استباقاً فيه كل معانيه ، وأنكر ضرورة الاعتراف الجهرى أمام القس ، ونادى بالعودة إلى الاعتراف الاختيارى العام الذى كان يفضله المسيحيون الأولون ، ومن أقواله فى هذا المعنى : « لا حاجة إلى الاعتراف السرى أمام القساوسة . . فذلك اعتراف أدخله الشيطان أخيراً فى الدين . . ذلك أن المسيح لم يكن يعمل به ، كما لم يعمل به أحد من الحواريين من بعده . وبه استحال الناس الآن عبيداً لرجال الدين ، وهو يستخدم الآن أسوأ استخدام للأغراض الاقتصادية والسياسية » و« بهذا الاعتراف السرى يستطيع الراهب والراهبة أن يرتكبا الخطيئة معاً » وقد يكون فى وسع الصالحين من غير رجال الدين ان يغفروا ذنوب الإثم خيراً مما يستطيع أن يغفرها له القساوسة الأشرار ، ولكن الحق الذى لاريب فيه ان الله وحده هو الذى يغفر الذنوب . ومن واجبنا أن نرتاب بوجه عام فى صحة العشاء الربانى الذى يقدمه القس الآثم أو الخارج على الدين ، كما ان القس ، صالحاً كان ، أو طالحاً ، لا يستطيع أن يحيل الخبز المقدس إلى جسم المسيح ودمه . ولم يكن شىء يبدو أبشع فى نظر ويكلف من تفكيره فى أن بعض من يعرفهم من القساوسة يستطيعون أن يأتوا بهذه المعجزة التى هى من صنع الله وحده :

وكان ويكلف ينكر فكرة التجسد كما ينكرها لوثر ، ولكنه لم يكن ينكر حضور المسيح بحق ويقول ان المسيح كان يحضر حضوراً روحياً ، حقيقياً ، صادقاً ، قوى الأثر ، ولكن حضوره هذا كان مع الخبز والنبيذ اللذين لم ينعدم وجودهما كما تدعى الكنيسة . أما كيف يكون ذلك فهو سر غامض لم يحاول كلا الرجلين أن يفسره .

ولم يكن ويكلف يعترف بأن فى هذه الأفكار خروجاً على الدين ، ولكن فكرة « اتحاد الجوهر » روعت بعض أنصاره ، فأسرع جون جونت إلى اكسفورد ، وألح على صديقه ألا يذكر شيئاً آخر عن العشاء الربانى (١٣٨١) ، ورفض ويكلف نصيحته ، وعاد فأكد آراءه فى اعتراف له أصدره بتاريخ ١٠ مايو سنة ١٣٨١ . واندلعت نيران ثورة اجتماعية فى انجلترا بعد شهر من ذلك التاريخ ، ارتاع لها كل ذوى الأملاك ، وجعلتهم يقاومون كل مذهب فيه خطر على الملكية أيا كان شكلها ، كنيسة كانت أو علمانية . وخسر ويكلف إذ ذاك معظم ماكانت تنفحه به الحكومة من تأييد ، وكان اغتيال سدبرى كبير الأساقفة سبباً فى ارتقاء الأسقف كورتناى ألد أعدائه إلى منصب كبير أساقفة انجلترا بدلا منه . وظن كورتناى أنه إذا ما سمح لفكرة العشاء الربانى التى يقول بها ويكلف أن تنتشر ، فإن انتشارها سيقضى على منزلة رجال الدين ، أى القضاء على أساس سلطة الكنيسة الأدبية والأخلاقية . ولهذا دعا فى شهر مايو من عام ١٣٨١ مجلساً من رجال الدين ينعقد فى دير بلاكفرايز فى لندن . وأقنع كبير الأساقفة هذه الجمعية بأن تستنكر أربعة وعشرين من آراء ويكلف قرأها هو من مؤلفاته ، ثم بعث بأمر عاجل إلى مدير جامعة اكسفورد ليمنع مؤلف هذه الكتب من الاستمرار فى التعليم أو الوعظ إلا بعد أن يثبت استمساكه بأصول الدين القويم . وأضاف الملك رتشارد الثانى إلى هذا أمراً أصدره إلى مدير الجامعة بأن يطرد منها ويكلف وجميع مؤيديه ، وكان ذلك جزءاً من الخطة

التى انتهجها لمقاومة الفتنة التى كادت تطوح به عن عرشه . فما كان من ويكلف إلا أن انسحب إلى أملاكه فى لتر وورث ، وكان لا يزال وهو فيها تحت حماية جون جونت على ما يبدو .

وارتبك ويكلف وتحير بما أبداه من إعجاب به القس جون بول زعيم الثورة ، فأصدر عنه منشورات يتنحى فيها عن العصاة ، ويتبرأ فيها من كل آراء اشتراكية ، ويحث أتباعه على الخضوع لسادتهم من غير رجال الدين ، وأن يصبروا ويصابروا وهم أقوى ما يكونون إيماناً بأنهم سينالون خير الجزاء بعد الموت . لكنه مع ذلك ظل يصدر المنشور تلو المنشور ضد الكنيسة ، وأنشأ طائفة من « القساوسة الوعاظ الفقراء » لينشروا إصلاحاته بين الشعب . وكان من هؤلاء « الأتباع » من لم يتلقوا من العلم إلا أقله ، كما كان منهم رجال من جامعة اكسفورد ، وكانوا جميعاً يرتدون أثواباً من الصوف الأسود ويمشون حفاة ، كما كان يفعل « الإخوان » الأقدمون ، كما كانوا كلهم تعمر قلوبهم حماسة الرجال الذين تكشفت لهم من جديد حقيقة المسيح . وكانت عقيدتهم المتأصلة فى نفوسهم هى ان الكتاب المقدس لا يأتيه الباطل بخلاف تقاليد الكنيسة وعقائدها المعرضة للخطأ ، وكانوا يصرون على أن يعظوا الناس بلغتهم القومية لا بالطقوس الغامضة التى تتلى عليهم بلغة أجنبية . وكتب ويكلف إلى هؤلاء القساوسة العلمانيين وإلى من يستمعون إليهم من المتعلمين بلغة إنجليزية سهلة قوية خالية من التنميق ثلثمائة موعظة ، وكثيراً من المقالات الدينية . وإذ كان يحث الناس إلى العودة إلى المسيحية كما جاءت فى كتاب العهد الجديد ، فقد شرع هو ومساعدوه يترجمون الكتاب المقدس ليكون هو المرشد الوحيد المنزه عن الخطأ إلى الدين الحق ولم يكن قد ترجم حتى ذلك الوقت (١٣٨١) إلا جزء قليل من الكتاب المقدس إلى اللغة الإنجليزية ، وان كانت ترجمة فرنسية منه كانت معروفة إلى الطبقات المتعلمة ، وترجمة من اللغة الإنجليسكسونية ، لا تفهمها انجلترا

فى أيام ويكلف ، قد وصلت إليها من عهد الملك الفرد . ووجدت الكنيسة ان الخارجين على الدين أمثال طائفة الولدرسيين يفيدون كثيراً من الكتاب المقدس ، فأخذوا يثبطون من عزيمتهم على قراءة التراجم غير المعترف بها ، وأخذت تندد بما تتوقعه من فوضى فى العقائد الدينية حين تعمد كل شيعة إلى ترجمة الكتاب المقدس لنفسها ، وتلون تلك الترجمة بآرائها ، وحين يكون كل قارئ حراً فى أن يفسر نصوص الكتاب المقدس كما يشاء . لكن ويكلف كان صادق العزيمة فى أن يكون الكتاب المقدس فى متناول كل انجليزى يستطيع القراءة . ويلوح أنه هو نفسه قد ترجم أسفار العهد الجديد ، وترك ترجمة العهد القديم لنقولاس هيرفور وجوبيرفى وقد تمت هذه التراجم كلها بعد عشر سنين من موت ويكلف . وكان الأصل الذى ترجم الكتابان عنه هو ترجمة جيروم اللاتينية . لا الترجمة العبرية للعهد القديم أو اليونانية للعهد الجديد . ولم تكن الترجمة نموذجاً يحتذى فى النثر الإنجليزى ، لكنها كانت حدثاً خطيراً فى التاريخ الإنجليزى .

ولما كان عام ١٣٨٤ دعا البابا أربان السادس ويكلف للمثول بين يديه فى رومة . لكن دعوة أخرى كانت ذات سلطان أكبر من سلطان دعوة أربان . ذلك أن المصلح المريض أصيب فى الثامن والعشرين من شهر ديسمبر عام ١٣٨٤ بضربة شلل وقت أن كان يقوم بالقداس ثم وافته المنية بعد ثلاثة أيام من تلك الإصابة . ودفن فى لتروورث ، لكن عظامه قد أخرجت من قبره بناء على قرار من مجلس كنستانس (٤ مايو سنة ١٤١٥) وألقيت فى مجرى ماء قريب من هذا القبر . ودار البحث عن كتاباته وأبيد كل ما عثر عليه منها :

وكانت آراء ويكلف تحوى كل عناصر الإصلاح الكبيرة ، تحوى انهماك رجال الدين فى متاع الدنيا ، والدعوة إلى اتباع قانون أخلاق شديد صارم ، والعودة من الكنيسة إلى ما جاء فى الكتاب المقدس ، ومن

توما الاكوينى إلى أوغسطين ، ومن حرية الإرادة إلى الجبرية ، ومن النجاة عن طريق العمل الصالح إلى النجاة باختيار الرحمة الالهية . وكانت هذه الآراء تحوى كذلك رفض صكوك الغفران ، والاعتراف السرى للقسيس ، وعقيدة التجسد ، وان القس واسطة بين الله والعبد ، وتحتج على إرسال الثروة القومية إلى رومة ، ودعوة الدولة إلى نبذ طاعة البابوية ، والهجوم على أملاك رجال الدين (وبذلك مهد الطريق لهنرى الثامن) . ولو لم تقض الثورة الكبرى على حمايه الحكومة لجهود ويكلف ، لتأصل الإصــلاح الدينى وعلت قواعده فى انجلترا قبل أن تشب ثورة الإصلاح فى ألمانيا بمائة وثلاثين عاماً .

الفصل الثالث

الثورة الكبرى

١٣٨١

كان عدد سكان انجلترا وويلز فى عام ١٣٠٧ يقدر تقديراً غير موثوق به بثلاثة ملايين من الأهلين ، أى أنه قد ارتفع ارتفاعاً بطيئاً من ٢,٥٠٠,٠٠٠ وهو ماكان يظن أنه عدد السكان سنة ١٠٦٦ وهذان الرقمان يوحيان بأنه قد حدث تقدم بطىء أيضاً فى الفنون الزراعية والصناعية — وتحديد قوى لعدد السكان بسبب القحط ، والمرض والحروب — فى جزيرة زراعية ضيقة الرقعة ، لا ينتظر منها بمواردها الخاصة أن تعول عدداً كبيراً من الأهلين. وأكبر الظن أن ثلاثة أرباع السكان كانوا من الزراع ، وأن نصف هؤلاء السكان كانوا من أرقاء الأرض ، وكانت إنجلترا من هذه الناحية متأخرة عن فرنسا بقرن من الزمان .

وكانت الفروق بين الطبقات أشد منها فى أرض القارة الأوربية وبدا ان الحياة كانت ترتكز على نقطتين الأعيان الطيبين الراحمين أو المتغطرسين من جهة ، والخدمات يؤديها الزراع يغلى فى صدورهم الغضب أو يحدوهم الرجاء من جهة أخرى . وكان الأعيان سادة كل ما هو لهم والكثير مما يتجاوزه، إذا استثنينا من ذلك ما عليهم للملك من واجبات محددة المعالم وكان لأدواق لانكستر ، ونورفوك ، وبكنجهام ضياع تنافى ضياع التاج ، ولم يكن آل نيفيل وبيرسى قد فقدوا من ثروتهم إلا القليل الذى لا يكاد يذكر ، وكان السيد الاقطاعى يحتم على الفرسان الذين يدينون له بالولاء وعلى اتباع هؤلاء أن يخدموه ويدافعوا عنه ، ويلبسوا ثياب زينته الخاصة » . غير أنه كان فى وسع الإنسان أن يرقى من طبقة إلى طبقة ، وكان فى مقدور

ابنة تاجر ثرى أن تحظى بزوج نبيل ولقب من ألقاب الشرف ، ولو أن نشوس قد عاد إلى الحياة بعد موته لدهش إذ رأى أن حفيدته قد أصبحت دوقة وتصنعت الطبقات الوسطى ما استطاعت أن تتصنعه من عادات الأشراف ، فبدأ أفرادها يخاطب بعضهم بعضاً فى انجلترا بلفظ سيد وفى فرنسا بلفظ Monsieur ، وسرعان ما أصبح كل رجل فى كلا البلدين سيداً كما أصبحت كل امرأة سيدة(*) .

وكان تقدم الصناعة أسرع من تقدم الزراعة ، فلم يحل عام ١٣٠٠ حتى كادت جميع مناجم الفحم فى انجلترا تستغل ، وحتى كان الحديد ، والفضة ، والرصاص ، والقصدير يستخرج من باطن الأرض ، وحتى كان تصدير المعادن من أهم الصادرات إلى البلدان الأجنبية ، وكان من الأقوال التى تجرى على الألسنة ان « قيمة المملكة فى باطن الأرض أعظم منها فى ظاهرها » . وبدأت صناعة الصوف فى ذلك القرن تزيد من ثراء انجلترا فأخذ كبار الملاك ينتزعون الأرض شيئاً فشيئاً من المستأجرين وأرقاء الأرض الذين كانوا يستخدمونها فى الزراعة ويحيلون أجزاء واسعة منها إلى مراع لتربية الضأن إلا إن بيع الصوف كان يدر عليهم من المال أكثر مما يدره حرث الأرض ، وأتى على تجار الصوف حين من الدهر كانوا فيه أغنى التجار فى انجلترا ، وكان فى مقدورهم أن يقدموا للملك ادوارد الثالث أموالا طائلة فى صورة ضرائب وقروض ، ومع ذلك فقد عمل الملك على خرابهم : ذلك أن ادوارد الثالث قد ساءه أن يرى الصوف الغفل يخرج من انجلترا ليغذى صناعة النسيج فى فلاندرز ، فأغرى النساجين بالمجىء إلى بريطانيا

(*) إن هذا اللفظ ترجمة للفظ الإنجليزى . وهو مشتق من اللفظ الإنجليزى الفرنسى « ليفريه » أى التسليم ، أو المنحة من طعام أو ثياب يعطيها السيد لمواليه . واتخذت الثياب على مر الزمن صورة حلة رسمية يلبسها أتباع السيد العظيم تفاخرا وأبهة . واتخذت نقابات الحرف هذه العادة ، فكان أعضاؤها يلبسون الحلل المميزة لهم أثناء اجتماعاتهم واستعراضهم . وكانت هذه العادة من أسباب الزينة والمرح فى « انجلترا الطروب »

(١٣١١ وما بعدها) ، وعمل الإنجليز بناء على إرشادهم على إقامة صناعة النسيج فيها ، ثم حرم تصدير الصوف واستيراد معظم الأقمشة الأجنبية ، ولم ينته القرن الرابع عشر حتى أصبحت صناعة النسيج لا تجارة الصوف أهم مصادر الثروة السائلة فى انجلترا وحتى وصلت إلى مرحلة قريبة من الصناعات الرأسمالية .

وكانت الصناعة الجديدة تتطلب التعاون التام بين عدة حرف — النسيج ، والتقصير ، والتمشيط ، والصباغة ، والصقل ، ولم يكن فى وسع نقابات الحرف القديمة أن تنظم ما يحتاج إليه الإنتاج الاقتصادى من تعاون ، فعمل أصحاب المشروعات الكبرى على جمع الاخصائيين المختلفين من العمال فى منظمة واحدة ، يشرفون عليها ويمدونها بالمال . على أنه لم يقم فى هذه البلاد نظام للمصانع كالذى كان قائماً فى فلورنس وفلاندرز ، بل ظل معظم العمل يتم فى حوانيت صغيرة على يد معلم كبير ، وصبيانه ، وعدد قليل من البائعين المتجولين ، أو يتم فى مصانع ريفية صغيرة تدار بقوة الماء ، أو فى بيوت ريفية حيث كانت الأصابع الدائبة الكادحة تدير الأنوال إذا أتاحت لها أعمالها المنزلية الرتيبة فسحة من الوقت . وقاومت نقابات الحرف النظام الجديد بالإضراب ولكن تفوقه فى الإنتاج تغلب على كل ضروب المقاومة ، وأصبح العمال الذين ينافسون الصناعات الجديدة فى بيع نتائج كدحهم وحذقهم تحت رحمة الذين يمدون هذه الصناعات برءوس الأموال وبالمدربين ، وازدادت سيطرتها عليهم شيئاً فشيئاً وأصبح الكادحون فى المدن « لايدخرون شيئاً لغدهم . . ملابسهم رثة ، وبيوتهم قذرة . . يجدون كفايتهم من العيش فى أوقات الرخاء ، ولكنهم لايجدون ما يقيم أودهم فى أيام الشدة » .

وكان جميع الذكور من سكان المدن فى انجلترا معرضين لأن يجندوا للعمل فى الأعمال العامة ، ولكن كان فى وسع الأغنياء منهم أن يشتروا أنفسهم بالمال . وكان الأهلون بوجه عام يعيشون فى فقر مدقع ، وإن لم يبلغ

فقرهم فى أغلب الظن من الشدة ما كان عليه فى أوائل القرن التاسع عشر ، وكان المتسولون فى البلاد كثيرين ، وقد نظموا أنفسهم تنظيما يقصد به حماية مهنتهم وحكمها ، وكانت الكنائس ، والأديرة ، ونقابات الحرف تقدم قليلا من الصدقات التى لا تسمن ولا تغنى من جوع .

وفاجأ البلاد — وهذه حالها — الوباء المعروف بالموت الأسود ، ولم يكن هذا الوباء كارثة حلت بها فحسب ، بل كاد يكون ثورة اقتصادية . ذلك أن سكان انجلترا كانوا يعيشون فى جو يصلح للزراعة والإنبات ولكنه يضر بالصحة فقد كانت الحقول خضراء طوال أيام السنة ، ولكن الأهلين كانوا يقاسون آلام النقرس ، والروماتزم ، والربو ، وعرق النسا ، وذات الرئة ، والاستسقاء ، وأمراض العين والجلد . وكانت الطبقات كلها تتخم معدتها بالطعام (إن وجدته) وتدفئ أجسامها بالمشروبات الكحولية ، وقد وصفهم رتشارد رول فى عام ١٣٤٠ بقوله : « وقلما يصل الآن أحد منهم إلى سن الأربعين ، وأقل من تلك القلة من يصل إلى سن الخمسين » ، وكانت النظم الصحية العامة بدائية ، فكانت روائح المدابغ العامة ، وحظائر الخنازير ، والمراحيض تفسد الهواء ، وكان الأثرياء وحدهم هم الذين يحصلون على الماء الجارى من أنابيب تمتد إلى بيوتهم ، أما كثرة السكان فكانوا ينقلونه من القنوات المغطاة أو من الآبار ، وكان أثمن من أن يضيعوه فى الاستحمام كل أسبوع . ولهذا كله كانت الطبقات الدنيا ضحايا سهلة للأوبئة التى كانت تفتك بالأهلين من حين إلى حين من ذلك أن الطاعون الدملى انتقل فى عام ١٣٤٩ من نورماندى إلى انجلترا وويلز ثم انتقل بعد عام من ذلك الوقت إلى اسكتلندة وايرلندة ، ثم عاد إلى إنجلترا فى أعوام ١٣٦١ ، ١٣٦٨ ، ١٣٧٥ ، ١٣٨٢ ، ١٣٩٠ ، ١٤٣٨ ، ١٤٦٤ ، وقضى فى هذه السنين كلها على ثلث سكان البلاد ، وهلك فيه ما يقرب من نصف رجال الدين ، ولعل بعض المساوئ التى شكت منها الكنيسة

الإنجليزية فيما بعد ترجع إلى اضطرارها إلى حشد رجال فى خدمتها حشداً سريعاً ، وكانت تنقصهم الكفايات التى ينتجها التدريب والخلق القويم ، وكان لهذه الظروف أسوأ الأثر فى الفن ، وتوقف بناء الكنائس أوكاد نحو جيل من الزمان ، وفسدت الأخلاق ، وانحلت روابط الأسر ، وطغت العلاقات الجنسية على القيود التى حاول نظام الزواج أن يقيدها بها مراعاة لمصلحة النظام الاجتماعى ، ولم تجد القوانين مشرفين ينفذونها ، وكثيراً ما يتجاهلونها .

وتعاون الطاعون مع الحرب للتعجيل باضمحلال النظام الإقطاعى ، فقد هجر كثيرون من الزراع الأراضى التى كانوا يستأجرونها ونزحوا إلى المدن بعد أن فقدوا أبناءهم وغيرهم ممن كانوا يساعدونهم فى فلاحتها ، واضطر الملاك إلى أن يستأجروا عمالا أحراراً ، يؤدون لهم ضعفى ما كانوا يؤدونه قبل من الأجور ، وان يغروا بالعمل عندهم مستأجرين بشروط خير من الشروط السابقة ، وان يستبدلوا بالمال الخدمات الإقطاعية . وإذ كان الملاك أنفسهم قد اضطروا إلى ابتياع كل ما يشترونه بأثمان عالية ، فقد اضطروا إلى أن يطلبوا إلى الحكومة أن تتدخل لتثبيت موازنة الأجور. واستجاب المجلس الملكى إلى هذا الطلب بأمر أهم ما جاء فيه :

لما كان قسم كبير من أفراد الشعب وبخاصة طبقة العمال والخدم قد ماتوا أخيراً بسبب الوباء . . . ولما كان الكثيرون يرفضون العمل إلا فى نظير أجور باهظة ، بل إن بعضهم يفضلون التوسل والتعطل على العمل لكسب أقواتهم ، فقد نظرنا نحن فيما قد يحدث فيما بعد من اضطراب محزن من نقص فى الأيدى العاملة وبخاصة بين العمال والفلاحين ، وبعد مناقشة هذه المسائل ، اتفقنا مع كبار رجال الدين وأعيان البلاد ، ورجال العلم واستعنا فى ذلك بهم وتبادلنا وإياهم المشورة أمرنا بما هو آت :

١ — كل شخص صحيح الجسم تقل سنه عن ستين عاماً ، وليست له

(وسيلة) للعيش ، إذا طلب إليه (شخص آخر أن يعمل) يجب عليه أن يقوم بخدمة من يطلب ذلك إليه ، وإلا زج به فى السجن حتى يقدم من يضمن قيامه بالعمل :

٢ — إذا غادر الخدمة عامل أوخادم قبل الوقت المتفق عليه ، حكم عليه بالسجن .

٣ — لا يعطى الخدم إلا الأجور القديمة لا أكثر منها .

٤ — إذا تقاضى صانع أوعامل أجراً يزيد على ماكان يتقاضاه عادة زج به فى السجن .

٥ — يجب أن تباع مواد الطعام بأسعار معقولة .

٦ — ليس لإنسان أن يعطى شيئاً لمتسول يستطيع العمل :

لكن العمال وأصحاب الأعمال أهملوا هذا القرار إهمالا واسعاً اضطر معه البرلمان أن يصدر (فى التاسع من فبراير سنة ١٣٥١ (« قانون العمال » الذى ينص على ألا تزيد الأجور على ماكانت عليه فى عام ١٣٤٦ ، والذى حدد أثمان عدد كبير من السلع والخدمات وقرر وجوب استخدام الآلات . ثم صدر قانون آخر فى عام ١٣٦٠ ينص على جواز ارغام الزراع الذين يتركون الأرض التى تعاقدوا على زراعتها أو استئجارها قبل انتهاء الموعد المحدد للعقود أو الإيجار على العودة إليها ، كما ينص على أن لقضاة الصلح إذا شاءوا أن يسموا هؤلاء المخالفين على جباههم . واتخذت فيما بين عامى ١٣٧٧ ، ١٣٨١ إجراءات أخرى مختلفة فى قسوتها ، ولكن الأجور ارتفعت على الرغم من هذه القوانين والقرارات ، غير أن الأحقاد التى ولدتها هذه الأعمال فى صدور العمال ورجال الحكم أثارت النزاع بين الطبقات وكانت سلاحاً جديداً فى أيدى دعاة الفتنة :

وكان للثورة التى تأجج لهيبها على أثر هذه الحوادث أكثر من عشرة مصادر ، فقد أخذ الزراع الذين كانوا لا يزالون من أرقاء الأرض يطالبون

بحريتهم ، وطالب المستأجرون بأن يحددوا إيجار الأرض بأربعة بنسات (١,٦٧دولار) للفدان الواحد فى السنة . وكانت بعض البلدان لا تزال خاضعة للسادة الإقطاعيين ، وكانت هذه تتوق إلى أن تتمتع بالحكم الذاتى ، وكان العمال فى البيئات المحررة يكرهون الأقلية الغنية من التجار ، كما كان التجار المتنقلون يتذمرون من فقرهم وعدم اطمئنانهم على مصادررزقهم . وكان الزراع فى الريف ، والعمال فى المدن ، بل كان قساوسة الابرشيات أنفسهم — كانوا هؤلاء جميعاً يندون بسوء الحكم فى السنين الأخيرة من عهد ادوارد الثالث ، والسنين الأولى من عهد رتشارد الثانى ، ويتساءلون لم توالت الهزائم على الجيوش الإنجليزية بعد عام ١٣٦٩ ، ولم تجن الضرائب الفادحة لتمويل هذه الهزائم نفسها . وكان أشد حقدهم ينصب على سدبرى كبير الأساقفة وعلى زوبرت هاليز وهما كبيرا وزراء الملك الشاب وجون جونت ويتهمونهم بأنهم أنصار الفساد والعجز فى دوائر الحكومة وأجدر من يجب أن توجه إليهم التهم .

ولم يكن لوعاظ اللولارد (أتباع ويكلف) إلا أقل صلة بهذه الحركة ، ولكن نصيبهم فيها كان هو تهيئة الأذهان للثورة ، فقد كان جون بول زعيمها الفعلى يكرر أقوال ويكلف ويحبذها ، وكان وات تيلر يطالب كما كان يطالب ويكلف بالاستيلاء على أملاك الكنيسة . وكان بول ، « قس كنت المجنون » (كما كان يلقبه فرواسار) ، يعلم الشيوعية لجماعة المصلين معه ، وقد صدر قرار بحرمانه من حظيرة الدين فى عام ١٣٦٦ . فأصبح بعدئذ واعظاً جائلا يندد بالمال الحرام الذى جمعه الأحبار والأعيان ، ويطالب بعودة رجال الدين إلى الفقر الذى يدعو إليه الإنجيل ويسخر من البابوات المتنافسين الذين كانوا بانشقاقهم يقتسمون ثياب المسيح . وتعزو إليه الرواية المتواترة ذلك البيت المشهور :

حيث كان آدم يحفر وكانت حواء تقيس

من كان وقتئذ السيد العظيم

أى حيث كان آدم يحفر الأرض وحواء تعمل على النول ، هل كان فى الجنة أقوام مقسمون طبقات ، وكان فرواسار ينقل الآراء المعزوة إلى بول فى طول يدل على شدة عطفه عليها ، وان كان فى الوقت نفسه محباً لطبقة الأشراف البريطانيين :

أصدقائى الأعزاء إن الأمور لاتستطيع أن تسير فى انجلترا سيراً حسناً حتى يصبح كل شىء مشاعاً ، وحتى لا يكون فى البلاد سادة ولا أتباع ، وحتى لا يكون الملاك سادة إلا بقدر ما نكون نحن ، ألا ما أسوأ ما يعاملوننا به . ولأى سبب يتحكمون فينا ويسترقوننا هذا الاسترقاق ؟ ألسنا جميعاً أبناء آدم وحواء ؟ وأى شىء يستطيعون أن يظهروه لنا ليسودوا به علينا ؟... إنهم ليسموننا عبيداً ، وإذا لم نقم بخدمتهم ضربونا بالسياط .. فلنذهب إلى الملك ونحتج إليه ، فهو شاب وفى مقدورنا أن نحصل منه على جواب فيه الخير لنا ، فإذا لم نحصل عليه فلنعمل بأنفسنا لإصلاح أمورنا(*) .

وقبض على « بول » ثلاث مرات وكان فى السجن عندما اندلعت الثورة . وبلغ السخط مداه بضريبة الرؤوس التى فرضت عام ١٣٨٠ : وأشرفت الحكومة على الإفلاس ، وكادت تخسر جواهر الملك المرهونة ، وألحت الحرب فى فرنسا مطالبة بأموال جديدة . ففرضت على الشعب ضريبة مقدارها ١٠٠,٠٠٠ جنيه تجبى من كل نفس تناهز الخامسة عشرة من العمر . واتحدت عناصر الثورة المفرقة بهذه الضريبة الجديدة . وتنكب آلاف من الناس طريق الحياة ، وكانت حصيلة الضريبة أقل من المطلوب بكثير .. وأرسلت الحكومة مندوبين آخرين للكشف عن الممتنعين عن دفع الضريبة فجمع العامة قواهم متحدين إياهم ، ورجموا عملاء الملك إلى خارج مدينة برنتود عام (١٣٨١) ، وحدث مثل ذلك فى مدن فوبنج

(*) إلى هنا انتهت ترجمة المرحوم الأستاذ محمد بدران .

دكورنجهام وسنت البنز . وعقدت اجتماعات شعبية للاحتجاج على الضريبة في لندن ، وأرسل المجتمعون إلى الثائرين في الريف يشجعونهم ويدعونهم أن ينضموا إلى الثائرين في العاصمة وبذلك يرغمون الملك على ألا يكون هناك رقيق أرض في انجلترا .

ولقى فريق من الجباة عند دخولهم مدينة كنت مقاومة عارمة . وفي السادس من يونية سنة ١٣٨١ ، حطم جماعة من الغوغاء غياهب السجون في دوشستر ، وأطلقوا سراح المسجونين ، ونهبوا القلعة . وانتخب الثوار في اليوم التالي وات تيلر قائداً لهم . ولا يعرف شيء عن ماضيه قبل ذلك ، ومن الواضح أنه كان جندياً مسرحاً ، لأنه نظم الجمع المشتت للقيام بعمل موحد ، واكتسب طاعته السريعة لأوامره .

وفي الثامن من يونية هاجم الجمع الهائج دور المبغضين إليه من الإقطاعيين والمحامين وموظفي الحكومة ، وقد تسلح بالقسي والسهام والهراوات والفؤوس والسيوف ، وتلقى مدداً من المتطوعين من جميع قرى كنت تقريباً. وفي اليوم العاشر من هذا الشهر دخل هذا الجمع مدينة كانتربرى فرحب به أهلها ونهب قصر سدبرى كبير الأساقفة ، وفتح أبواب السجن ، وانتهب دور الأغنياء . وهكذا انضم سكان الجانب الشرقي من كنت بأسره إلى الثورة ، وأخذت المدن تنضوى تحت لواء الثورة ، واحدة بعد أخرى ، وبادر الموظفون المحليون إلى الفرار من وجه العاصفة . . ولجأ الأغنياء إلى مناطق أخرى من انجلترا ، أو اختبأوا في أماكن بعيدة عن طريق الثائرين ، أو تجنبوا الأخطار الأخرى بتقديم المساعدة بصورة ما إلى الثورة .

وفي اليوم التالي وجه تيلر جيشه إلى لندن . فلما بلغ مدلستون أفرج عن « جون بول » فانضم إلى فريق الفرسان وأخذ يقدم إليه عظاته كل يوم وقال الآن يبدأ حكم الديمقراطية الذى طالما حلم به ودافع عنه ، وتزول جميع الفوارق الاجتماعية ، ولن يكون هناك بعد الآن أغنياء وفقراء ، إقطاعيون وعبيد ، بل يكون كل إنسان ملكاً في ذاته(٦١) .

ونشبت فى الوقت نفسه ثورات مماثلة فى نورفولك وسفولك وبيفرلى وبرد جوتر وكمبردج واسكس ويدلسكس وستسكس وهرتفورد وسومرست وجز الشعب فى يورى سانت ادموند رأس كبير الرهبان وهو الذى حافظ بصلابته على حقول الدير الإقطاعية على المدينة . وقتل المتمردون فى كلشستر عدداً من التجار الفلورنسيين ، ظناً منهم أنهم يقطعون الطريق على التجارة البريطانية . وأتلفوا ما وقع تحت أيديهم من الأضابير والعقود أو الوثائق التى تسجل الملكية الاقطاعية أو العبودية ، وهكذا أحرق الأهالى فى كمبردج وثائق الجامعة ، وألقوا فى مدينة ولدام كل وثيقة فى محفوظات الدير طعمة للنيران .

وفى الحادى عشر من يونية أشرف جيش الثوار الذى نصفه من اسكس وهرتفورد على الضواحى الشمالية لمدينة لندن ، وفى الثانى عشر بلغ ثوار كنت مدينة سوزوارك ، على الشاطئ الثانى من التيمز مباشرة . ولم يبدأ أنصار الملك مقاومة منظمة واختبأ رتشارد الثانى وسدبرى وهيلز فى الحصن . وبعث تيلر إلى الملك يطلب مقابلته ورفض طلبه . وأغلق وليام ولورث عمدة لندن أبواب المدينة ، ولكن الثوار فى داخلها أعادوا فتحها . وفى الثالث عشر رحب الشعب بقوات كنت التى دخلت العاصمة فانضم إليها آلاف العمال . وأمسك تيلر بزمام جموعه فى حزم ، ولكنه هدأ من ثورتها بأن سمح لها أن تحاصر قصر جون اف جونت. فلم يسرق منه شىء ، وقتلت الجماهير شخصاً من المتمردين حاول أن يسرق كأساً من الفضة . بيد ان كل شىء قد دمر ، وألقى بالأثاث الفاخر من النوافذ ، ومزقت الستائر النفيسة خرقاً ، وسحقت الجواهر سحقاً ، وأتت النيران على القصر كله ، وتناست الجموع بعض المتمردين الذين استبد بهم الطرب وسكروا حتى غابوا عن الوعى فى أقبية الخمر فذهبوا طعمة للنيران . ثم تحول الجيش بعد ذلك إلى تميل ، وهى قلعة رجال القانون فى انجلترا ، وتذكر الفلاحون أن هؤلاء

الفقهاء هم الذين صاغوا صكوك عبوديتهم ، أوصادروا ممتلكاتهم فى مقابل الضرائب ، فوضعوا هنالك أيضاً محرقة تلتهم الوثائق ، وأشعلوا النيران فى المبانى حتى أتت عليها . وقوض السجن فى نيوجيت كما دمر الأسطول . وانضم المسجونون السعداء إلى الغوغاء ، وألح التعب على الجموع من الجهود المضنية التى بذلتها لتجمع انتقام قرن كامل فى يوم واحد فرقدت فى ظاهر المدينة ونامت .

وفى هذا المساء رأى مجلس الملك أن يسمح له بالحديث مع تيلر وهو خير من الرفض على كل حال . وأرسل دعوة إلى تيلر وأتباعه لمقابلة رتشارد فى الصباح التالى فى ضاحية شمالية تعرف بـ « مايل اند » . وبعد بزوغ الفجر من اليوم الرابع عشر من يونية ، ركب الملك ، وكان فى الرابعة عشرة من عمره ، إنقاذاً لحياته ، فخرج من القلعة يصحبه جميع مستشاريه ماعدا سدبرى وهيلز اللذين خافا أن تتعرض حياتهما للخطر . وشقت الجماعة الصغيرة طريقها وسط الجماهير المعادية إلى مايل اند ، حيث تجمع الثائرون من اسكس ، وتبعهم فريق من جيش كنت على رأسه تيلر الذى أدهشه استعداد رتشارد للاستجابة لجميع المطالب . وهى أن تلغى العبودية فى كل أنحاء انجلترا ، وتزول جميع الأعباء والخدمات الاقطاعية ، وتحدد قيمة إيجار العقار كما طلب المؤجرون ، ويعلن عفو عن جميع الذين اشتركوا فى الثورة . وبادر ثلاثون من الكتاب صياغة مواثيق الحرية والعفو لجميع المناطق التى ثار أهلوها . بيد أن الملك رفض مطلباً واحداً ،وهو أن يسلم للشعب وزراءه وغيرهم من الخونة . وأجاب رتشارد بأن جميع الأشخاص المتهمين باساءة استعمال السلطة سيحاكمون طبقاً للإجراءات التى ينظمها القانون ، ويعاقبون إذا ثبت أدانتهم .

ولما لم يقنع تيلر بهذه الإجابة ، ركب فى فرقة مختارة من رجاله واتجهوا مسرعين إلى القلعة فوجدوا سدبرى يرتل القداس فى الكنيسة . فسحبوه

إلى الفناء وبسطوه على الأرض ورقبته على كتلة من الخشب . ولم يكن جلاده حاذقاً ، ففصل رأسه عن جسده بثمانى ضربات من الفأس . ثم جز المتمردون رأس هيلز واثنين آخرين . وثبتوا على رأس كبير الأساقفة تاجه بمسمار نفذ من الجمجمة ، ووضعوا الرءوس على أسنة الرماح ، وساروا بها فى أنحاء المدينة ، ثم علقوها على باب جسر لندن وانقضى ما بقى من ذلك النهار فى سفك الدماء . وطالب تجار لندن ، الذين أبو المنافسة الفلمنكية الجماهير أن تقتل كل فلمنكى تجده فى العاصمة . وكان يقدم إلى المشكوك فى جنسيته الخبز والجبن ، ويطلب إليه أن يسميهما ، فإن نطق اسميهما بلهجة فلمنكية دفع حياته ثمناً لذلك . وقتل فى ذلك اليوم نيف ومائة وخمسون من التجار وأصحاب المصارف الغرباء فى مدينة لندن وسقط كثير من رجال القانون الإنجليز ، وجباة الضرائب وأنصار جون أف جونت بضربات الفؤوس فى ثورة انتقامية لا تميز بين مذنب وبرىء . وقتل الصبيان فى مختلف المهن والصناعات معلميهم والمدينون دائنيهم. وحتى إذا جاء منتصف الليل انسحب المنتصرون لينعموا بالراحة مرة أخرى بعد أن أشبعوا نهمهم .

وأبلغ الملك بهذه الأحداث فعاد أدراجه من مايل اند ، ولم يتجه إلى البرج ، بل إلى جناح والدته بالقرب من كنيسة سانت بول وقفل فى الوقت نفسه عدد كبير من فرق اسكس وهرتفورد راجعين إلى ديارهم ، ابتهاجاً بالمواثيق التى سجلت حريتهم . وفى الخامس عشر من يونية بعث الملك رسالة مهذبة ، إلى فلول الثوار ، يطلب إليهم لقاءه فى ظاهر شمثفيلد خارج الدرجيت . ووافق تيلر على ذلك ولما كان رتشارد يخاف على حياته فقد قام بالاعتراف وتناول الأسرار المقدسة قبل الموعد المضروب ، ثم ركب فى حاشية تتألف من مائتى رجل أخفوا سيوفهم تحت أرديتهم غير العسكرية ؛ وتوجه تيلر إلى شمنفيلد ولم يكن معه غير رفيق واحد يحرسه . وتقدم بمطالب جديدة غير معروفة على التحقيق ويبدو أنها كانت تتضمن مصادرة أملاك

الكنيسة وتوزيع دخلها على الشعب . وأعقب ذلك نزاع ، فقد وصف أحد حاشية الملك ، تيلر بأنه لص فأمر تيلر مساعده ، بقتله فوقف العمدة ولورث فى الطريق فما كان من تيلر إلا أن طعن ولورث الذى أنقذه الدرع المستور تحت عباءته وطعن ولورث بخنجره تيلر وأنفذ أحد سراة رتشارد سيفه فى تيلر مرتين فعاد تيلر إلى رجاله صائحاً الخيانة ، وسقط ميتاً عند أقدامهم فذهلوا من هذه الخيانة المفضوحة وأعدوا سهامهم وتأهبوا لإطلاقها . ومع أن عددهم كان قد أخذ فى النقصان إلا أنهم ظلوا قوة لا يستهان بها وقد أحصاهم فروسافرت بعشرين ألف رجل من المحتمل أنهم كانوا يستطيعون الإحداق بحاشية الملك . ولكن رتشارد خرج إليهم فى شجاعة وهو يصيح « أيها السادة ، اتقتلون مليككم ؟ سأكون رئيسكم وقائدكم ، وستنالون منى ما تطلبون . وليس عليكم إلا أن تتبعونى إلى الحقول بعيداً » ومضى غير واثق أوعوا كلامه ؟ أيتركونه حياً ؟ وتردد الثوار . ثم اتبعوه واختلط معظم الحرس الملكى بهم .

أما ولورث فقد ركض بفرسه عائداً إلى المدينة ، وأصدر أوامره إلى شيوخ النواحى الأربع والعشرين أن ينضموا إليه بكل القوات المسلحة التى يستطيعون حشدها . وكان كثيرون من المواطنين الذين عطفوا على الثورة أول الأمر قد أخذوا يحسون القلق من جراء أعمال القتل والتخريب ، وشعر كل امرئ ، يملك عقاراً أن أملاكه وحياته فى خطر ، وهكذا وجد العمدة لفوره جيشاً تحت امرته يتألف من سبعة آلاف رجل كأنما انشقت عنهم الأرض . فعاد بهم إلى شمثفيلد ، وهناك لحق بالملك وأحاط به ، وعرض عليه أن يعمل السيف فى الثائرين . فأبى رتشارد ، فهم الذين وهبوا له الحياة عندما كان تحت رحمتهم ، وهو لايريد أن يبدو أقل منهم كرماً وقد أعلن إليهم أنهم أصبحوا أحراراً يستطيعون أن يرحلوا بسلام . وسرعان ما انقشع الذين بقوا من ثوار اسكس وهرتفورد ، واختفى عصاة لندن

في ديارهم ، ولم تبق إلا ثلة كنت فاعترض رجال ولورث المسلحون ، طريقهم إلى داخل المدينة ولكن رتشارد أمر أن لا يمسهم أحد بسوء ، فتركوا المدينة آمنين ، ثم اضطرب نظامهم ثانية على طول طريق كنت القديم . وعاد الملك إلى والدته ، التي رحبت به ودموع الفرحة بسلامته في عينيها . وقالت : « اه ، يا بني الصحيح ، كم تحملت من الألم والعذاب من أجلك اليوم . « فأجاب الصبي » : حقاً يا سيدتي أنني أحس ذلك جيداً ، ولكن عليك الآن أن تبتهجي وتحمدي الله ، لأنني اليوم استعدت ميراثي وكان مفقوداً ، واستعدت ملك انجلترا أيضاً (٦٣) .

وأصدر رتشارد في اليوم نفسه وهو الخامس عشر من يونية — وربما كان ذلك بتأثير العمدة الذي أنقذه — قراراً ، ينفي من لندن ، كل امرئ لم يقض فيها السنة الماضية بأسرها وإلا تعرض للموت صبراً . وأخذ ولورث وجنوده يفتشون في الطرقات والمساكن عن الغرباء ، وقبضوا على كثيرين وقتلوا البعض . . وكان بينهم رجل يدعى جاك سترو ، اعترف ، تحت وطأة التعذيب من غير شك ، ان رجال كنت رسموا خطتهم لينصبوا تيلر ملكاً . وجاء في الوقت نفسه وفد من ثوار اسكس إلى ولتام وطلبوا من الملك تصديقاً رسمياً للوعود التي قطعها على نفسه في الرابع عشر من يونية . فأجاب رتشارد بأن هذه الوعود قد صدرت بالإكراه ، وليس في نيته أن يبقى عليها ، وأخبرهم بنقيض ما توقعوا « لا تزالون أوغادا ، وستظلون أوغاداً » ، وتوعد بالانتقام الرهيب من كل رجل يظل على عصيانه المسلح (٦٤) . ودعا المندوبون الناخبون أتباعهم أن يبعثوا الثورة من جديد ، فاستجاب البعض بيد أن رجال ولورث أبادوهم في مذبحة هائلة في الثامن والعشرين من يونية .

وألغى الملك المغيظ الحانق في الثاني من يولية جميع المواثيق وعهود الأمان التي أصدرها إبان الثورة ، ومهد الطريق إلى تحقيق قضائي عن هوية

زعماء الفتنة وأعمالهم : فقبض على المئات ، وحوكموا ، وقتل مائة وعشرة أو أكثر . واعتقل جون بول فى كفنترى ، فاعترف جريئاً بدوره القيادى فى الثورة ، ورفض أن يطلب العفو من الملك . فشنق ، وسحل ، وقطعت جثته أربعة ، ووضعت رأسه مع رأس تيلر وجاك سترو فى مكان رأسى سديرى وهيلز لتزين جسر لندن . وفى الثالث عشر من نوفمبر عرض رتشارد على البرلمان تقريراً عن أعماله ، وقال ، إذا كان المجتمعون من الأساقفة والأعيان والعامة يرغبون فى تحرير رقيق الأرض ، فإنه يرغب فى ذلك أيضاً . ولكن الأعضاء كان جلهم من أصحاب الأراضى ، الذين لا يستطيعون أن يقبلوا حق الملك فى تجريدهم من أملاكهم ، وكانت نتيجة التصويت وجوب الإبقاء على جميع العلاقات الإقطاعية »(٦٥) ؛ وعاد الفلاحون المهزمون إلى محاريثهم ، والعمال المنحوسون إلى مغازلهم .

٤ — الأدب الجديد

كادت اللغة الإنجليزية تصبح ، بعد أن مرت بمراحل بطيئة ، وسيلة ملائمة للأدب . فقد أوقف الغزو النورمندى عام ١٠٦٦ ، تطور اللغة الانجلوساكسونية إلى الإنجليزية ، وظلت الفرنسية هى اللغة الرسمية للمملكة فترة من الزمان . ونشأت بالتدريج مفردات ولهجة جديدة ، أساسها ألمانى ، يخالطها وتزينها كلمات وصيغ غالية . ولعل الحرب الطويلة مع فرنسا قد حفزت الأمة إلى أن تتمرد على السيطرة اللغوية لعدوها . فأعلن عام ١٣٦١ ان الإنجليزية هى لغة القانون والمحاكم ، واستحدث حامل أختام الملك سابقة دستورية عام ١٣٦٣ بافتتاحه البرلمان بخطبة إنجليزية . وظل العلماء والمؤرخون والفلاسفة (إلى عهد فرنسيس بيكون) يكتبون باللغة اللاتينية لتصل كتاباتهم إلى قراء من دول مختلفة ، بيد أن الشعراء ومؤلفى المسرحيات أنشأوا منذ ذلك بلغة انجلترا :

وأقدم مسرحية باقية بالإنجليزية « من مسرحيات الخوارق » — وهى عرض درامى لقصة دينية — أخرجت فى مدلاندز . حوالى عام ١٣٥٠ بعنوان القضاء على الجحيم ، وقد مثلت مفاخرة بين الشيطان والمسيح عند مدخل الجحيم وأصبح مألوفاً فى القرن الرابع عشر بين نقابات كل مدينة أن تعرض حلقة من مسرحيات الخوارق ، بأن تعد النقابة مشهداً ، من الكتاب المقدس عادة ، وتنقل الممثلين والمعدات فى سفينة ، وتؤدى المشاهد على مسارح مؤقتة تشيد فى الساحات الشعبية للمدينة ، وتعرض نقابات أخرى فى الأيام التالية ما يليها من المشاهد من قصص الكتاب المقدس نفسه .
وأقدم ما يعرف الآن من هذه الحلقات هى خوارق شستر ، التى مثلت عام ١٣٢٨ ، حتى إذا جاء عام ١٤٠٠ عرضت حلقات مشابهة فى يورك وبيفولى وكمبردج وكفنترى وريكفيلد ولندن ولقد أثمرت الخوارق اللاتينية ، فى فترة مبكرة ترجع إلى عام ١١٨٢ ، نوعاً جديداً أطلق عليه « المعجزة » التى تدور حول كرامات بعض القديسين وآلامهم وظهر حوالى عام ١٣٧٨ نوع آخر — هو المسرحية الأخلاقية — يبرز مغزى أخلاقياً ، بتمثيل إحدى الحكايات ، لا بما بلغ هذا القالب ذاته فى مسرحية « كل إنسان » (١٤٨٠) . ونحن نسمع فى فترة مبكرة من القرن الخامس عشر عن قالب مسرحى آخر ، أقدم عهداً بلا شك وهو « الفاصل » ولم يكن تمثيلية بين تمثيليات ، ولكنه كان عرضاً يقوم به ممثلان أو أكثر ولاينحصر موضوعه فى الدين أو الأخلاق ، وربما كان دنيوياً مرحاً مسفاً مفحشاً . ومثلت فرق من المنشدين الجوالين هذه الفواصل فى أبهاء قصور الأمراء أو دور النقابات ، وساحات المدن والقرى ، أوفناء إحدى الحانات . وأنشأت اكستر عام ١٣٤٨ أول دار إنجليزية معروفة للتمثيل ، وهى أول مبنى أوربى وقف على العرض المسرحى وخصص له منذ المنشآت الرومانية الكلاسية ولعل الكوميديات قد نشأت عن هذه الفواصل ، أما تراجيديات المسرح الاليزابيثى الخصب فلعلها نشأت عن الخوارق والأخلاقات .

وأول قصيدة عظيمة — وهى من أعجب وأقوى القصائد — فى اللغة الإنجليزية هى الموسومة بعنوان « رؤيا وليام المتعلقة ببترز الحراث » . ولا يعرف عن مؤلفها شىء إلا ما يستشف من قصيدته ، ونحن إذا افترضنا أنها سيرة ذاتية ، فإننا نستطيع أن نسميه وليام لانجلاند ونجعل مولده من عام ١٣٣٢ . ولعله شغل مراتب كنسية دنيا ، ولم يصبح قط قسيساً ، وأخذ يجوب الأنحاء حتى بلغ لندن ، وحصل على الكفاف ، بترتيل المزامير فى القداس من أجل الموتى وعاش ماجناً يتأثم بـ « جشع النظرة وشهوانية الجسد » ، وكانت له ابنة ولعله تزوج أمها ، وعاش معها فى خص متواضع فى كونهيل . ويصف نفسه بأنه طويل ، نحيل ، يرتدى إزارا قاتماً يناسب حطام آماله الغبراء وشغف بقصيدته التى أصدرها ثلاث مرات (١٣٦٢ ، ١٣٧٧ ، ١٣٩٤) ، وكان يطيل فى نسجها كل مرة مثله مثل الشعراء الانجلوسكسونيين ، لا يستعمل القافية ، وإنما يصطنع النظم الذى يجانس أوائل الكلمات مع اضطراب الوزن .

وبدأ بتصوير نفسه وقد غلبه النوم على أحد تلال مالفرن ، فرأى فيما يرى النائم « حقلا يعج بالناس » جماهير من الأغنياء والفقراء ومن الأخيار والأشرار ، ومن الصغار والكبار بينهم سيدة جميلة نبيلة يرمز بها إلى الكنيسة المقدسة . وهو يركع أمامها ويسألها « لا أن تمنحينى كنزاً من الكنوز ، ولكن خبرينى كيف أنقذ روحى » فتجيب :

إذا امتحنت جميع الكنوز ، فالصدق أحسنها . . ومن يصدق بلسانه ، ولايقول غير الصدق ، ولايسىء إلى أحد بعمله ، ولاينوى له الشر بقلبه ، فإنه حرى فى نظر الإنجيل أن يكون إلهاً . وفى منزلة مولانا(٦٧) .

ورأى فى منام آخر ، الكبائر السبع ، واتهم الإنسان فى كل واحدة منها باللؤم فى سخرية لاذعة . وغلب عليه فى فترة من الزمن ، تشاؤم ساخر جعله يتوقع نهاية قريبة للعالم . وإذا ببترز (بطرس) الحراث يظهر فى

القصيدة . وهو فلاح نموذجي أمين ودود كريم يثق به الجميع كادح يخلص لزوجته وأطفاله وهو ابن بار للكنيسة دائماً . ورأى وليام فى أحلام تالية نفس الرجل يبرز ، على أنه المسيح المتجسد فى صورة البشر ، فى صورة بطرس الرسول ، فى صورة بابا ، ثم يختفى بانشقاق الكنيسة ومجئ المسيخ الدجال . ويقول الشاعر ، ان رجال الدين ، لم يعودوا الخلف القادر على إنقاذ الأرواح ، فقد فسد معظمهم ، إذ يخدعون البسطاء ، ويغفرون للأغنياء ويتقاضون ثمن غفرانهم ويتجرون فى المقدسات ، ويبيعون الجنة نفسها فى مقابل فلس واحد . وما الذى يستطيع المسيحى أن يفعله فى هذه المنحة العامة ؟ يقول وليام ، عليه أن يعود مرة أخرى ، ويتسامى على كل الجماعات الحية المتداخلة على ضروب الفساد ، ويبحث عن المسيح نفسه .

وفى قصيدة بترز الحراث نصيب من الهذو ، أما مجازاتها الغامضة ففيها إملال ، لكل قارئ يدرك أن الوضوح ، مسئولية معنوية ، يجب أن ينهض بها المؤلفون . وهى على ذلك قصيدة صادقة تنكل بالأشرار فى غير تعصب ، وتصور المشهد الأنسانى تصويراً حقاً ، وترتفع بلسان العاطفة والجمال إلى ذروة لاتضارعها سوى حكايات كانتربرى فى الأدب الإنجليزى إبان القرن الرابع عشر ، وكان تأثيرها عظيما ، حتى لقد أصبح بترز بالنسبة إلى ثوار انجلترا ، رمزاً للفلاح الجرىء المستقيم ، ولقد امتدحه جون بول لثوار اسكس عام ١٣٨١ ، وبعث اسمه ، بعد ذلك بكثير فى عصر الإصلاح عند نقد النظام الدينى القديم والمطالبة بنظام جديد (٦٩) . وختم الشاعر أحلامه بأن تحول من بترز الذى يمثل البابا ، إلى بترز الفلاح مرة أخرى وهو يقول فى الختام ، إذا كنا جميعاً مثل بترز فلاحين بسطاء ، نتبع المسيحية فذلك أعظم الثورات وآخرها ، ولن يحتاج العالم إلى غيرها أبداً .

أما جون جور ، فشاعر أقل من لانجلند العجيب ، خيالا وأضعف شخصية ؛ ذلك أنه كان من أصحاب الأراضى الأغنياء فى كنت . فامتلأ

ذهنه بالكثير من عناصر التحذلق والعلم ، وكان بليد القريحة . فما أنشأ بثلاث لغات . وهاجم أيضاً أخطاء رجال الدين ، ولكنه كان يرتعد فرقاً من هرطقة المصلحين الإنجليز الأوائل اللولارد وتعجب من وقاحة الفلاحين الذين قنعوا يوماً بالقمح والجعة ، وإذا بهم يطالبون اليوم باللحم واللبن والجبن . ويقول جور ثلاثة أشياء لاترحم ، إذا لم يكبح جماحها : الماء ، والنار ، والغوغاء . ألح الضيق بجوير المثالى من هذا العالم فانشغل بالآخرة ، واعتزل فى شيخوخته بصومعة . وانفق السنة الأخيرة من حياته فى الصلاة وكف البصر . ولقد أعجب معاصروه بأخلاقياته ، وأسفوا على سلوكه وأسلوبه ، وتخاصوا منه إلى تشوسر .

٥ — جيوفرى تشوسر

١٣٤٠ — ١٤٠٠

كان رجلا يتدفق فيه دم انجلترا المبتهجة وخمرها ، رجلا قادراً على أن يطوى فى قلبه متاعب الحياة الطبيعية ، وأن يرسم وخزها فى مرح متسامح ، ويصور جميع مراحل المجتمع الإنجليزى ، بريشة جد عريضة كريشة هوميروس ، وروح شهوانية كروح رابليه .

وكان اسمه ، كأكثر مفردات لغته ، فرنسى الأصل ، ومعناه الإسكاف ، وربما كان ينطق شوساير ، وللوراثة مداعباتها لأسمائنا ، وهى إنما تذكرنا بأن نصوغ أنفسنا طبقاً لهواها . . فهو ابن جون تشوسر ، خمار لندنى . لقد نال حظاً طيباً من العلم بفضل الكتب والحياة معاً ، وينضح شعره بمعرفة الرجال والنساء من ناحية والأدب والتاريخ من ناحية أخرى . ولقد سجل اسم « جيوفرى تشوسر » رسمياً عام ١٣٥٧ ، ليكون فى حاشية دوق كلارنس المقبل . وبعد ذلك بعامين رحل ليحارب فى فرنسا ، وأسر ، ثم افتداه ادوارد الثالث . ونحن نجده عام ١٣٦٧ أحد الأعيان فى مجلس

الملك ، بمعاش مقداره عشرون مارك سنوياً . وكان ادوارد كثير الرحلة مع حاشيته وأغلب الظن أن تشوسر كان يصحبه مستمتعا بجمال انجلترا وتزوج عام ١٣٦٦ فيليبا ، إحدى وصيفات الملكة ، وظل على خلاف معها حتى ماتت واستمر ريتشارد الثانى يجرى عليه معاشاً ، أضاف إليه جون أمير جونت ، عشرة جنيهات كل سنة كما حصل على هبات أخرى من الطبقة العليا وهذا يفسر السبب الذى من أجله لم ينتبه تشوسر إلى الثورة الكبرى مع أنه كان خبيراً بالحياة .

وفى التقاليد الحسنة فى تلك الأيام التى كلف الناس فيها بالشعر والفصاحة ، أن يوفد الأدباء فى مهام سياسية فى الخارج . فانتدب تشوسر مع آخرين للمفاوضة على عقد اتفاقية تجارية فى جنوة عام ١٣٧٢ ، كما ذهب عام ١٣٧٨ ، صحبته سير ادوارد بيركلى ، إلى ميلان . ومن يدرى لعله لقى هناك بوكاشيو العليل ، أو بترارك الطاعن فى السن ؟ ومهما يكن من شىء فقد كانت إيطاليا نقطة تحول فى إلهامه . ذلك أنه رأى فيها الثقافة أكثر صقلا وعلما وبراعة من انجلترا ، وتعلم أن يحتفى بالآداب الكلاسية ، وباللاتينية منها على وجه خاص ، وتحول عن التأثير الفرنسى الذى صاغ قصائده الأولى ، إلى الإيطالى فى الأفكار ، وقوالب النظم والموضوعات . حتى إذا عاد إلى موطنه ، وإلى مشاهده وشخصياته ، كان قد أصبح فناناً بارعاً ، ومفكراً ناضجاً .

وما من امرئ فى انجلترا وقتذاك استطاع أن يكسب عيشه من القريض ، ونحن نعتقد أن معاش تشوسر قد يسر له السكن والغذاء والكساء ، ذلك أن مجموع ما حصل عليه بعد عام ١٣٧٨ ، كان قريباً من عشرة آلاف دولار بالحساب النقدى فى أيامنا ، يضاف إلى ذلك المعاش الذى كانت تحصل عليه زوجته من جون اوف جونت ومن الملك . ومهما يكن من شىء فقد أحس تشوسر الحاجة إلى استكمال دخله بالتعيين فى مناصب حكومية

مختلفة . فعمل اثنتى عشرة سنه (من عام ١٣٧٤ — ١٣٨٦) « مراقباً للجمارك والمكوس » واتخذ له فى هذه الفترة مسكناً فى قلعة « الدجيت » ودفع فى عام ١٣٨٠ ، مبلغاً لم يذكر مقداره إلى سيسيليا تشومبين لتتنازل عن ادعائها بأنه اغتصبها . وعين بعد ذلك بخمسة أعوام قاضى الصلح لمقاطعة كنت ، وفى عام ١٣٨٦ سعى حتى انتخب فى البرلمان . وكان يقرض شعره فى فترات الراحة من العمل . ووصف نفسه فى قصيدته « دار الشهرة » بأنه يعود متعجلا إلى بيته « بعد أن يسدد ما عليه ، وينسى نفسه فى كتبه ، ويجلس جامداً كالصخر ، ويعيش كالناسك فى كل شىء إلا الفقر والعفة والطاعة ، ويقف ملكاته على تقفية كتبه وأغانيه وأناشيده » . ويخبرنا بأنه نظم فى شبابه «كثيراً من الأغانى وقصائد التشبيب » . ولقد ترجم كتاب فينوس « عزاء الفلسفة » . فى نثر جيد ، وجزءاً من قصيدة جويوم دولوريس « قصة الورد » فى نظم بارع . وبدأ فيما يمكن أن يسمى المقطعات الشعرية الهامة « دار الشهرة » ، «كتاب الدوقة » ، « برلمان الدجاج » ، « اسطورة النساء الطيبات » ، ولقد سبق وأوضح لنا أنه لم يكن قادراً على إتمامها . وهذه القصائد جهود تنبئ عن طموح وان كانت تقليداً صريحاً للأصول الأوربية فى الموضوع والشكل جميعاً .

ودأب تشوسر على التقليد بل الترجمة فى أحسن قصائده المفردة وهى ترويلوس وكريسيد ، فاستعار من « الفلستراتو » لبوكاشيو ٢٧٣٠ بيتاً وأضاف ٥٦٩٦ بيتاً من مصدر آخر أوصاغها بنفسه . ولم يبذل محاولة ما ليخدع القارى عن هذه الحقيقة ، فهو يذكر مصدره مراراً ويعتذر عن عدم ترجمته بأسره . ويعد هذا التحول من أدب إلى آخر مقبولا ومفيداً فإن الذين نالوا حظاً كبيراً من التعليم لم يكونوا يستطيعون وقت ذاك أن يفهموا غير لهجتهم الخاصة . فموضوع القصة حق مشاع كما اعتقد مؤلفو التمثيليات من الإغريق والإنجليز فى عهد إليزابيث ، والفن إنما يتركز فى الشكل .

وتعد ترويلوس التى نظمها تشوسر على الرغم من جميع هذه النقائص ، أول قصيدة قصصية عظيمة فى اللغة الإنجليزية . ولقد وصفها سكوت بأنها « طويلة مملة » وأنها كذلك وقال روزيتى « لعلها أجمل قصيدة قصصية على شيء من الطول فى اللغة الإنجليزية » ، وهذا أيضاً صحيح . ذلك لأن القصائد الطويلة كلها مملة مهما كان جمالها ، فالعاطفة من مقومات الشعر فإذا استغرقت ٨٣٨٦ بيتاً ، فإنها تصبح نثراً بسرعة انطفاء الرغبة . ولن تحتاج أى سيدة إلى مثل هذه الأبيات الكثيرة لكى تنام ، وقلما تردد الحب وتأمل وماطل وأذعن بهذه البلاغة الفاخرة ، والأخيلة المطربة ، والقافية السهلة السلسة .. ولايضارع هذا النهر العظيم الفياض من النظم سوى ريتشارد سون فى نثره المتدفق كنهر المسيسبى فى تصوير الحب ، بأناة ، تصويراً نفسياً . ومع ذلك فإن الخطابية المجنحة فى سرف وصياغة الكلمات التى لاتحد وسعة المعرفة المعترضة لم تستطع أن تفسد القصيدة . فهى فوق هذا كله حكاية فلسفية تصور كيف خلقت المرأة للحب ، وسرعان ما تحب شخصاً ثانياً إذا طالت غيبة الأول عنها . وفيها شخصية واحدة رسمت وكأنها حية تسعى : بندارس الذى كان فى الألياذة قائد جيش ليشيا فى طرواده ولكنه يصبح هنا شخصية مفرطة داهية ديوثا جريئاً يقود العاشقين إلى الخطيئة وحسبنا هذه الكلمة تعليقاً عليه . أما ترويلوس فهو محارب مشغول بمدافعة اليونان ويحتقر الرجال الذين يتلكأون على الصدور اللينة ويصبحون عبيد الشهوة ، وهو يجن بكريسيد حباً من أول نظرة . ولم يفكر بعد ذلك إلا فى جمالها ودلالها ورقتها . وبعد أن انتظرت كريسيد فى شوق ، مدى ستة آلاف بيت من الشعر ، من هذا الجندى الحيى أن يصرح بحبه ، تقع بين ذراعيه ، وقد تنفست الصعداء آخر الأمر ، وسرعان ما ينسى ترويلوس عالمين فى وقت واحـــد .

مرت منه جميع الهموم الأخرى .

هموم الحصار وهموم خلاص الروح .

وما ان أجهد تشوسر نفسه فى الحصول على هذا الوجد ، حتى يتخطى مسرعاً نعيم العاشقين إلى المأساة التى تنقذ القصيدة من الإملال . فقد هجر والد كريسيد قومه إلى اليونان ، فأرسل الطرواديون وقد لاح عليهم الغضب كريسيد إلى هناك فى مقابل الأسير انتينور . وافترق العاشقان البائسان بعد أن قطعا على نفسيهما العهود بالوفاء إلى الأبد . ولما وصلت كريسيد إلى اليونان منحت إلى دياميدس ، الذى أوقع أسيرته فى شراكه برجولته ووسامته — فاستسلمت فى صحيفة واحدة من القصيدة وهو ماكان قد حشد قبل ذلك فى كتاب . وفطن ترويلوس إلى ذلك ، فبادر إلى الحرب باحثاً عن دياميدس وإذا به يلقى مصرعه برمح اخيل . وختم تشوسر ملحمته الغرامية بابتهال إلى الثالوث المقدس ، بعث بها وقد أنبه ضميره « إلى جوور الأخلاق لتصححها بسماحتك » .

وربما يكون قد بدأ « حكايات كانتبرى » عام ١٣٨٧ وكان مشروعاً رائعاً ، أن ينضم إلى جمع مختلف من البريطانيين فى حانة تابرد فى سوث وارك ، حيث تعاطى شوسر أقداحاً كثيرة من الجعة — ثم يركب معهم فى عطلة الحج إلى ضريح بكت فى كانتربرى ، ويضع على أفواههم الحكايات والأفكار التى جمعها الشاعر من رحلاته طوال نصف قرن . ولقد استعملت هذه الوسائل لجمع القصص بعضها إلى بعض ، قبل ذلك مراراً ، ولكن هذه الوسيلة أحسنها جميعاً . ولقد حشد بوكاشيو فى مجموعته « ديكاميرون » طبقة واحدة فقط من الرجال والنساء ، ولم يظهرهم شخصيات مختلفة ، أما تشوسر فخلق حانة زاخرة بالشخصيات ، بلغت حداً من الواقعية فى عدم التجانس ، حتى بدت أقرب إلى الحياة الإنجليزية من الأعلام التاريخية الجامدة ، إنهم يعيشون ويتحركون كما يتحرك الأحياء بالضبط ، إنهم يحبون ويكرهون ، ويضحكون ويبكون ، ونحن لا نسمع منهم وهم

يجوسون خلال الطريق الحكايات التى يقصونها فقط ، ولكنا نسمع متاعبهم ومشاجراتهم وفلسفاتهم .

ومن الذى يعترض على ذكر هذه الأبيات المخضلة بنضارة الربيع مرة أخرى ؟

عندما يحل ابريل بشآبيبه
تكون رياح مارس قد نفذت إلى الجذور ،
وغسلت كل كرم برحيق أغصانها ،
وتكون الزهرة هى الفضيلة التى أثمرت ،
وعندما ألهمت الريح القرية بأنفاسها الحلوة
فى كل حقل وفى كل مرج ، أيضاً
النباتات الندية ، تكون الشمس الفتية
قد سارت نصف مدارها فى برج الحمل ،
فترسل بغاث الطير أنغامها ،
وهى التى أنفقت الليل بطوله مفتوحة الأعين ، . .
ثم يذهب الناس المشوقون إلى الحج . . .
إلى الأضرحة البعيدة ، المعروفة فى بقاع شتى . .
وفى سوثورك فى تاباد حيث أقطن
أسعد لأقوم بالحج
إلى كانتربرى بعزم خالص كامل ،
وجاء إلى المنزل فى الليل .
تسعة وعشرون صحبة واحدة ،
من أناس مختلفين ، التقوا بالصدفة
وألفوا زمراً ، وهم جميعاً حجاج ،
يتجهون راكبين إلى كانتربرى

ثم يقدمهم تشوسر الواحد بعد الآخر فى رسومه الطريفة من استهلاله الذى لايضارع ،

وكان بينهم فارس ، وهو رجل محترم ،
وهو فى ذلك الزمان أول من بدأ
الخروج راكباً ، فقد كان يحب الفروسية ،
والصدق ، والشرف ، والحرية والتهذيب . .
وقد خاض المعارك الدامية ،
وحارب من أجل عقيدتنا فى ترامسين . . .
ومع أنه كان جديراً بالاحترام ، إلا أنه كان حكيما ، يشبه فى هيئته العذراء .
ولم يصدر عنه الخبث ولم يقله
فى كل حياته ، ولم يعرف عنه خلق فظ ؟
فلقد كان فارساً كاملا دقيقاً .
وابن الفارس :
. . . سيد شاب ،
عاشق ، وأعزب شهوانى . .
وقد توله فى عشقه ، حتى أنه فى كثير من الليالى .
لا ينام أكثر مما ينام العندليب .
وحارس يخدم الفارس والسيد ، وراهبة بارعة الجمال :
وكانت هناك أيضاً راهبة ، رئيسة راهبات ،
وفى بسمتها البساطة والخفر ،
وقسمها الأعظم هو بالقديس لويس ،
وكانت تدعى مدام اجلنتين .
تحسن ترتيل الصلاة ،

مفعمة بالغنى الكامل . . .
وكانت جد محسنة رحيمة
تجهش بالبكاء ، إذا رأت فأراً
وقع فى مصيدة ، فمات أو جرح
ولها جراء صغار ، تطعمها
باللحم المقلى أو اللبن وفتات الخبز ،
وتبكى بحرارة إن مات أحدها . .
وتلف معصمها بسوار من المرجان الصغير
وخرزتين مذهبتين ومزخرفتين باللون الأخضر .
ويتلألأ على صدرها دبوس من الذهب ،
منقوش على أوله حرف « ا » متوجا ،
وبعده عبارة « الحب ينتصر على الجميع » .
يضاف إلى هؤلاء راهبة أخرى ، وثلاثة قسس . وناسك مرح « يحب الصيد » ، وراهب لايضارع فى إخراج الاكتتابات من حوافظ المتقين ،
ومع أنه كان أرملا لا ينتعل حذاءاً ،
إلا أنه كان رضياً فى مبادئه . يستطيع أن يحصل على فلس ، قبل أن يمضى
ويكلف تشوسر بطالب الفلسفة الشاب أكثر من غيره :
وكان بينهم أيضاً كاتب من اكسفورد ،
قطع فى دراسة المنطق مرحلة طويلة .
وجواده ضامر مثل الكلب الأعجف ،
لقد رأيته غير بدين .
يبدو نحيلا ، غاية فى التعقل .
تلفه سترة من الخيط ،

فلم يكن يحصل على صدقة من الكنيسة ،
ولم يكن خبيراً بشئون الدنيا ليحصل على وظيفة :
فوضع لنفسه على رأس السرير.
عشرين كتاباً مجلدة بالأسود أو الأحمر ،
عن أرستطاليس وفلسفته .
وهي عنده أفضل من الثياب النفيسة أو القيثارة الطروب . .
وبذل فى دراسته فائق عنايته وغاية انتباهه . ولا يلفظ بكلمة لغو .
ولم يكن يسمع إلا متحدثاً عن الفضيلة الأخلاقية . وكان يسره أن يتعلم ،
وأن يعلم :

وهناك أيضاً « زوجة باث » وسنتحدث عنها بعد قليل ، وراعى كنيسة فقير « وهو غنى بأفكاره وأعماله الدينية » وفلاح ، وطحان ، على أطراف أنفه . . . . . . وتقف دونها خصلة من شعر أحمر كالشعر الخشن على أذنى خنزير ، وأحد زبائن حانة أوزميل ، أو ناظر ضيعة ، أو محضر محكمة :

كان وغدا رقيقاً حنوناً ،
ولا يجد الناس خيراً منه .
وهو يجاهد للحصول على ربع نبيذ ،
وقرينة حسنة تصبح له حظية
اثنى عشر شهراً ، ثم تخليه وهى حامل
. . . ويركب معه بائع غفران طيب . .
وجعبته أمامه على حجره ،

تمتلئ إلى حافتها بصكوك غفران لا تزال كلها دافئة من روما ، وكان هناك تاجر ، ورجل قانون ، وصاحب أعمال ، ونجار ونساج ، وصباغ ، ومنجد وطباخ وبحار ، وكان هناك جيوفرى تشوسر نفسه ، يقف جانباً فى خجل ، بديناً من العسير احتضانه « ويفحص الأرض بنظراته كأنما

يفتش عن أرنب » ولم يكن مضيفنا أقلهم شأناً ، وهو صاحب حانة تابارد ، الذى يقسم أنه لم يرفه عن جماعة كبيرة العدد كهذه ، والواقع أنه عرض عليهم أن يذهب معهم وأن يكون دليلهم ، واقترح لكى يقضوا الرحلة الستة والخمسين ميلا ، أن يروى كل حاج قصتين فى الذهاب وأخريين فى الإياب ، وأن من يروى أحسن قصة ، سيتناول العشاء على حساب الجميع ، عندما يعودون إلى الحانة . اتفق الكل على ذلك ، واكتمل المشهد المتحرك لهذه الملهاة الإنسانية ، وبدأ الحج ، وروى الفارس المهذب الحكاية الأولى — كيف أن صديقين حميمين بلاجون وارسيت ، رأيا فتاة تجمع الأزهار فى بستان فوقع كلاهما فى حبها ، واختصما من أجلها فى مبارزة دامية . . . لتكون المكافأة السنية لمن ينتصر منهما .

ومن ذا يصدق أن قلما رومانسياً كهذا ، يستطيع أن يتحول فى بيت واحد ، من إطناب الفروسية إلى الإفحاش فى قصة الطحان ؟ ولكن الطحان كان يحتسى الخمر وتوقع أن عقله ولسانه قد ينفلتان فى شراكهم المنصوب . ويعتذر تشوسر عنه وعن نفسه — فيجب عليه أن يسجل كل شىء بإخلاص — ويدعو القارئ المتعفف أن يتجاوزها إلى قصة أخرى « فإن هذا يخدش الحياء . . والأخلاق والدين » . وتبدأ حكاية رئيسة الراهبات بنبرة دينية حلوة ، ثم تردد الأسطورة الفاجعة التى تتحدث عن غلام مسيحى ، يقال أن يهودياً ذبحه ، وكيف أن محافظ المدينة قام بواجبه وقبض على يهودها وعذب عدداً منهم حتى ماتوا . وينتقل تشوسر من هذا الورع الدينى فى الاستهلاك ، إلى حكاية تاجر صكوك الغفران . . إلى سخرية لاذعة بباعة متجولين لصكوك الغفران ، وأصبح عمر هذا الموضوع قرناً من الزمان ، عندما أذاعه لوثر فى العالم ، ثم تحول فى الاستهلاك إلى حكاية زوجة باث ، وبلغ شاعرنا الحضيض فى أخلاقياته والذروة فى قوته . إنه احتجاج معربد على العذرية والعزوبة ، أجرى على لسان فاجر مدرب على شئون الزواج ،

لسان امرأة حصلت على خمسة أزواج ، مذ كانت فى الثانية عشرة من عمرها ، ودفنت أربعة منهم ، وتبحث عن السادس ليخفف من سورة شبابها .

لقد دعانا الله إلى أن ننمو ونتكاثر . .
ولم يذكر العدد الذى نبلغه ،
الزواج من اثنين أو ثمانية ،
فلماذا يتحدث المرء عنه بسوء ؟
يا عجبا . . هذا هو الملك الحكيم سيدنا سليمان ،
أحسب أنه اتخذ أكثر من زوجة ،
كما ترك الله الأمر لى
أن أجدد حياتى كالرجل أكثر من مرة . . .
وا أسفا وا أسفا أن يعد الحب خطيئة !

ولن نورد هنا اعترافاتها الفسيولوجية ، ولا ما يناظرها من اعتراف مذكور فى حكاية سمنور ، حيث يعكف تشوسر على دراسة تشريح البطن المنتفخ . ويصبح الجو مهيأ عندما نصل إلى جريزلدا المطيعة أبدا ، فى حكاية اكسفورد الكهنوتية ، ولم يستطع بوكاشيو أو بترارك أن يرويا هذه الخرافة التى حلم بها رجل ألح الضيق عليه بنفس الجودة التى رواها بها تشوسر .

ولم يعطنا تشوسر غير ثلاث وعشرين من الحكايات الثمانية والخمسين التى وعدنا بها فى المقدمة ، ولعله شعر مع القارى أن الخمسمائة صحيفة تكفى ، وأن نبع ابتكاره قد جف . بل إننا نجد فى هذا التيار المتدفق فقرات كدرة . تتجاوزها العين الناقدة . ومهما يكن من شىء فإن التيار البطىء العميق ، يحملنا على صفحته وينشر جواً من النضارة ، كان الشاعر قد عاش على طوال الشواطئ الخضراء ، لا عند بوابة لندن — ومع ذلك فليس نهر التاميز بعيداً عن العين . وتعد بعض الأناشيد من ناحية الجمال الخارجى تمرينات أدبية جامدة ، ومع ذلك فإن الصورة المتحركة تأتى حية بشعور وحديث

طبيعيين مباشرين ، وقلما توجد مثل هذه الملاحظة الكاشفة السريعة للناس والأخلاق بين دفتى كتاب واحد ، ولن يزودنا غير شكسبير بعد ذلك بمثل هذا الحشد من الصور والتشبيهات والمجازات (ويعتلى بائع صكوك الغفران المنبر ويومئ يميناً وشمالا بين الجمهور كحمامة على سقف مخزن للحبوب) ولقد أصبحت لهجة شرق مدلاند التى استعملها تشوسر ، لغة انجلترا الأدبية ، وكانت مفرداتها قد كثرت إلى الحد الذى يتيح لها التعبير عن جمال الفكر ومناهجه وهكذا صارت لغة الحديث عند الإنجليز للمرة الأولى وسيلة الفن الأدبى العظيم .

وكانت مادة أدبه ، كما هو الحال عند شكسبير ، مطروقة من قبل . ذلك أن تشوسر استعار قصصه من كل مكان . حكاية الليل من تيسيد لبوكاشيو ، وجريزلدا من مجموعة « ديكاميرون » ، وأكثر من عشر حكايات من الخرافات الفرنسية . ويفسر المعنى الأخير ما اتسم به تشوسر من فحش ، ومع ذلك ، فإن أنكر قصصه لا يعرف له مصدر غير شخصه . وليس من شك فى أنه كان يشارك كتاب المسرح فى عهد اليزابث ، فى الاعتقاد بأن الأشخاص الذين تدور القصة عليهم يجب أن يعطوا جرعة فاجرة بين حين وآخر لكى يظلوا أيقاظاً ، ولقد جعل تشوسر رجاله ونساءه يتكلمون كأنما يناظرون طبقتهم الاجتماعية وأسلوبهم فى الحياة ، وهو يكرر ، أنهم أكثروا من احتساء الجعة الرخيصة . ومرحه فى الغالب غير مريض من القلب ، تحفزه الشهوة ، لابد أن تكون ممتلئة حسنة الغذاء لقوم من الإنجليز قبل تزمت الطهريين ، ولقد مزج هذا المرح مزجاً بارعاً بكل مافى البديهة الإنجليزية الحديثة من حيلة ودهاء .

وكان تشوسر على علم بأخطاء البشر وذنوبهم ، وجرائمهم وحماقاتهم وغرورهم ، ولكنه أحب الحياة على الرغم من هذا كله ، وصبر على كل امرئ لا يسرف فى التبجح وقلما يفضح ، وحسبه أن يصف . وأن

يسخر من نساء الطبقة الوسطى الدنيا فى حكاية زوجة باث ، ولكنه أعجب بقوتها الحيوية العارمة . وكان قاسياً غير مهذب مع المرأة ، قد تكشف كلماته وانتقاداته اللاذعة عن الزوج الجريح المنتقم بقلمه عن حياء لسانه عن التعبير بالليل . وهو على الرغم من ذلك يتلطف فى الحديث عن الحب ، ولا يعرف نعمة أعظم منه ، ويملأ معرضاً كاملا بصور النساء الطيبات . ولايعترف بالفضل الذى يرتكز على الوراثة ، ويرى « ان الفاضل إنما هو الذى يقوم بعمل فاضل » بيد أنه لا يثق فى تردد العامة ، والمغفل عنده هو كل من يربط حظه بالشهرة أو يندمج مع الغوغاء .

وكان متحرراً إلى حد كبير من خرافات عصره . فعرض بأدعياء الكيماويين ، ومع أن الذين سردوا حكاياته ذكروا التنجيم ، إلا أن تشوسر نفسه قد استنكره . وكتب إلى ابنه رسالة عن الاسطرلاب ، أظهر فيها دراية حسنة بالمعارف الفلكية الشائعة . ولم يكن عالماً متبحراً ، وان كان شغوفاً بإظهار علمه ، فحشا صفحاته بفقرات من « بيوشيوس » بل إنه جعل زوجة باث تستشهد « بسينكا » . ويورد مشكلات فى الفلسفة وعلوم الدين ، ولكنه يهز كتفيه أمامها عجزاً ولعله شعر ، بما يشعر به الرجل العملى ، بأن الفيلسوف الفطن لايتوسل فى حياته اليومية بمعارفه عما وراء الطبيعة .

أكان مسيحياً مؤمناً ؟ لايوجد شىء يضارع غلظته وفظاظته فى هجائه للرهبان ، فى الاستهلال وفى تضاعيف حكاية « سومنور » ، ولكم صوب نفر من المؤمنين المحافظين للإخوان مثل هذه الطعنات . وهو يثير الريب هنا وهناك ، حول بعض العقائد الدينية الجامدة ، ولم يكن يستطيع أن يفعل أكثر من لوثر فى التوفيق بين العلم الإلهى السابق وبين إرادة الإنسان الحرة ، وهو يجعل ترويلوس يشرح النظرية الجبرية ، ولكنه يرفضها فى الاستهلال له . وهو يؤكد اعتقاده فى الجنة والنار ، ولكنه يعلق على ذلك فى شىء من الطول ، بأنهما غايتان لا يعود منهما مسافر يشهد على صدق وجودهما .

وكانت الشرور تقلق باله وبخاصة تلك التى لا تنسجم مع القدرة المطلقة على الخير . ويجعل « اركسيت » يتساءل عن العدل الإلهى بعبارات جريئة كعبارات عمر الخيام :

اوه أيتها الربة القاسية ، يا من تحكمين
هذه الدنيا برباط من كلمتك الخالدة ،
وكتبت فى لوح قد من صخر
كلامك وعظمتك الخالدة ،
وماذا تكون البشرية فى تقديرك
أكثر من خراف تزدحم فى حقل ؟
لأن الإنسان يحق عليه الذبح كغيره من الأنعام .
وهو يعيش أيضاً بين السجن والاعتقال ،
ويلم به المرض وتنزل عليه المصائب الكبار .
ولم يقترف ذنباً فى كثير من الأحيان ، يؤاخذ عليه .
وأى حكم فى العلم السابق ،
بأن الذنب يعذب البراءة ؟ . .
وعندما يموت الحيوان فإنه لا يحس بألم ،
ولكن الإنسان بعد أن يموت عليه أن يبكى ويشكو . . وأنا أترك الجواب عن هذا كله للآلهة .

وحاول تشوسر فى سنواته الأخيرة ، أن يعوض التقوى التى أفلتت منه فى شبابه . وألحق بحكايات كانتربرى ، التى لم تتم « صلاة تشوسر » ، يطلب فيها العفو من الله والناس عن مجونه وانشغاله بغرور الدنيا ، وأوصى « عندما تحين منيتى انتحبوا على ذنوبى ، واعملوا على انقاذ روحى » .

وتحول فى هذه السنوات الأخيرة من الاستمتاع بالحياة إلى كآبة امرئ ، يسترجع ، وقد اضمحلت صحته وحواسه ، ذكريات شهواته الطائشة

فى صباه . وفى عام ١٣٨١ عينه رتشارد الثانى « مسجلا لأعمالنا فى قصرنا بوستمنستر » وغيره من القصور الملكية . ويبدو أن صحته قد ساءت بعد ذلك بعشرة أعوام ، مع أنه كان قد تجاوز الخمسين بقليل ، ومهما يكن من شيء ، فقد أثبتت الأعباء التى نيطت به أنها فوق طاقته ، فصرف عن منصبه . ولم نجده بعد ذلك يشغل وظيفة ما . ونضبت موارده المالية . وهان قدره حتى طلب إلى الملك ستة شلنات وثمانى بنسات[٧٩] . وفى عام ١٣٩٤ منحه رتشارد الثانى معاشاً مقداره عشرون جنيهاً فى السنة مدى الحياة . ولم يكن هذا المعاش يكفيه ، فطلب إلى الملك أن يمنحه برميلا كبيراً من الخمور كل سنة ، فأجيب إلى سؤاله عام ١٣٨٩ . ولما حكم عليه بأن يسدد ديناً قدره أربعة عشر جنيهاً عجز عن الدفع [٨٠] . ومات فى الخامس والعشرين من أكتوبر عام ١٤٠٠ ، ودفن فى وستمنستر أبى ، وهو أول وأعظم الشعراء الكثيرين الذين نهضوا بعد ذلك بنظم الكلام الموزون[*] .

٦ — رتشارد الثانى

« أقسم عليك بالله أن تدعنا نفترش الأرض ونروى القصص الفاجعة عن وفيات الملوك [٨١] .

يقول هولنشد «كان رتشارد الثانى حسن الهيئة والطوية والفطرة ، إذا لم يؤثر فيها لؤم الذين حوله وخبث سيرتهم . . كان متلافاً ، طموحاً ، مستسلما للذات الحسية . ولقد أحب الكتب، وأعان تشوسر وفرواسارت . وأبدى شجاعة وحضور بديهة ، وقام بأعمال حكيمة فى الثورة الكبيرة ، ولكنه بعد تلك الأزمة المنهكة ، تورط فى ترف منهك ، وترك دفة الحكم إلى وزراء مبتدين ، فقامت فى وجه هؤلاء الرجال معارضة قوية ، يتزعمها توماس دوق جلوسستر ، ورتشارد ايرل اروندل وهنرى بولنجبروك ،

(*) قد لا يعود دفنه هناك ، إلى شعره ولكنه كان عند وفاته من مستأجرى عقار أبى .

حفيد ادوارد الثالث . وسيطر هذا الفريق على « برلمان لا يرحم » برلمان عام ١٣٨٨ ، الذى حكم بخيانة عشرة من رجال رتشارد وأعدمهم ، فجمع الملك عام ١٣٩٠ ، وكان لايزال شاباً فى الثالثة والعشرين ، أزمة الأمور فى يديه ، وحكم البلاد حكماً دستورياً مدى سبع سنوات — أو بعبارة أخرى ، حكم متمشياً مع القوانين ، والتقاليد ، ومنسجما مع نواب مختارين من الأمة .

وحرم بموت زوجته الملكة آن البوهيمية الموطن (١٣٩٤) ناصحاً معتدلا رشيداً وتزوج عام ١٣٩٦ إيزابل ، ابنة شارل السادس ، آملا أن يوطد من وراء ذلك السلام مع فرنسا ، وكانت لا تزال صبية فى السابعة من عمرها ، فأنفق الملك موارده على الحظايا والمقربين من الرجال والنساء وأحضرت الملكة الجديدة معها إلى لندن حاشية فرنسية . وجلب هؤلاء معهم أنماطاً فرنسية من الأخلاق وربما جلبوا أيضاً نظريات فرنسية عن الملكية المطلقة . ولما أرسل برلمان عام ١٣٩٧ إلى رتشارد قراراً بالشكوى من تبذير بلاطه ، أجاب متعاظما أن الحكم فى مثل هذه الأمور ليس من اختصاص البرلمان . وطلب اسم العضو الذى اقترح الشكوى ، فأذعن البرلمان وحكم على صاحب الاقتراح بالإعدام ، ولكن رتشارد عفى عنه .

وسرعان ما ترك جلوسستر وارو ندل لندن وظن الملك أنهما يتآمران على خلعه ، فأمر باعتقالهما وشنق اروندل ، وقتل جلوسستر خنقاً (١٣٩٧) .

ومات جون أوف جونت عام ١٣٩٩ ، فخلف إقطاعاً عامراً ، فصادر رتشارد أملاكه لحاجته إلى تمويل حملة يوفدها إلى ايرلندا ، فذعرت الطبقة الأرستقراطية من هذا الصنيع . وانتهز ابن دوق جنت ، المنفى المجرد من ميراثه ، فرصة انشغال الملك بإعادة الأمن إلى نصابه فى ايرلنده ، ونزل إلى البر فى يورك على رأس جيش صغير ، سرعان ما زاد عدده ، بانضمام النبلاء الأقوياء له . ووجد رتشارد عند عودته إلى انجلترا قواته قد نقصت

إلى أقصى حد ، وأصدقاءه يفرون منه خائفين ، فسلم شخصه وملكه إلى بولنجبروك ، الذى توج على عرش انجلترا باسم هنرى الرابع (١٣٩٩) وهكذا انتهت الأسرة البلانتاجينية التى بدأت بالملك هنرى الثانى عام ١١ ، وبدأت الأسرة اللانكسترية التى تنتهى بالملك هنرى السادس عام ١٤٦١. ومات رتشارد الثانى سجيناً فى بونيتفراكت (١٤٠٠) ، بالغاً من العمر ثلاثاً وثلاثين سنة ، وربما كان السبب فى موته أنه أصيب ، كما يذهب إلى ذلك هولنشد وشكسبير ، بنزلة برد فى سجنه ، ولعله قتل غيلة على يد أعوان الملك الجديد .

الفصل الرابع

فرنسا تحاضر

١٣٠٠ – ١٤٦١

١ – المشهد الفرنسى

لم تكن فرنسا عام ١٣٠٠ المملكة العظيمة التى تصل حدودها اليوم من القناة الإنجليزية إلى البحر الأبيض المتوسط ، ومن الفوج والألب إلى المحيط الأطلسى . كانت تصل شرقاً إلى نهر الرون فقط . ولقد ضمت فى الجنوب الغربى ، مساحة كبيرة – جوين وجاسكونيا – إلى التاج الإنجليزى بزواج هنرى الثانى من اليانور من أسرة اكويتين (١١٥٢) ، وفى الشمال أخذت انجلترا إقليم بونثيو ، ومعه ابيفيل ، ومع أن الملوك الإنجليز استولوا على هذه الأراضى باعتبارها إقطاعات ، تابعة للملوك الفرنسيين إلا أنهم فرضوا عليها سيادتهم الكاملة . أما بروفانس والدوفينية والكونتية الحرة فقد كانت تابعة للإمبراطورية الرومانية المقدسة ، وكان أباطرتها من الألمان فى العادة . ولقد حكم الملوك الفرنسيون حكماً غير مباشر ، عن طريق أقربائهم الإمارات ، فالوا وأنجو وبوربون وأنجوليم . وحكموا حكماً مباشراً الربوع الآتية باعتبارها التزاماً ملكياً ، وهى نورمانديا وبيكاردى وشامبانى ، وبواتو وأوفرن ومعظم لانجويدوك ، وجزيرة فرنسا – وهى « الجزيرة » التى على الجانب الشمالى من وسط فرنسا وتتركز حول باريس . وكانت أرتوا وبلوا ونيفير وليموج ، وأرمانياك ووفالنتينوا يحكمها سادة إقطاعيون يخضعون للملوك فرنسا خضوعاً اسمياً حيناً ويحاربونهم حيناً آخر . وكانت بريتانى وبرجنديا وفلاندرز إقطاعات فرنسية ، ولكنها كانت كما أسماها شكسبير « أقرب إلى الدوقيات الملكية » ، تتصرف كأنها دول مستقلة فى الواقع . ولم تكن فرنسا قد أصبحت فرنسا بعد .

وكانت أهم الإقطاعات الفرنسية وأكثرها تقلباً ، فى مستهل القرن الرابع عشر ، كونتية فلاندرز . ولم تنافس إيطاليا فى تقدمها الاقتصادى فى أوربا بأسرها شمالى جبال الألب ، سوى فلاندرز . وكانت حدودها تتذبذب فى غير انتظام فى الزمان وفى المكان ، وحسبنا أن نشير إليها ، بأنها الإقليم الذى يضم بروج وجنت وبيرز وكورتراى . وتوجد شرقى شيلد ، دوقية برابانت ، التى كانت تضم وقتذاك انتورب وميشلين (مالين) وبروكسل وتورناى ولوفين . وتقع جنوبى فلاندرز الأسقفيتان المستقلتان : ليبيح وكامبراى ، وكونتية هانو حول فالنسين . وتضم فلاندرز ومع التوسع برابانت وليبيج وكامبراى وهانو . وتقع إلى الشمال سبع مقاطعات صغيرة ، تؤلف تقريباً هولندا كما نعرفها اليوم . ولم تستطع هذه الأقاليم الهولندية أن تبلغ أوجها حتى القرن السابع عشر ، عندما اتسعت إمبراطوريتها ، إذا صح التعبير ، من رمبرانت إلى بتافيا . وكانت فلاندر وبرابانت عام ١٣٠٠ قد خنقتهما الصناعة والتجارة وحرب الطبقات ووصلت قناة ، طولها اثناعشر ميلا بروجيس ببحر الشمال ، تمخرها مائة سفينة كل يوم ، تأتى بالتجارة من مائة ميناء فى ثلاث قارات ، ويعد اينياس سيلفيوس ، مدينة بروجيس ، واحدة من أجمل المدن الثلاث فى العالم . وألف صاغة بروجيس ، فرقة كاملة من حرس المدينة ، ونساجو جنت ، سبعة وعشرين فرقة من قواتها العسكرية ، التى بلغ مجموعها ١٨٩,٠٠٠ رجل .

وكانت المنظمة النقابية فى القرون الوسطى ، وهى التى منحت الصانع كرامة الحرية ، والاعتزاز بالحذق ، تفسح الطريق فى صناعات النسيج والمعادن فى فلاندرز وبرابانت لنظام رأسمالى(*) يمد فيه الممول رأس المال

(*) نستطيع أن نعرف رأس المال على أنه السلع أو الأموال التى تستخدم فى إنتاج السلع للاستهلاك ونعرف الرأسمالى على أنه الذى يوظف رأس المال أو يقدمه ، والرأسمالية على أنها نظام اقتصادى أو علمية اقتصادية يسيطر عليها الرأسماليون .

والمواد والآلات إلى عمال المصانع الذين يأخذون أجرهم بالقطعة ، ولم تعد النقابة تحميهم وأصبح الالتحاق بالنقابة باهظاً ، وأصبح آلاف العمال رجال تراحيل — عمال اليومية — يتنقلون من بلد إلى آخر ، ومن مصنع إلى مصنع ، ولايجدون إلا عملا مؤقتاً ويحصلون على أجور تفرض عليهم العيش فى مساكن قذرة . ولاتسمح لهم إلا بالقليل من المتاع لايتجاوز الملابس التى يرتدونها . وظهرت أفكار شيوعية بين العمال والفلاحين ، وتساءل الفقراء ، لماذا فرض عليهم أن يعيشوا جائعين وصوامع النبلاء ورجال الدين تطفح بالغلال ؟ وحكم على جميع الذين لا يعملون بأيديهم بأنهم من الطفيليين . وشكا أصحاب الأعمال بدورهم ، من الخطر الذى يتهدد أموالهم ، ومن عدم الاستقرار فى الحصول على مواد الصناعة وموسميتها ، ومن تعرض شحناتهم للغرق ، وتذبذب الأسعار فى السوق ، ومن الحيل التى يلجأ إليها المتنافسون ، والإضراب المتكرر الذى يرفع الأجور والأسعار ، واضطربت العملة ، فقلت أرباح رجال الأعمال ، إلى حد العجز عن الوفاء بالديون . وناصر لويس دى نيفير أمير فلاندرز ، أصحاب الأعمال . فثار العامة فى بروجز وبيرز يؤيدهم الفلاحون المجاورون ، وخلعوا لويس ، ونهبوا الكنائس ، وذبحوا نفراً من أصحاب الملايين . فما كان من الكنيسة إلا أن أصدرت قراراً بحرمان المناطق الثائرة ، ومع ذلك فقد أرغم الثائرون القساوسة على ترتيل القداس ، وانتحل أحد الزعماء نشيداً يسبق ديدورو بأربعمائة وخمسين سنة ، يقسم بأنه لن يقنع حتى يشنق آخر قسيس . . واستغاث لويس بمولاه ، ملك فرنسا ، فجاء فيليب السادس ، وهزم القوات الثائرة فى كاسل (١٣٢٨) ، وشنق عمدة بروجز ، وأعاد المقاطعة ، وجعل فلاندرز تابعة لفرنسا .

وكانت فرنسا على وجه العموم أقل تصنيعاً بكثير من فلاندرز ، وبقيت أغلب صناعاتها فى مرحلة العمل اليدوى ، ولكن ليل ودوراى وكمبراى وأمين اقتبست صناعة النسيج من المدن الفلمنكية القريبة . وعوقت الطرق

السيئة والمكوث الإقطاعية التجارة الداخلية ، بيد أنها أفادت من القنوات والأنهار التي ألفت شبكة من الطرق الطبيعية الكبيرة عبر فرنسا . وكانت طبقة رجال الأعمال النامية ، المتحالفة مع الملوك ، قد وصلت عام ١٣٠٠ إلى مكانة رفيعة فى الدولة ، وإلى درجة من الثراء أذهلت الإقطاعيين ، والنبلاء الفقراء جميعاً . وحكمت قلة من التجار المدن، وسيطرت على النقابات ، وأمضت فى تقييد الإنتاج والتجارة . وحدثت هنا ، كما حدث فى فلاندرز ، ثورة كادحين فى المدن .

فقد انتفض عام ١٣٠٠ فلاحون فقراء ، عرفوا فى التاريخ بالرعاة ، واصطخبوا فى المدن ، لما حدث عام ١٢٥١ ، وأخذوا يجمعون فى انتفاضتهم العمال الكادحين المتمردين . وساروا جنوباً ، يتزعمهم راهب ثائر ، وأغلبهم حفاة عزل من السلاح ، معلنين أن القدس غايتهم . ودفعهم الجوع إلى انتهاب الدكاكين والحقول ، ولما تعرضوا للمقاومة ، استطاعوا أن يحصلوا على الأسلحة ، ويؤلفوا جيشاً . حتى إذا بلغوا باريس حطموا أبواب السجن ، وهزموا قوات الملك . فحبس فيليب الرابع نفسه فى اللوفر ، وانسحب النبلاء إلى معاقلهم ، وجبن التجار فى دورهم . وواصل الحشد سيره ، وزاد عدد أفراده بانضمام المعدمين فى العاصمة إليهم ، حتى بلغوا أربعين ألفاً من الرجال والنساء ومن الأوباش والأتقياء . وذبحوا فى فردن وأوخ وتولوز جميع من وقع فى أيديهم من اليهود . ولما تجمعوا فى ايجوز مورت ، على البحر الأبيض المتوسط ، أحدق بهم عمدة كاركاسون بقواته ، وقطع عنهم المؤن ، ولبث كذلك حتى مات جميع الثوار من الجوع أو الوباء ، وشنق القليلين الذين بقوا منهم .

وأى نوع من الحكومة ذلك الذى يترك فرنسا ، تحت رحمة الثروة الجشعة ، والفقر الذى لايعبأ بقانون ؟ ولقد كانت حكومة فرنسا أقدر حكومة فى أوربا من نواح كثيرة : فإن ملوك القرن الثالث عشر الأقوياء ،

أخضعوا أمراء الإقطاع للدولة . وأنشأوا محكمة وإدارة قويتين ، بموظفين مدنيين مدربين ، واستدعوا للاجتماع فى مناسبات مجالس مقاطعات أو مجالس عامة وكانت فى الأصل تجمعاً عاماً لأصحاب المقاطعات ، ثم أصبحت مجلسا استشارياً يتألف من مندوبين عن النبلاء ورجال الدين ، والطبقة الوسطى . وأعجبت أوربا كلها بالبلاط الفرنسى ، حيث اختلط الأمراء والنبلاء والفرسان الأقوياء بالنساء ذوات الأردية الحريرية ، فى الحفلات الطريفة ، والمجون الرشيق ، والمبارزات الصاخبة فى برجاس لامع ، ببريق الفروسية ، ولقد وصف جون ملك بوهيميا باريس بأنها « أعظم مقر للفروسية فى العالم » وجاهر بأنه لا يستطيع أن يعيش خارجها . أما بترارك الذى زارها عام ١٣٣١ فكان وصفه إياها أقل خيالا : قال : « إن باريس مدينة عظيمة من غير شك ولو أنها دائماً أقل من شهرتها ، وتدين كثيراً لأكاذيب أهلها عنها ، والحق أننى لم أشهد مكاناً أقذر منها سوى افينيون . وتضم فى الوقت نفسه أعلم الرجال ، وهى كالسلة العظيمة تجمع فيها ، أندر الثمرات فى العالم . ولقد مر على الفرنسيين حين من الدهر ، وصفوا فيه بأنهم برابرة لشراستهم . أما الآن ، فقد تغير الحال تماماً . فإنهم يمتازون بمزاج مرح ، وحب للمجتمعات ، وسهولة وتلاعب فى الحديث . . وهم ينتهزون كل فرصة لإظهار امتيازهم ، وشن الحرب على جميع الأعباء بالتندر والضحك ، والغناء والأكل والشراب » .

وخلف ، فيليب الرابع ، لابنه عام ١٣١٤ خزانة خاوية أوتكاد على الرغم من مصادرته التى تشبه القرصنة لأموال الداوية واليهود ، ومات لويس العاشر بعد حكم قصير (١٣١٦) ولم يخلف وريثاً للعرش ، وإنما خلف زوجة حاملا . وما هى إلا فترة حتى توج أخوه باسم فيليب الخامس . وظهر فريق منافس يطالب بالعرش لابنته لويس جان ، البالغة من العمر أربع سنوات ، ولكن مجلساً من النبلاء ورجال الدين أصدر عام ١٣١٦

قراره المشهور الخاص بتوارث العرش وهو « أن القوانين والعادات المرعية بين الفرنج تستبعد البنات من وراثة العرش » . ومات فيليب (١٣٢٢) بلا ولد يخلفه ، فطبقت القاعدة مرة أخرى لتحول بين ابنته وبين ولاية الملك ، ونودى بأخيه ملكاً باسم شارل الرابع . والراجح أن القرار استهدف أيضاً أن يستبعد عن وراثة العرش ايزابل شقيقة فيليب الرابع ، وهى التى تزوجت من إدوارد الثانى ملك انجلترا ، وأنجبت إدوارد الثالث عام ٣١٢ ، لأن الفرنسيين صمموا على ألا يحكم فرنسا ملك إنجليزى .

ومات شارل الرابع بلا خلف من الذكور (١٣٢٨) فانتهت بموته دولة الملوك من أسرة كابيتان وعرض إدوارد الثالث ، الذى اعتلى عرش انجلترا قبل ذلك بعام ،على مجلس النبلاء فى فرنسا، مطالبته بالعرش الفرنسى ، باعتباره حفيداً لفيليب الرابع ، وأقرب الأعقاب الأحياء لهيوكابت ، فرفض المجلس ، على أساس ان أم إدوارد لا تستطيع أن تنقل إليه تاجاً استبعدت هى نفسها عنه بقرار التوريث الذى صدر عامى ١٣١٦ ، ١٣٢٢ . وفضل البارونات عليه ابن أخ لفيليب الرابع ، وهو الكونت فالوا ،وبذلك يكون فيليب الرابع هو الذى بدأ أسرة فالو المالكة ، التى حكمت فرنسا ، إلى أن استهل هنرى الرابع أسرة البربون عام ١٥٨٩ . واعترض على هذا الاختيار ادوارد ، ولكنه جاء إلى « أمين » عام ١٣٢٩ ، وأعلن خضوعه وأقسم يمين الولاء لفيليب الرابع باعتباره مولاه الإقطاعى على جاسكونيا وجويين وبونثيو . ولما أنضجت إدوارد السنون ، وزاد دهاؤه ، ندم على خضوعه وحلم مرة أخرى بالجلوس على عرشين فى وقت واحد . وأكد له مستشاروه، بأن فيليب الجديد مستضعف ، يدبر وشيكا للخروج فى حملة صليبية إلى الأراضى المقدسة . وظهر أن الوقت مناسب للبدء فى حرب المائة عام .

٢ — الطريق إلى كريسى

١٣٣٧ — ١٣٤٧

وطالب إدوارد عام ١٣٣٧ رسمياً من جديد بالعرش وكان رفض طلبه السبب المباشر للحرب . وأصبحت نورمانديا ، بعد فتحها انجلترا تابعة

للملوك الإنجليز ، مائة وثمانية وثلاثين عاماً ، وأعاد فيليب الثانى فتحها باسم فرنسا (١٢٠٤) ورأى كثير من النبلاء الإنجليز ، الذين انحدروا من أصل نورماندى ، فى الحرب المقبلة محاولة لاستعادة موطنهم الأصلى واقتطع فيليب الرابع وشارل الرابع جزءاً من مقاطعة جوين الإنجليزية التى كانت عامرة بالكروم ، وكانت تجارة النبيذ فى بوردو مورداً ثميناً لانجلترا حتى مات فى الدفاع عنها إلى حين عشرة آلاف إنجليزى . أما اسكتلندا فكانت شوكة فى جنب انجلترا ، وتحالف الفرنسيون مراراً معها فى حروبها مع انجلترا . وكان بحر الشمال عامراً بالسمك ، فادعى الأسطول الإنجليزى السيادة على هذه المياه فى القناة وخليج بسكاى واستولى على السفن الفرنسية التى سولت لنفسها أن تسخر من هذا الادعاء الأول بالسيادة الإنجليزية على البحار . وكانت فلاندرز منفذاً حيوياً للصوف البريطانى ، وأنف النبلاء الإنجليز الذين يجز الصوف من أغنامهم والتجار الذين يصدرون هذا الصوف ، أن تعتمد سوقهم الأساسية على النية الطيبة لملك فرنسا .

وأمر كونت فلاندرز عام ١٣٣٦ بحبس جميع البريطانيين هناك ، ويبدو أن فيليب السادس أيد هذا العمل وقاية من الدسائس الإنجليزية . فرد إدوارد الثالث على ذلك بأن أمر بالقبض على جميع الفلمنكيين فى انجلترا . وتحريم تصدير الصوف إلى فلاندرز وما هو إلا أسبوع حتى توقفت المغازل الفلمنكية لافتقارها إلى المادة الخام ، وتزاحم العمال فى الطرقات مطالبين بالعمل . واتحد العمال اليدويون والآليون فى جنت معلنين خروجهم عن طاعة الكونت ، وانتخبوا متآمرا دعيا هو جاكوب فان ارتفليد حاكماً على المدينة ، وأيدوا سياسته التى تنشد صداقة إنجلترا وصوفها (١٣٣٧) فألغى إدوارد الحظر ، وفر الكونت إلى باريس ، وأقر أهل فلاندرز جميعاً ديكتاتورية أرتفيلد ووافقوا على الانضمام إلى إنجلترا فى حربها مع فرنسا . وفى أول نوفمبر عام ١٣٣٧ سار إدوارد الثالث على تقاليد الفروسية

وأرسل إلى فيليب السادس إعلاناً رسمياً بأن انجلترا ستشرع فى الحرب بعد ثلاثة أيام .

وكان أول لقاء له أهميته فى حرب المائة سنة ، معركة بحرية فى سلويز بعيداً عن الساحل الفلمنكى (١٣٤٠) ، حطم فيها الأسطول الإنجليزى مائة واثنتين وأربعين سفينة من المائة والاثنتين والسبعين التى تؤلف الأسطول الفرنسى ثم تركت فى العام نفسه جان أميرة فالوا أخت فيليب وحماة إدوارد ، ديرها فى فونتنل ، وألحت على الملك الفرنسى أن يوفدها رسول سلام . فتعرضت فى طريقها إلى معسكر القادة الإنجليزى لأخطار كثيرة ، فوافقوها على عقد مؤتمر وأقنع توسطها البطولى الملكين بأن يعقدا هدنة لمدة تسعة أشهر . وساد السلام بفضل الجهود التى بذلها البابا كليمنت السادس إلى عام ١٣٤٦ .

ولكن حرب الطبقات احتلت المسرح فى فترة الصفاء هذه . وكان النساجون المنظمون فى جنت يؤلفون أرستقراطية العمل فى الأراضى الواطئة . ورفضوا الخضوع لأرتفيلد باعتباره طاغية قاسياً ، ومبدداً للأموال العامة ، وأداة طيعة فى يد إنجلترا والبورجوازية . واقترح أرتفيلد أن تنادى فلاندرز بأمير ويلز حاكماً عليها فجاء ادوارد الثالث إلى سلويز تأكيداً للاتفاق . حتى إذا رجع أرتفيلد من سلويز إلى جنت وجد داره محاطة بجمهور ساخط ودافع عن حياته مؤكداً أنه وطنى فلمنكى أصيل ، ولكنه سحل وضرب إلى أن فاضت روحه (١٣٤٥) . وأنشأ النساجون ديكتاتورية عمالية فى جنت ، وبعثوا مندوبين عنهم فى أنحاء فلاندرز يدعون العمال للثورة . فاشتبك القصارون مع النساجين وأجلوهم عن الحكم وقتل كثير منهم ، وضاق الشعب بالحكومة الجديدة وبسط لويس دى ميل ، وكان قد أصبح كونت فلاندرز ، سلطانه على جميع مدنها .

وما أن انتهت الهدنة ، حتى غزا إدوارد الثالث نورمانديا واجتاحها . وفى السادس والعشرين من أغسطس عام ١٣٤٦ ، التقى الجيشان : الإنجليزى

والفرنسى ، وتأهبا للمعركة الفاصلة . واستمع القادة والرجال من الجانبين إلى القداس ، وأكلوا جسم المسيح(*) وشربوا دمه وطلبوا معونة فى إجهاز أحدهما على الآخر . ثم تحاربا فى شجاعة ووحشية بلا هوادة . واكتسب إدوارد ، الأمير الأسود ، فى ذلك اليوم ثناء والده المنتصر ، وصمد فيليب السادس فى حومة الوغى ، حتى لم يبق من رجاله إلا ستة جنود . وهلك فى تلك المعركة الواحدة ، ثلاثون ألف رجل ، كما ذهب إلى ذلك فرواسار فى تقديره غير الدقيق . وأشرف الإقطاع على الموت هناك أيضاً : فوقف فرسان فرنسا الراكبون ، المسلحون فى رشاقة بالحراب القصار ، بلا حول ولاقوة ، أمام حائط من الرماح الإنجليزية الطوال المصوبة إلى صدور أفراسهم ، بينما نشر حملة القسى من الإنجليز عند الجناحين ، الموت بين الفرسان الفرنسيين . وكادت شمس الفروسية تأفل فى يوم الحصاد الطويل الذى تنفس فجره قبل ذلك فى ادريانوبل بتسعمائة وثمانى وستين سنة ، وجاءت المشاة إلى المقدمة ، وضعُفت سيادة العسكرية الأرستقراطية . واستعملت المدفعية فى كرسى على نطاق ضيق ، وجعلتها صعوبة النقل وحاجتها إلى إعادة التعمير أكثر مشقة وأقل جدوى ، ولذلك قصر فلانى فائدتها على صخبها(**) .

وقاد ادوارد جيشه من كريسى إلى حصار كاليه ، واستخدم المدفع فى تحطيم الأسوار (١٣٤٧) . وصمدت المدينة عاماً كاملا ، حتى ألحت المجاعة عليها ، فأذعنت لشرط ادوارد ، وهو أن يخرج الباقون على قيد الحياة بسلام ، إذا توجه ستة من أعيان المدينة إليه ، والحبال حول أعناقهم ، وفى أيديهم مفاتيح المدينة . وتطوع ستة منهم بالفعل ولما مثلوا أمام الملك ، أمر بشنقهم . فجثت ملكة انجلترا أمامه ، تتوسل الإبقاء على حياتهم ، فاستجاب لها ، وأرسلت الرجال مخفورين إلى دورهم بسلام . وللنساء

(*) كناية عن القربان .

(**) كانت المدفعية قد بلغت قرناً من الزمان ، ذلك لأن المدافعين البربر استعملوا المدافع فى سجلماسة عام ١٣٤٧

فى التاريخ فضل أعظم من الملوك وهن يخضن بشجاعة معركة يائسة لتحويل الرجال من جفوة التوحش إلى صقل الحضارة .

وهكذا أصبحت كاليه ، جزءاً من إنجلترا ، ولبثت إلى عام ١٥٥٨ ، منفذاً استراتيجياً لبضائعها وجيوشها على القارة . وثارت عام ١٣٤٨ ، فحاصرها ادوارد مرة أخرى وحارب بنفسه متنكراً فى المعمعة . واستطاع فارس فرنسى ، اسمه أوستاس دى ريبومونت ، أن يطعن إدوارد مرتين ، ولكنه غلب على أمره وأسر ، ولما استعاد إدوارد المدينة دعا أسراه النبلاء إلى الغذاء ، ووقف اللوردات الإنجليز وأمير ويلز على خدمتهم ، وقال ادوارد للفارس الذى طعنه ريبومونت « ياسير أوستاس ، إنك أشجع فارس رأيته فى العالم المسيحى يهاجم عدوه . . ولذلك فأنا أمنحك تقدير الشجاعة وأجعلك فوق جميع رجال بلاطى » . ونزع الملك الإنجليزى عن رأسه إكليلا نفيساً ووضعه على رأس الفارس الفرنسى ، قائلا :

« أيها السيد أوستاس ، إنى أهديك هذا الإكليل . . وأرجوك أن تضعه على رأسك هذا العام فى محبتى . وإنى لأعلم أنك مقبل على الحياة ، نزاع إلى الغزل ، مغرم بصحبة السيدات والآنسات ، ولذلك قل ، أينما ذهبت ، إنى أعطيتك إياه . وأنا أمنحك حريتك أيضاً بلا فدية ، ولك أن تذهب حيث شئت » .

وعاشت الفروسية هنا وهناك ، بين الجشع والقتل ، واقتربت وكادت أساطير أرثر تشبه التاريخ الحى على صفحات فرواسارت .

٣ ـ الموت الأسود وغيره

١٣٤٨ — ١٣٤٩

لقد كان الطاعون العظيم محايداً حين دهم إنجلترا العامرة بالغنائم الفرنسية وفرنسا التى أصابتها الهزيمة بالخراب . ووباء الطاعون حدث مألوف فى تاريخ العصور الوسطى ، فلقد أزعج أوربا اثنتين وثلاثين سنة من القرن

الرابع عشر ، وإحدى وأربعون سنة من الخامس عشر ، وثلاثين سنة من السادس عشر ، وهكذا تعاونت الطبيعة وجهل الإنسان ، هذان وهما عاملان ثابتان متوسيان من ناحية ، مع الحرب والمجاعة من ناحية أخرى ، على الحد منْ استغراق الإنسان فى النسل . وكان الموت الأسود شر هذه النوازل ، ولعله أنوح ملمة طبيعية تعرض لها الإنسان فى عصور التاريخ . ولقد وفد على برفانس وفرنسا من إيطاليا ، ولعله جاء مباشرة من الشرق الأدنى بوساطة الجرذان الشرقية التى ترسى على مارسيليا . وذهبت رواية ، غير محققة فى ناربون ، إلى أن ثلاثين ألف شخص ماتوا فى هذا الوباء ، وفى باريس خمسين ألفاً وفى أوربا خمسة وعشرين مليوناً ، وربما كان المجموع « ربع سكان العالم المتحضر » وعجزت مهنة الطب أمامه ، فلم تكن تعلم سبب المرض (ولقد اكتشف كيتا زاتو ، برسن ، باسيليات الطاعون الدملى عام ١٨٩٤) ، وكل ما كانت توصى به هو ، المعضدات ، ومطهرات الجوف ، والمنعشات ، ونظافة المسكن والجسم ، والتبخير ببخار الخل(٧) . ورفض عدد قليل من الأطباء والقساوسة علاج المرضى ، خوفاً من العدوى ، ولكن أكثرهم واجهوا المحنة برجولة ، وضحى آلاف من الأطباء ورجال الدين بحياتهم . وكان على قيد الحياة ثمانية وعشرون كاردينالا عام ١٣٤٨ توفى منهم تسعة بعد ذلك بعام واحد ، ومن الثمانية والأربعين رئيساً للأساقفة ، مات خمسة وعشرون ، ومن الخمسة والسبعين والثلثمائة أسقف مات سبعة ومائتان .

وكان للوباء آثاره على جميع نواحى الحياة وطبيعى أن يموت الفقراء ، بنسبة أكبر من الأغنياء ، فأدى ذلك إلى نقص فى العمال ، وهجرت آلاف الأفدنة بلا فلاحة ، ونفقت ملايين الأنعام . واكتسب العمال قدرة جديدة على المساومة إلى حين ، فرفعوا أجورهم ، ونفضـــوا عن كواهلهم كثيراً

من الأعباء الإقطاعية ، وقاموا بثورات جعلت النبلاء ، لايستطيعون النيل منهم مدى نصف قرن، بل أضرب القسس أنفسهم ،من أجل زيادة رواتبهم . وهجر عبيد الأرض ، المزارع إلى المدن ، واتسعت الصناعة ، وحصلت طبقة رجال الأعمال على مغانم جديدة من الأرستقراطية التى تملك الأرض . ونالت الصحة العامة قسطاً من الإصلاح المعتدل . وأضعفت شدة الألم والمأساة عقول الكثيرين ، فأدت إلى أمراض عصبية معدية ، ويبدو أن جماعات بأسرها قد جُنَّت مثل « الفلاجلان » الذين ساروا عام ١٣٤٩ ، كما فعلوا فى القرن الثالث عشر ، فى طرقات المدينة عراة أو يكادون ، يضربون أنفسهم فى ندم ، ويعظون بيوم الحساب ، والمدن الفاضلة ، ويدعون إلى ذبح اليهود . واستمع الناس بانتباه أكثر من المألوف إلى قراء الأفكار ، ومفسرى الأحلام ، والعرافين ، والدجالين وغيرهم من المشعوذين . وضعفت العقيدة الصحيحة وانتشرت الخرافة . وأرجع حدوث الطاعون إلى أسباب عجيبة . فنسبه بعضهم إلى اتصال فى غير أوانه بين زحل والمشترى والمريخ ، وآخرون إلى تسميم المجذومين أو اليهود للآبار . فقتل اليهود فى حوالى خمسين مدينة ، تمتد من بروكسل إلى برسلو بين عامى ١٣٤٨ — ١٣٤٩ ، وكاد يقضى على النظام الاجتماعى ، بموت آلاف من رجال الشرطة ، والقضاة وموظفى الحكومة ، والأساقفة والقسس . بل إن صناعة الحرب قد تعرضت للاضمحلال ، وتلكأت حرب المائة عام ، بين حصار كاليه ومعركة بواتييه (١٣٥٦) فى هدنة متراخية ، بينما عوض النقص الهائل فى صفوف المشاة ، برجال بلغ منهم الفقر مبلغاً ، جعلهم يرون الحياة تفضل الموت ببضعة شلنات !

وتأسى فيليب السادس ، عن الطاعون والهزيمة ، بالزواج ، وهو فى السادسة والخمسين ، من بلانش أميرة نافار ، البالغة من العمر ثمانى عشرة سنة ، وهى التى كان ينوى خطبتها لابنه . وتوفى بعد ذلك بسبعة

أشهر فقط . وكان هذا الابن ، جون الثانى « الطيب » (١٣٥٠ — ١٣٦٤) ، طيباً حتماً مع النبلاء ، أعفاهم من الضرائب ، ومنحهم الأموال ليصدوا الإنجليز عن أرضهم ، وأبقى على أشكال الفروسية ومزاياها جميعاً وخفض سعر العملة ، كوسيلة قديمة ، للوفاء بديون الحرب ، وزاد الضرائب مراراً ، على الطبقتين الدنيا والوسطى ، وسار فى أبهة ليلتقى بالإنجليز عند بواتييه . وهناك أبيد رجاله الخمسة عشر ألفاً من الفرسان والاسكتلنديين ، والحشم وذبحوا وأسروا ، على يد سبعة آلاف من رجال الأمير الأسود ، بل إن الملك جون نفسه ، الذى حارب بعنف ، وقاد جيشه بحماقة ، كان بين الأسرى هو وابنه فيليب ، وسبعة عشر ايرل ، وعدد لا يحصى من البارونات ، والفرسان ، والأعيان . وسمح لمعظمهم أن يفتدوا أنفسهم على الفور ، وأطلق سراح كثيرين ، بعد أن وعدوا بإحضار الفدية إلى بوردو فى عيد الميلاد وعامل الأمير الأسود الملك بما يليق بمقامه من إجلال ، واصطحبه على أكف الراحة إلى إنجلترا .

٤ — الثورة والتجديد
١٣٥٧ — ١٣٨٠

أصيبت فرنسا كلها بالفوضى بعد محنة بواتييه . وكان من نتائج عدم النزاهة والكفاءة فى الحكومة ، ونقص سعر العملة إلى حد كبير ، والمبالغ الباهظة التى دفعت فدية للملك والفرسان ، والخراب الذى جره الحرب والطاعون ، والضرائب غير المشجعة التى فرضت على الزراعة والصناعة والتجارة ، أن قامت الأمة بثورة يائسة . ودعا ولى العهد دوفان(*) وهو

(*) يبدو أنه كان فى أول الأمر اسم علم ، دلفينوس (دلفان) ، ولما تكرر فى أسماء الأسرة المالكة غالباً فى فينا وأوفرن أصبح (١٢٥٠) من ألقاب التشريف ، وخلع رسمياً عام ١٢٨٥ ، على الابن الأكبر لكونت فينا ، ومن ثم استعمل دلفيناتوس أودوفينيه للدلالة على الكونتيته التى تتخذ جرينوبل الآن مقراً أساسياً وفى عام ١٣٤٩ باع الكونت همبولت الثانى صاحب فينوا ، الدوفينية بلقبها دوفان إلى شارل صاحب فالوا ، ابن الملك جون الثانى . ولما أصبح شارل ملكاً عام ١٣٦٤ ، نقل اللقب إلى ابنه الأكبر ، وعرف منذ ذلك الابن الأكبر للملك الفرنسى بدوفان فينوا .

شارل صاحب فالوا البالغ من العمر تسع عشرة سنة ، مجلس الطبقات للولايات الشمالية إلى الانعقاد فى باريس . وذلك ليفرض ضرائب جديدة ، فأخذ على عاتقه أن ينشئ حكومة برلمانية فى فرنسا . وكان لباريس وغيرها من المدن برلمانات منذ عهد طويل ، ولكنها كانت جماعات صغيرة معينة ، معظمها من رجال القضاء عادة ، ومهمتها محصورة فى الاستشارة القانونية للحاكم المحلى أوالملك ، وتسجيل مراسيمه باعتبارها جزءاً من القانون الفرنسى . واستجوب هذا المجلس ، الذى سيطر عليه تحالف موقت بين رجال الدين والبورجوازية ، مجلس البلاط ، لماذا أدت المبالغ الكبيرة التى جمعت للحروب ، إلى وجود فرق غير منظمة وهزيمة منكرة ، وأمر باعتقال اثنين وعشرين من عملاء الحكومة ، كما أمر مديرى الخزانة أن يعيدوا المبالغ التى اتهموا باختلاسها . وفرض قيوداً على امتيازات التاج ، بل إنه فكر فى خلع جون الطيب ، وإبعاد أبنائه عن ولاية العهد ، وإسناد عرش فرنسا لى الملك شارل السيئ صاحب نافار ، وهو من أعقاب هيوكابت . بيد أن المجلس تأثر من خضوع ولى العهد وحكمته ، ونادى به نائباً للملك ، وأجمعوا رأيهم على إعطائه نفقات ، ثلاثين ألف رجل مدججين بالسلاح ، ولكن المجلس طالبه فى الوقت نفسه أن يطرد الموظفين الفاسدين أو الجهلاء ، وحذره من العبث بسعر العملة ، وعين لجنة من ستة وثلاثين رجلا للرقابة على أعمال الحكومة ونفقاتها . وأدان القضاة لإسرافهم على حاشيتهم ، وتراخيهم فى العمل ، فقد كان تقويمهم القضائى متأخراً عشرين سنة ، وفرض عليهم أن يفتتحوا جلساتهم عند شروق الشمس ، فى نفس الوقت الذى يبادر فيه المواطنون الأمناء بالذهاب إلى محال أعمالهم ، أو حقولهم . وهذا « القانون العظيم » الذى صدر عام ١٣٥٧ ، حرم على النبلاء أيضاً مغادرة فرنسا ، أوشن حرب خاصة بهم ، ووجه تعليماته إلى السلطات المحلية للمدن ، أن تعتقل كل نبيل ، يخرج على هذا المرسوم . وتصبح

الأرستقراطية بتنفيذه خاضعة للعامة ، والنبلاء لطبقة رجال الأعمال وعلى الملك والأمير والبارون أن يطيعوا المندوبين الذين اختارهم الشعب . وكأنه قد قدر لفرنسا أن تحصل على حكومة دستورية ، قبل الثورة بأربعة قرون .

ووقع ولى العهد هـذا القانون فى شهر مارس ولكنه بدأ يتملص منه فى أبريل . وطالب الإنجليز بفدية عن أبيه ، يؤدى الوفاء بها إلى الخراب ، وتوعدوا بالتقدم إلى باريس . وتباطأ الناس فى دفع الضرائب ، متذرعين بالقاعدة الجديدة التى تقول أنه لا يفرضها غير مجلس الطبقات . وألحت الحاجة الماسة إلى المبادرة بالدفع ، ودعا شارل هذا المجلس إلى الاجتماع ثانية فى أول فبراير عام ١٣٥٨ ، وأنقص فى الوقت نفسه سعر العملة ليزيد مورده . وكان لاتين مارسل ، التاجر الغنى ، شأن عظيم فى الثانى من فبراير إذ أسهم بنصيب كبير ، باعتباره رئيساً لنقابة التجار فى صياغة « القانون العظيم » وأتيح له أن يحكم باريس لمدة سنة ، فقاد فرقة مسلحة من المواطنين — يرتدون جميعاً قبعات بلونى المدينة الرسميين، الأزرق والأحمر — إلى القصر الملكى وأنب شارل على عدم طاعته لأوامر « القانون العظيم » ولما لم يعلن الأمير طاعته ، دفع مارسيل رجاله ، فقتلوا اثنين من الحجاب اللذين كانا يحرسان ولى العهد ، حتى انتثرت دماؤهما على الرداء الملكى .

وأخذ مجلس الطبقات يثير الفزع بهذا العنف الجرىء ، ومهما يكن من شىء فقد سبق الثورة الفرنسية بأن سن قانوناً (مايو عام ١٣٥٨) يحصر مهمة التشريع لفرنسا فى هذا المجلس ، ويفرض على الملك ألا يتصرف فى الأمور الهامة إلا بموافقة الولايات ، ففر عدد كبير من النبلاء ورجال الدين من فرنسا ، وترك كثيرون من الموظفين الإداريين مناصبهم خوفاً على حياتهم . فما كان من مارسيل إلا أن عين مكانهم جماعة من الأهالى ؛ وحاول تجار باريس أن يحكموا فرنسا فترة من الزمان . والتجأ ولى العهد مع النبلاء إلى بيكاردى ، وألف جيشاً ، ونادى أهل باريس ، أن يسلموا

إليه زعماء الثورة ، وأعد مارسيل العاصمة للدفاع ، وأحاطها بأسوار جديدة ، واحتل اللوفر ، وكان وقتذاك مقر الملك ورمزه .

وفى الوقت الذى احتلت فيه الثورة مدينة باريس ، رأى الفلاحون فى الريف ، أن الفرصة مواتية ، للثأر من سادتهم . وكان معظمهم عبيد أرض ، تفرض عليهم الضرائب لينعم سادتهم بأسباب الترف ولدفع الفدية عنهم ، وينتهبهم الجند وقطاع الطريق ، ويعذبون ليكشفوا عن مدخراتهم . ولما أهلك الطاعون عدداً عظيما منهم ، وعرضتهم الحروب للمجاعة ، ثاروا فى عنف لا حد له ، وشقوا طريقهم فى قلاع الإقطاع ، ودقوا أعناق النبلاء التى وصلت إليها خناجرهم ، ووجدوا الخلاص من جوعهم وظمئهم فى مخازنهم وأقبيتهم . وكان النبلاء يطلقون على مثال الفلاح الطيب اللقب التقليدى « جاك المغفل » ، ونفذ صبر آلاف من هؤلاء ، فاندفعوا فى أعمال وحشية ، وذبحوا سادتهم ، واغتصبوا السيدات ، وقتلوا الذرارى ، وألبسوا زوجاتهم حلى اللائى توفين .

وأرسل مارسيل ثمانمائة من رجاله لمعاونة الفلاحين أملا أن تصرف هذه الثورة الريفية ولى العهد عن مهاجمة باريس . واشتد ساعدهم ، وساروا إلى ميوكس التى التجأ إليها أميرات أورليان ونورمانديا ، وكثيرات من سيدات الطبقة الراقية ، فشاهدن حشداً من عبيد الأرض والمستأجرين يتدفق على المدينة ، واستسلمن ، معتقدات أنهم فقدن الشرف والحياة . وإذا بفرقة من الفرسان كأنها المعجزة فى بعض أساطير أرثر ، تدخل ميوكس عائدة من الحروب الصليبية وتباغت الفلاحين ، وتحصد آلافاً منهم ، وتلقى بهم أكواماً فى الجداول المجاورة فخرج النبلاء من مخابئهم ، وفرضوا الغرامات على القرى عقاباً لها . وساروا فى أنحاء الريف ، وأعملوا القتل فى عشرين ألف فلاح ، ولم يفرقوا بين ثائر وبرىء (يونيه ١٣٥٨) .

واقتربت قوات ولى العهد من باريس ، وقطعت عنها المؤن ، ويئس

مارسيل من المقاومة بجميع الوسائل ، فأهدى التاج إلى شارل السيئ ، ومهد لرجاله دخول المدينة وأنكر جان ما يلادن ، صديق مارسيل ويده اليمنى ، هذا الصنيع وعده خيانة ، فعقد اتفاقاً سرياً مع ولى العهد ، وفى الواحد والثلاثين من شهر يولية قتل جان وآخرون مارسيل بضربة فأس . فدخل ولى العهد باريس على رأس النبلاء المسلحين . وكان معقولا حذراً فى تصرفه وعكف على افتداء أبيه ، واستعادة الروح المعنوية ، والحياة الاقتصادية لفرنسا ، وانسحب الرجال الذين حاولوا أن يخلقوا سيادة برلمانية ، فى صمت وغموض . والتف النبلاء المعترفون بالجميل حول العرش ، وأصبح مجلس الطبقات أداة طيعة فى يد ملكية زادت شوكتها .

وفى نوفمبر عام ١٣٥٩ نزل إدوارد الثالث إلى البر بجيش جديد فى كاليه . وتنكب باريس ، مقدراً الأسوار الجديدة التى شيدها مارسيل ، ولكنه أخضع الريف المحيط بها من ريمز إلى شارترز بإبادة المحاصيل ، حتى اجتاحت المجاعة باريس مرة أخرى . وطلب شارل الصلح بشروط مهينة . فعلى فرنسا أن تسلم جاسكونيا وجوين إلى انجلترا بريئة من كل التزام إقطاعى عليها لملك فرنسا ، وأن تتنازل أيضاً عن بواتو وبريجور وكويرسى وسانتونج وروزج وكاليه وبونثيو وأونيس وإنجوموا وأجنوا وليموزين وبيجور وأن تدفع ، ثلاثة مليون كراون ، ليعود مليكها . وفى مقابل ذلك يتنازل ادوارد ، وجميع أعقابه ، عن كل ادعاء ، فى عرش فرنسا ، ووقعت معاهدة بريتانى هذه فى الثامن من مايو عام ١٣٦٠ ، وهكذا ابتلى ثلث فرنسا بالحكم البريطانى ، واستشاط منه غضبا . وأرسل اثنان من أبناء الملك جون وهما — دوق انجو و دوق برى — إلى انجلترا ، رهينتين على إخلاص فرنسا للمعاهدة . وعاد جون إلى باريس ، وسط قرع الأجراس ، وابتهاج النبلاء والدهماء ؛ ولما خرج الدوق انجو على كلمة الشرف ، وفر للحاق بزوجته ، عاد الملك جون إلى إنجلترا بنفسه ، ليكون رهينة فى مكان ابنه ، مناشداً الدخول

فى مفاوضات من أجل صلح أخف وطأة . فاستقبله ادوارد على أنه ضيف لا أسير ، وكرمه كل يوم على أنه زهرة من زهرات الفروسية . ومات جون فى لندن عام ١٣٦٤ ، ودفن فى كنيسة سانت بول ، أسيراً فى موته . وأصبح ولى العهد البالغ من العمر ستة وعشرين سنة ملكاً على فرنسا باسم شارل الخامس .

واستحق لقلب « الحكيم » ، الذى أسبغه شعبه عليه ، لهذا السبب وحده ، وهو أنه عرف كيف ينتصر فى المعارك ، دون أن يحرك يداً . فلقد كانت يده اليمنى ، متضخمة دائماً ، وذراعه مترهلة ، ولم يكن يستطيع أن يرفع حربة ، وقيل أن شارل السيئ دس له السم . وإذا كان قد فرض عليه أن يعيش مقيداً ، فقد أحاط نفسه بمستشارين حكماء . فأعاد تنظيم كل إدارة ، وأصلح الجهاز القضائى ، وأعاد تكوين الجيش ، وشجع الصناعة ، وثبت سعر العملة ، وأيد الأدب والفن ، وجمع فى اللوفر المكتبة الملكية ، التى زودت النهضة الفرنسية بالنصوص القديمة والترجمات ، وكانت نواة المكتبة القومية . وسلم للنبلاء الحق فى استعادة المكوس الاقطاعية ، ولكنه تخطاهم وعين — قائداً عاماً للجيوش الفرنسية — رجلا بريتانيا اسمه برتراند دى جويسكلين . وهو رجل أسمر ، أفطس الأنف ، غليظ العنق ، ضخم الرأس . ولقد ساعد الاعتقاد ، فى تفوق هذا « النسر البريتانى » على جميع القادة الإنجليز ، على تصميم الملك ، استرداد فرنسا من الحكم الإنجليزى . فأرسل عام ١٣٦٩ ، إلى ادوارد الثالث إعلاناً رسمياً بالحرب .

وكان رد الأمير الأسود ، أن أخضع ليموج ، وأعمل السيف فى ثلاثة آلاف بين رجل وامرأة وطفل ، وهذا هو مذهبه فى التربية السياسية : وثبت أنه لم يكن موفقاً فقد تحصنت كل مدينة فى طريقه ، وتزودت بالجند ، واختزنت المؤن للمقاومة الناجحة ، واضطر الأمير إلى أن يقنع ، بتخريب الريف ، وإحراق المحاصيل ، واقتلاع منازل الفلاحين الخاوية ،

ولم يشأ دى جويسكلان أن يخوض معركة ، ولكنه ناوش مؤخرة الأمير ، وأسر العلافين ، وانتظر أن تشرف القوات الإنجليزية على الموت جوعاً . وحدث ما توقعه فانسحبت ، وتقدم دى جويسكلان ، وأخذت الولايات تعلن تخلصها الواحدة بعد الأخرى من التبعية ، وبعد عامين من القيادة الممتازة ، والولاء المشترك بين القائد والملك ، طرد الإنجليز من فرنسا بأسرها باستثناء بوردو وبرست وشربر ، وكاليه ، وبلغت فرنسا لأول مرة جبال البرانس . ومات الملك وقائده فى العام نفسه (١٣٨٠) فى ذروة النصر .

٥ — الملك المجنون

١٣٨٠ — ١٤٢٢

الملكية الوراثية تشبه لعبة الميسر ، تضع المغفل المحبوب ، فى مكان الحاكم القدير ، فلقد كان شارل السادس فى الثانية عشرة من عمره عندما توفى أبوه ، فعمل أعمامه أوصياء على الملك حتى بلغ العشرين ، وسمحوا له أن ينغمس فى مجون لا يعرف المسئولية ، فى الوقت الذى سار فيه نصف أوربا ، إلى حافة الثورة . وكان صناع بروجس وعلى رؤوسهم قبعات سوداء ، قد اقتلعوا عام ١٣٥٩ دار البلدية التاريخية فى ثورة جامحة . وفى عام ١٣٦٦ ثارت الطبقات الدنيا فى بيرس ، معلنة الحرب المقدسة على الأغنياء . وفى عام ١٣٧٨ أنشأ الكيومبى فى فلورنسا ، ديكتاتورية الكادحين . وفى عام ١٣٧٩ بدأ الفلاحون الجائعون فى لانجدوك — جنوبى فرنسا — حرب عصابات ، استمرت ست سنوات ، ضد النبلاء ورجال الدين ، تحت لواء قائد أمرهم قائلا « اقتلوا جميع أصحاب الأيدى الناعمة » وثار العمال فى ستراسبورج عام ١٣٨٠ ، وفى لندن عام ١٣٨١ ، وفى كلونيا عام ١٣٩٦ . وقامت فى جنت ، حكومة ثورية من عام ١٣٧٩ إلى عام ١٣٨٢ . وتوجت ثورة من عمال مدينة روين ، بزازا قوياً وقتل الشعب فى باريس ، جباة الضرائب التابعين للملك بمطارق من الرصاص (١٣٨٢) :

وأمسك شارل السادس بأزمة الحكم فى يديه عام ١٣٨٨ ، وحكم أربع سنوات ، حكماً صالحاً ، فاستحق بذلك لقب « المحبوب» ولكنه جن فى عام ١٣٩٢ . فلم يعد يعرف زوجته ، وطلب إلى المرأة الغريبة عنه . أن تمسك عن توسلاتها . وسرعان ما انفض جميع الناس من حوله ولم يكترث به سوى أحط الخدم . ولبث خمسة أشهر لا يبدل ثيابه ، ولما روئى أخيراً أن يغتسل احتاج الأمر إلى اثنى عشر رجلا للتغلب على مقاومته ، ولبس تاج فرنسا ثلاثين سنة ، أبله يرثى له ، بينما تأهب ملك إنجليزى شاب شهم لغزو فرنسا من جديد .

ولقد أبحر هنرى الخامس من إنجلترا فى الحادى من أغسطس عام ١٤١٥ ، فى ألف وثلاثمائة سفينة ، وإحدى عشر ألف رجل . فوضعوا مراسيهم فى الرابع عشر بالقرب من هارفلير ، عند مصب نهر السين . وقاومت هارفلير ببسالة ، ولكن بلا جدوى . وسار الإنجليز ، تغمرهم العزة النصر ، ويسرع بهم داء الزرب إلى كاليه. والتقى بهم فرسان فرنسا فى اجنكورت ، بجوار كريسى (٢٥ أكتوبر) . وكأنما لم يتعلم الفرنسيون شيئاً من معركتى كريسى ، وبواتييه ، إذ ظلوا يعتمدون على الفرسان . ولم تستطع أكثر أفراسهم الحركة بسبب الأوحال ، أما الذين استطاعوا التقدم ، فقد واجهوا الأوتاد المسننة ، التى غرسها الإنجليز ، على زاوية من الأرض ، حول حملة القسى . فارتدت الخيل المتحيرة ، وحملت على جيشها ، ونزل الإنجليز على هذا الحشد المضطرب ، بالقضبان والفؤوس ، والسيوف ، وقادهم مليكهم هال ، ببسالة ، وتوتر شديد من الخوف ، وكان انتصارهم مذهلا . ويقدر المؤرخون الفرنسيون ، خسائر الإنجليز بألف وستمائة رجل ، وخسائر الفرنسيين بعشرة آلاف رجل .

وعاد هنرى إلى فرنسا عام ١٤١٧ ، وحاصر روين . وأكل المواطنون ما ادخروه من طعام ، ثم التهموا جيادهم ، وكلابهم وقططهم . وألقى بالنساء

والأطفال والطاعنين فى السن ، خارج أسوار المدينة ، توفيراً للطعام ، فبحثوا عن معبر فى خطوط الإنجليز ، فلم يسمح لهم بالمرور ، وظلوا كذلك بلا طعام ولا مأوى بين أقربائهم وأعدائهم ، فهلكوا جوعاً ، ومات خمسون ألف فرنسى من الجوع ، فى هذا الحصار الذى لم يرحم . ولما استسلمت المدينة ، كبح هنرى جماح جيشه من تقتيل الذين بقوا على قيد الحياة ، ولكنه فرض عليهم غرامة مقدارها ثلثمائة ألف كراون ، ووضعهم فى السجن حتى يتسلم حصيلة المبلغ وفى عام ١٤١٩ ، تقدم نحو باريس التى لم يبق فيها سوى ، الفساد ، والانحلال ، والتوحش ، وحرب الطبقات . وتجاوز الإذلال ما حدث عام ١٣٦٠ فقد سلمت فرنسا ، بمقتضى معاهدة ترويس (١٤٢٠) ، كل شيء حتى الشرف . وقدم شارل السادس ابنته كاترين ، زوجة لهنرى الخامس ، وتعهد بأن يورثه العرش الفرنسى ، ونقل إليه قيادة فرنسا ، ولإزالة كل التباس لم يقر ببنوة ولى العهد . ولم تدافع الملكة ايزابيل عن هذا الاتهام بالفسق فى مقابل أربعة وعشرين ألف فرنك كل سنة ، والواقع أنه لم يكن من السهل على المرأة فى البلاط الملكى ، لذلك الزمان ، أن تعرف من هو والد ابنها على التحقيق . وأنكر ولى العهد المعاهدة ، وكان يبسط نفوذه على جنوب فرنسا ، ونظم فرق جاسكونيا وأرماناياك لمواصلة الحرب . بيد أن ملك انجلترا أخذ يحكم من اللوفر .

وبعد سنتين مات هنرى الخامس بداء الزرب (الدوسنطاريا) ، فإن الميكروبات لم توقع المعاهدة ، ولما لحق به شارل السادس (١٤٢٢) توج هنرى السادس ملك انجلترا على فرنسا ، وكان دون السنة الأولى من عمره ، فحكم دوق بدفورد وصياً عليه . وكان قاسياً فى حكمه ، ولكنه عادل مثل كل إنجليزى ، يقدر له أن يحكم فرنسا . فأمن السفر بأن شنق عشرة آلاف رجل من قطاع الطريق فى سنة واحدة ، وأخذ يراقب منذ ذلك أحوال البلاد . وعاث الجنود المسرحون فى الطرق الرئيسية فسادا ، وأفزعوا حتى

المدن الكبيرة مثل باريس ، وديجون . واكتسحت الحرب ، نورمانديا بالخراب ، من الأمام ومن الخلف ، كتيار قاتل خبيث ، بل هلك ثلث سكان لا نجدوك ، وهى تعد أحسن حظاً ، وهرب الفلاحون إلى المدن ، واعتصموا بالكهوف ، أو تحصنوا فى الكنائس ، كلما اقتربت الجيوش أو أحزاب الإقطاع أو عصابات اللصوص . ولم يعد الكثيرون من الفلاحين إلى ممتلكاتهم المضطربة وإنما عاشوا بالتكفف والسرقة ، أو هلكوا من الجوع أو الطاعون . وأقفرت الكنائس ، والمزارع ومدن بأسرها وتركت للبلى . وقد كان فى باريس وحدها عام ١٤٢٢ ، أربعة وعشرون ألف بيت مقفر ؛ وثمانون ألف متسول من مجموع السكان الذين يبلغ عددهم ثلثمائة ألف نسمة . وأكل الناس لحم الكلاب وامعاءها . وملأت الطرقات صيحات الأطفال المشرفين على الموت جوعاً .

٦ ــ الحياة بين الأطلال

كانت الأخلاق ، كما يتوقع المرء فى كل إقليم يصاب بالشلل الطويل المحزن فى الاقتصاد والحكومة .ولقد ألف جيوفرى دى لاتور لاندرى ، حوالى عام ١٣٧٢ ، كتابين يرشد بهما أطفاله فى هذه الفوضى ،ولم يبق منهما غير ما وجهه إلى بناته . وهو مجلد رقيق لطيف عامر بالحب الأبوى ، مشوب بالهم على عفة غير آمنة وبخاصة ، فى زمن اقترفت فيه نساء كثيرات الخطايا بلا جزع مما أوقعهن فى فضائح مزرية . ورأى الفارس الطيب أن يقاوم هذه المغريات ، وذهب إلى أن خير وقاية هى الإكثار من الصلاة . ويعرض الكتاب لعصر ، لم يزل متشبثاً بالمشاعر المصقولة ، والحس الأخلاقى . ونحن نلتقى بعد ذلك بسبعين سنة بشخصية منكرة ، هى شخصية المارشال دى ريز أورتز ، وهو رجل غنى عظيم وسيد بريتانى . واعتاد أن يدعو الأطفال إلى قلعته . بحجة تدريبهم على الترتيل الكنسى ، ثم يقتلهم الواحد بعد الآخر ويقدمهم قرباناً للشياطين ، التى كان ينشد عندها القوى السحرية .

ولكنه قتل من أجل المتعة أيضاً و (لقد أنبئنا) أنه كان يضحك على صياح مرتليه المعذبين أو المحتضرين . واتبع هذا النهج أربع عشرة سنة ، حتى اجترأ ، والد أحد ضحاياه ، باتهامه ، فاعترف بهذه التفاصيل كلها ، وشنق عام ١٤٤٠ ولولا أنه أساء إلى دوق بريتانى ، لما اقتص منه ، ذلك لأن الرجال من طبقته قلما كانوا يقدمون إلى ساحة القضاء ، مهما كانت جرائمهم ومع ذلك ، فإن الأرستقراطية التى ينتسب إليها ، كثيراً ما أخرجت الأبطال أمثال الملك جون صاحب بوهيميا ، أوجاستون فيوبس دى فوا ، الذى أحبه فرواسارت وأثنى عليه . وفى هذه الأوحال تفتحت الأزهار الأخيرة للفروسية .

وأسهمت أخلاق الشعب فى هذا الانحلال . فأصبحت القسوة والخيانة والفساد أمراضاً متوطنة . وكان السوقى والحاكم سواء فى قبول الرشوة . وانتشر المجون ، و شكا الوزير جرسون من أن أقدس الأعياد تنفق فى لعب الورق(*) والميسر والتجديف فى الرين . وكان المحتالون والمزيفون واللصوص والصعاليك والشحاذون يسدون الطرقات بالنهار ، ويجتمعون بالليل ليستمتعوا بحصادهم ، فى باريس ، فى ساحة المعجزات ، التى سميت كذلك لأن المتسولين الذين يبدون فى مظهر المقعدين ، يظهرون هناك فجأة وكل عضو من أعضاء جسمهم فى صحة مذهلة .

وفشا اللواط ، وشاعت الدعارة ، وكاد المجون يصبح عاماً . ودعت فرقة « الآدميين » فى القرن الرابع عشر ، إلى مذهب العرى ، وظلت تمارسه علناً إلى أن منعته محاكم التفتيش . وكانت الصور الفاحشة المخلة بالآداب ، رائجة كما هى الآن ، ويروى جرسون ، أنها كانت تباع حتى فى الكنائس وأيام الأعياد الدينية . ونظم شعراء مثل ديشان قصائد غرامية

(*) ربما دخل لعب الورق إلى أوربا فى القرن الرابع عشر ، وأول رواية محققة عنه كانت عام ١٣٧٩ . ويبدو أنها جاءت عن طريق المسلمين عبر أفريقيا وأسبانيا والصليبيين . ويزعم الصينيون أنهم مارسوه مبكراً عام ١١٢٠ .

للسيدات النبيلات . ووصف نيقولا دى كليمانج كبير شماسة بابيه ، دير منطقته بأنه معبد مخصص للقيام بشعائر فينوس . وكان من المألوف أن يتخذ الملوك والأمراء ، خليلات لهم ، وكان الكثير من الزيجات الملكية — وزيجات النبلاء ينطوى على أغراض سياسية ، ولذلك لم تكن هذه الزيجات جديرة بالحب . واستمرت السيدات ، ذوات الحسب والنسب ، فى مناظرات رسمية ، حول جواز العلاقات الجنسية ، وأنشأ فيليب الجسور ، صاحب برجنديا ، فى باريس محكمة حب عام ١٤٠١ . ولقد وجدت وسط هذا الخضم من الاستهتار أو فى كنفه سيدات فضليات ، ورجال شرفاء ، ونحن نجد لمحة عابرة عن هؤلاء ، فى كتاب عجيب ألفه حوالى عام ١٣٩٣ ، رجل مجهول الاسم فى الستين من عمره ، عرف بأنه مدير باريس : « أعتقد أنه عندما يزف اثنان شريفان طيبان ، أحدهما إلى الآخر . فإن كل حب يزول . . إلا حب كل منهما للآخر . وأرى أنهما عندما يصطحبان ، يهتم كل منهما بالآخر ، أكثر من اهتمامه بغيره ، ويربط كل منهما على الآخر ويمسك به ، ولا رغبة لهما فى الحديث أو الإشارة إلا لبعضهما . . وكل متعتهما الخاصة ورغبتهما الكبرى وسرورهما الكامل ، إنما هو أن يمتع أحدهما الآخر ويطيعه » .

وأضيف إلى صور هذا العصر اضطهادات اليهود (١٣٠٦ ، ١٣٨٤ ، ١٣٩٦) والمجذومين (١٣٢١) ، ومحاكمة الحيوانات وإعدامها ، لإيذاء الناس وتسافدها معهم ، والشنق علناً ، الذى يدعو إلى حشد متطلع . وكانت تنبش القبور فى جبانة الأبرياء فى باريس ، كلما سقط لحم الميت عن عظمه ، لإفساح المجال لأموات جدد ، وتجمع العظام فى غير نظام ، فى مدافن خاصة بها ، على طول الأروقة ، التى كانت مع ذلك ، أماكن مألوفة ، للقاء العاشقين ، فأنشئت هناك الدكاكين ، ودعت البغايا الزبائن . ورسم أحد الفنانين ، مدة شهور على حائط الدير ، صورة لرقصة الموت

عام ١٤٢٤ ، تبدو الشياطين فيها وهى تدور حول نفسها مع الرجال والنساء والأطفال المسوقين فى خطوات مرحة متعاقبة إلى الجحيم . وأصبحت هذه الصورة مضموناً رمزياً لعصر يائس ، ومثلته إحدى المسرحيات فى بروجس عام ١٤٤٩ ، وصوره ديرر ، وهلبين ، وبوش فى آثارهم الفنية . وغلب التشاؤم على نصف شعر هذا العصر . وهجا ديشان الحياة فى كل جوانبها تقريباً ، وبدت الدنيا له ، كشيخ واهن جشع ، مضطرب منحل ولقد ختم كلامه بقوله « إن كل شىء سيئ السيرة » . ووافقه جرسن قائلا : « إننا نعيش فى شيخوخة الدنيا » ، وإن يوم القيامة لقريب . واعتقدت امرأة عجوز ، أن كل وخزة ألم فى أصابع قدميها ، تعلن ذهاب إحدى الأرواح إلى الجحيم ، وكان تقديرها معتدلا ، فإن الاعتقاد الشائع وقتذاك أنه لم يدخل الجنة أحد من الناس فى الثلاثين سنة الماضية .

وماذا عسى أن يصنع الدين ، فى تصدع أمة مغلوبة على أمرها ؟ لقد كان البابوات الحبيسون فى افنيون يتلقون حماية الملوك الفرنسيين ، وأوامرهم فى السنوات الأربعين الأول من حرب المائة عام ، وكانت معظم الموارد ، التى يجمعها أولئك البابوات من أوربا ، تذهب إلى هؤلاء الملوك ، تمويلا لحرب الحياه أو الموت مع بريطانيا ، واستطاعت الكنيسة أن تجمع للملكية فى إحدى عشرة سنة (١٣٤٥ — ١٣٥٥) مبلغ ٣,٣٩٢,٠٠٠ فلورن (٨٤,٨٠٠,٠٠٠دولار؟) وحاول البابوات مراراً أن يضعوا حداً للحرب ولكنهم فشلوا . وعانت الكنيسة مشقة مضنية ، من جراء الخراب الطويل الذى منيت به فرنسا قرناً من الزمان ، فأقفرت مئات الكنائس والأديرة أو خربت ، وشاركت الطبقة الدنيا من رجال الدين فيما اتسم به العصر من انحلال الأخلاق . وتجاهل الفرسان والمشاة الدين لايذكرونه إلا عند المعركة أو الوفاء ، ولابد أنهم ارتابوا ، فى العقيدة بسبب عدم اكتراث السماء ، الذى يدعو إلى الجنون . واعتصم الناس فى عصيانهم أوامر الدين

بالكنيسة والعقيدة مفزعين ، وحملوا أموالهم وهمومهم إلى مزارات العذراء تسكيناً لروعهم ، وكانوا يصابون فى القداس ، بوجد دينى ، عندما يستمعون إلى العظات المخلصة للراهب رتشارد أو القديس فنسانت فرر. وابتدعت فى بعض البيوت ، تماثيل صغيرة للعذراء تفتح بطونها بلمسة من اليد ، فينكشف الثالوث .

وكان معظم قادة الفكر للكنيسة ، فى هذا العصر ، من الفرنسيين . ولم يكن بيير دايلى واحدا من العلماء ، أصحاب الرأى فحسب ، وإنما كان من أقدر زعماء الكنيسة وأبعدهم عن الفساد ، وأحد السياسيين من رجال الاكليروس ، الذين عالجوا فى مجمع كنستانس ، الفرقة فى البابوية . وكان بين تلاميذه ، وهو مدير كلية نافار فى باريس ، شاب ، أصبح فيما بعد ، أعلم علماء الدين فى جيله . وزار جان دى جرسون الأراضى الواطئة ، فأعجب كثيراً من تصوف ريوزبرويك ، والورع الجديد عند « اخوة الحياة العادية » . فلما أصبح مديراً لجامعة باريس (١٣٩٥) ، فكر فى إدخال هذا النوع من التقوى إلى فرنسا على الرغم من نقده أنانية المذهب الصوفى وما فيه من القول بوحدة الوجود واقتنع أخواته الست بقدوته وحججه ، ولقد أنبئنا أنهن ظللن عذارى إلى نهاية حياتهن . وذم جوسن ، خرافات الدهماء ، ودجل التنجيم والسحر والطب ،ولكنه اعترف بأن الرقى ، ربما يكون لها تأثير بالتسلط على المخيلة (٧٤) . ورأى أن معرفتنا بالنجوم ، ممعنة فى النقص ، حتى إننا لا نستطيع ، أن نصور تنبؤات محددة ، بل إننا لا نستطيع أن نعين بالضبط مدى سنة شمسية ، ولا يمكننا أن نخبر عن الموضع الحقيقى للنجوم ، لأن أضواءها تتكسر ، فى سيرها إلينا ، عبر أوساط متعددة . ودعا جوسون إلى ديمقراطية مقيدة ، وإلى سيادة المجامع ، فى الكنيسة ، بيد أنه حبذ ملكية قوية فى فرنسا ، ولعل الأحوال السائدة فى بلاده تبرر تناقضه ، وهى التى كانت أحوج إلى النظام منها إلى الحرية .

وكان رجلا عظيما فى طرازه وجيله ، وكانت فضائله خاصة به ، أما أوهامه فمن عدوى عصره ، كما يجب أن يقول جيته . وتزعم الحركة التى استهدفت التخلص من البابوات المتنازعين ، وقصدت إصلاح الكنيسة ، وأسهم فى إرسال جون هس وجيروم البراغى إلى الموت .

وأخذت الطبقات العليا ، تمدح أشخاصها ، وتزين دورها ، وسط مظاهر الفاقة التى يعانيها شعبها . وارتدى أفراد العامة البسيط من السترات ، والقمصان ، والسراويل ، والأحذية ذوات الرقاب ، وقلدت الطبقات الوسطى الملوك ، على الرغم من القوانين الخاصة بالنفقات ، فارتدى أفرادها ، الأردية الطويلة ، وربما كانت قرمزية اللون أو محفوفة بالفراء ، كما ارتدى السادة النبلاء الصديريات ، والجوارب الطويلة ، والألفعة الأنيقة والقبعات الرائشة التى تمسح الأرض عند الانحناءات المهذبة ووضع بعض الرجال قروناً على أصابع نعالهم ، لتطابق ما على رؤوسهم من رموز غير جلية . وآثرت سيدات من ذوات الحسب ، القبعات المخروطية كأبراج الكنيسة ، وكن يشددن أجسامهن بسترات ضيقة وسراويل زاهية اللون ، وتنورات من الفرو ، تتدلى أطرافها على الأرض فى جلال ويظهرن صدورهن بينما يزدن من جمال وجوههن بإسدال النقاب عليها . وبدأت الأزرار تستعمل لحبك الملابس(٤٠) ، وكانت قبل ذلك مجرد حلى ، ونحن نعكس هذه الحركة الآن . وكن يتلألأن ، حتى البدينات منهن ، بالحرائر والأنسجة المذهبة والمطرزة ، والأشرطة والجواهر على الشعر وعلى الرقبة واليدين والرداء والحذاء ، وتحت هذا البريق الوقائى ، كثرت عند كل نساء الطبقة العليا تقريباً .

وظلت دور الفقراء كما كانت فى القرون السابقة ، إلا أن النوافذ من الزجاج شاعت فيها ، أما القصور الصغيرة وبيوت الأغنياء فى المدن فلم تعد سجوناً مظلمة ، كانت قصوراً مريحة حسنة التأثيث بساحات فسيحة بها

نوافير ماء ، ودرجات محواة عريضة ، وطنف معلقة ، وسقوف شديدة الانحدار تناطح السماء وتغوص فى الثلج ، وقد زودت بغرف للخدم ، ومخازن ، وغرفة للحراسة وأخرى للبواب ، وغيرها للبياضات ، ومغسل ، وقبو للخمر ومخبز ، بالإضافة إلى القاعة وغرف النوم لأسرة صاحب البيت .

وكانت بعض القصور ، كالتى يملكها بيير فوند (١٣٩٠) وشاتودن (حوالى ١٤٥٠) ارهاصاً بقلاع اللوار الملكية . وتعد دار الرأسمالى الكبير جاك كور فى بورجس ، أصون قصور ذلك العهد ، وهى عمارة كاملة لها برج قوطى من الحجر المنقوش ، وأفاريز وطنف مزخرفة ، ونوافذ على طراز عصر النهضة ، ولقد أخبرنا ، أنه قد تكلف كله حوالى ٤,٠٠٠,٠٠٠ دولار ، بحساب النقد فى أيامنا . وأثثت بالفاخر من الطنافس : مدافئ فخمة ، تدفئ على الأقل ، جانباً من الغرفة وسكانها ، ومقاعد ومناضد متينة ، دأب الصانع على نقشها بالحفر ، دون كلل ، وأرائك عليها حشيات على طول الجدران مبطنة بقماش(٥٧) مزركش ، وخزائن تحف وصواوين ضخمة تعرض الصحاف الذهبية والفضية ، تليها أكواب زجاجية أبهى منها ، وسجاجيد سميكة ، وأرضيات من البلوط المصقول أو قرميد مطلى بالميناء ، ومخادع معرشة مرتفعة وعريضة تتسع للسيد وزوجته وطفل أو اثنين . ولقد نام على هذه السرر المريحة رجال القرنين الرابع عشر والخامس عشر ونساءهما ، عراة ، ولم تكن قمصان النوم قد أصبحت ضرورة لا غنى عنها .

٤ — الآداب

ولقد واصل الرجال والنساء تأليف الكتب بين هذه الأطلال ومنها الرسائل الباقية (١٣٢٢ — ١٣٣١) التى وضعها نيقولا من ليرا ، وقاموا بإضافات محققة لفهم نصوص الكتاب المقدس ، فهدت الطريق لـ « العهد

الجديد » لأرازمس ولترجمة لوثر الألمانية . وغلبت على قصص هذا العصر ، الحكايات الغرامية الخميفة مثل مائة حكاية جديدة التى ألفها انتوان دولاسال أو قصص خيالية عن الفروسية مثل فلور وبلانشفلير . أما الكتاب الذى ألفه جيهان ذو اللحية وهو طبيب من ليبج يسمى السير جون ماندفيل فلايقل عنها خيالا ، ولقد نشر (حوالى ١٣٧٠) وصفاً لرحلاته المزعومة فى مصر وآسيا وبولنده . وادعى جون أنه زار جميع الأماكن التى وردت أسماؤها فى الأناجيل ، « الدار التى ذهبت إليها مريم العذراء للتعلم » ، والموضع الذى سخنت فيه الماء التى غسل بها إلهنا أقدام الرسل » ، والكنيسة التى فرت إليها مريم لتدر اللبن من صدرها الجليل ، وفيها عمود من الرخام ، اتكأت عليه ، ولايزال مرطباً بلبنها ، ولم تزل الأرض لينة بيضاء حيث تساقط لبنها الأمثل ، وبلغ جون ذو اللحية أوجه فى وصفه الصين ، فلم تكن فصاحة مقيدة بالعلم إلا قليلا . ولكنه كان يدنو من العلم ، بين الحين والحين ، كما هو الحال فى قوله كيف ظل أحد الناس يتجه ناحية الشرق إلى أن عاد إلى وطنه من جديد » ، مثل مستر باسبارتو فى رواية جيل فيرن . وشرب مرتين من « نبع الشباب» ، ولكنه عاد إلى أوربا كسيحاً بداء النقرس ، الذى ربما أصيب به لعدم مغادرته ليبج على الإطلاق .

ولقد ترجمت هذه الرحلات إلى مائة لغة وكان لها وقع أدبى عظيم بين الناس أواخر القرون الوسطى .

وأروع ما أنتجه الأدب الفرنسى ، فى القرن الرابع عشر فيما نعلم هو كتاب « التواريخ » الذى نظمه جان فرواسار . هذا المؤلف ولد فى فالنسيين عام ١٣٣٨ ، وعكف على نظم الشعر فى بواكير حياته ، حتى إذا بلغ الرابعة والعشرين ، عبر البحر إلى لندن ، ليضع أشعاره ، عند قدمى فيليبا أميرة هانو ، زوجة الملك ادوارد الثالث . فأصبح كاتم سرها ، ولقى أشراف الإنجليز ، وأعجب بهم إعجاباً صريحاً ، جعله غير محايد

فى تاريخه . وسرعان ما انتزعه غرامه بالرحلة ، فساقه إلى اسكتلندا ، وبردو وسافوى وإيطاليا . ولما عاد إلى هانو أصبح قسيساً وكاهن شيماى . وهناك صمم على أن يعيد تأليف كتابه نثراً ، وأن يتوسع فيه من أوله ومن آخره . ورحل مرة أخرى إلى انجلترا وفرنسا ، يجمع المواد فى مثابرة ودأب . حتى إذا عاد إلى شيماى وقف نفسه على إتمام هذا التاريخ « النبيل الممتع . . الذى ستشتد الحاجة إليه بعد وفاتى . . ليشجع كل القلوب الباسلة ، ويطلعها على مثل شريفة » . وليست هناك قصة خيالية أروع منها ، والقارئ الذى يبدأ هذه الصفحات ، المسهبة ، الألف والمائتين ، وهو ينوى أن يقفز من قمة إلى قمة ، سيجد الأودية مشوقة أيضاً ، وسيسير فى القراءة فى بهجة وأناة إلى النهاية . ولم يشغف هذا القسيس — مثله فى ذلك مثل يوليوس الثانى — بغير الحرب . وفتن بالحركة ، والشهامة والأرستقراطية ، أما العامة فلم يلجوا صفحاته إلا باعتبارهم ضحايا النزاع الذى شجر بين الأشراف . ولم يبحث فى الحوافز ، واعتمد فى ثقة بالغة على الروايات المزوقة والمنحازة ، ولم يزعم أنه يفلسف الأخبار . فقد كان إخبارياً فحسب بل أنه أعظم الإخباريين جميعاً .

وتحدد المسرحية العصر الذى تمثل فيه ، ولقد احتلت المسرحيات الدينية والأخلاقية التى عرفت باسم « المعجزة » ، كما احتلت الفواصل والهزليات المسارح المؤقتة التى تشيد فى المدن . وأخذت الموضوعات غير الدينية تزداد على الأيام واقترن المرح بالفحش فى العادة ، بيد أن الموضوعات الدينية ظلت مسيطرة ، ولم يستشعر الناس الملل قط من المناظر التى تمثل آلام المسيح . ولقد تخصصت أهم فرقة تمثيلية فى هذا العصر وهى فرقة الإخوان الباريسية التى تمثل آلام السيد المسيح فى تمثيل قصة الفترة القصيرة التى قضاها المسيح فى أورشليم . وبلغت إحدى هذه المسرحيات التى ألفها « أرنول جريبان » خمسة وثلاثين ألف سطر .

وكانت للشعر جماعاته أيضاً . فقد أنشأت تولوز عام ١٣٢٣ أكاديمية للعلم البهيج ، وعملت المباريات العامة تحت رعايتها على إحياء فن الشعراء الجوالين « التروبادور » وطابعهم . وتألفت جمعيات أدبية مماثلة فى أمين ودواى وفالنسين ، وهى التى مهدت الطريق للأكاديمية الفرنسية التى أنشأها ريشيليو . واتخذ الملوك والسراة لهم شعراء مثلما اتخذوا منشدين ومهرجين يلحقون بحاشيتهم . وضم « رينيه الطيب » دوق انجووااللورين ، وملك نابلى بالاسم فقط ، رهطاً من الشعراء والفنانين إلى بلاطه فى كل من نانسى وتاراسكون وايكس ان بروفنس ، ونافس أحسن ناظم للقوافى ، حتى لقب « بآخر التروبادور » . وبسط شارل الخامس رعايته على أوستاش ديشان ، الذى شبب بالنساء ، وتزوج ثم شهر بالزواج فى قصيدة عنوانها مرآة الزواج ، تبلغ اثنى عشر ألف بيت ونعى على عصره الشقاء والخسة :

يا عصر الرصاص ، أيها الزمن المفسود ، أيتها السماء من النحاس ،
أيتها الأرض بلا ثمر ، مجدبة لا خير فيها ،
أيها الناس الملعونون ، بكل أسى مفجع ؛ ؛
أليس من الحق أن أندبكم جميعاً ؟
لأننى لا أرى شيئاً فى عالم الغد ،
المفعم بالحزن الممعن فى الاضطراب ؛
ويشمل فى فعاله كل شر ؛
واليوم يحل زمن البلاء ؛ ؛

ونشأت كريستين دى بيزان فى باريس ، على أنها ابنة الطبيب الإيطالى لشارل الخامس ، فلما ترملت كان عليها أن تعول ثلاثة أطفال وثلاثة أقارب فوفقت إلى ذلك بأعجوبة بقرض الشعر الرائع وتأليف التاريخ الوطنى ، وهى تستحق منا تحية عابرة بوصفها أول امرأة فى أوربا الغربية استطاعت أن تعيش بقلمها . أما ألين شارتيه فكان أسعد حظاً ، فإن قصائده فى الحب

مثل قصيدته « الفاتنة بلا رحمة » ذات الإيقاع الحسن التى زجر فيها النساء على إخفاء مفاتنهن — قد أسرت الطبقة الأرستقراطية ، حتى قيل أن مارجريت أميرة اسكتلندا ، التى أصبحت ملكة فرنسا بعد ذلك ، قبلت شفتى الشاعر وهو نائم على إحدى الأرائك . وسرد أتين باسكييه ، هذه الأسطورة ، فى قصص خلاب ، بعد مرور قرن من الزمان . .

لقد عجب الكثيرون من هذا الصنيع ولكنى أقول الحقيقة فإننى أقرر أن الطبيعة ، قد وضعت روحاً جميلة فى جسم ممعن فى القبح — وهنا قالت السيدة أنهم يجب ألا يعجبوا من هذا الغموض ، فليس الرجل ، هو الذى رغبت فى تقبيله ولكننى قبلت الشفتين اللتين نطقتا بهذه الكلمات الذهبية » .

ولم يكن مقدراً على أرق شعراء فرنسا فى هذا العصر أن يقول الشعر ، إذ كان ابن أخى شارل السادس ووالد لويس الثانى عشر . ولكن شارل دوق أورليان أسر فى أجنكور ، وأمضى خمساً وعشرين سنة (١٤١٥ — ١٤٤٠) معتقلا اعتقالا ليناً بانجلترا . فغمر الهم قلبه وتأسى بنظم الشعر الرقيق فى الغزل ومحنة فرنسا . ولبثت فرنسا بأسرها تنشد أغنيتين فى الربيع :

لقد بدل العام وشاحه البارد .
وشاح الريح والمطر والهواء المرير ،
وسار مؤتزراً حلة من الذهب .
حلة من الشمس الضاحكة والفصل الجميل ،
وما من طائر أووحش من وحوش الغابة أو الفلاة
إلا ويعلن بصياحه أوغنائه ،
ان العام يطوى وشاحه البارد .

بل ان انجلترا كان فيها فتيات جميلات ، فنسى شارل أحزانه عندما مر به الحب الهادئ :

يا إلهى . . ما أجمل أن أراها ،

يا إلهى الرحيم الودود العادل . .
إن كل فضيلة من الفضائل المختارة التى فيها
لجديرة بالمديح النادر .
ومن ذا الذى يمل جمالها ،
النضر كل يوم نضرة لا تضارع؟
يا إلهى . . ما أجمل أن أراها ،
يا إلهى الرحيم الودود العادل . .

وسمح له آخر الأمر أن يعود إلى فرنسا ، فجعل من قلعته فى بلوا ، موئلا بهيجاً للأدب والفن ، حيث استقبل فيللون على الرغم من فقره وجرائمه ، ولما بلغ شارل من العمر أرذله ، ولم يعد قادراً على المساهمة فى مرح أصدقائه الشبان ، نظم اعتذاره إليهم فى أبيات رقيقة ، تصلح أن تكتب على قبره :

حى بالنيابة عنى جميع الصحاب
الذين تلقاهم الآن فى ألفة ،
وقل كم أكون سعيداً
إذا أصبحت واحداً من ثلتهم لو كان ذلك ممكناً ،
فإن الشيخوخة تقتلنى .
ولقد تحكم الشباب فى حياتى مرحاً فى زمن طال به العهد
ولكنه الآن ولى وذهب .
وكنت عاشقاً ، ولن يقدر لى أكثر من ذلك أبداً ،
ولقد عشت فى باريس حياة ممعنة فى الحرية .
وداعا فلن أشهد بعد ذلك أياماً طيبة . .
حى بالنيابة عنى جميع الصحاب .

٨ — الفن

كان فنانو فرنسا لهذا العهد أكثر تفوقاً من شعرائها ، ولكنهم شقوا أيضاً بإمحالها . ولم تقدر لهم هناك رعاية كريمة يعتمدون عليها فى المدينة أو الكنيسة أوعند الملك . « والولايات التى عبرت عن كرامة طوائفها ، بالمعابد الضخام ، وتسامت بهذا التعبير إلى عقيدة لا يرقى الشك إليها ، أضعفها وقضى عليها ازدياد سلطان الملك إلى جانب التوسع فى الاقتصاد من المجال المحلى إلى المجال القومى ولم تعد الكنيسة الفرنسية تمول أوتلهم ، مثل المبانى الهائلة ، التى ارتفعت على أرض فرنسا فى القرنين الثانى عشر والثالث عشر . « ولقد انحطت العقيدة ، كما اضمحلت الثروة ، وتبدد الأمل الذى دفع فى هذه القرون إلى الحروب الصليبية ، وتشييد الكتدرائيات فى وقت واحد أى العمل والصلاة التى تحث عليه — فقد نشوته المنتجة وكان الأمر يحتاج فى العمارة إلى طاقة أكبر من طاقة القرن الرابع عشر ، ليتم ما بدأه عصر أشد فتوة . وعلى الرغم من هذا فقد أنجز جان رافى كاتدرائية نوتردام فى باريس (١٣٥١) ، وأضافت « رون » كنيسة صغيرة للعذراء عام (١٣٠٢) إلى كاتدرائية سبق أن أنشئت باسمها ، وشيدت بواتييه لكادرائيتها عام (١٣٧٩) واجهتها الغربية الشامخة .

وأخذ الطراز المشع للتخطيط القومى (١٢٧٥) ، يسلم قياده شيئاً فشيئاً ، إلى طراز قوطى هندسى ، يعتمد على أشكال اقليدية بدلا من الخطوط المشعة . وعلى هذا النحو شيدت بوردو ، كاتدرائيتها (١٣٢٠ — ١٣٢٥) وأقامت كان عام (١٣٠٨) برجاً رشيقاً ، مستدق الطرف ، على كنيسة سانت بيير ، ولقد تحطم هذا البرج فى الحرب العالمية الثانية ، وزودت اكسير كاتدرائيتها بصحن جديد عام (١٣٥٥) ، وأضافت كوتانس عام (١٣٧١ — ١٣٨٦) وأمين عام (١٣٧٥) ، كنائس صغيرة

رائعة إلى مزاريهما التاريخيين ، وأكدت رون مجدها المعمارى باقامة الكنيسة المجيدة لسانت أوين (١٣١٨ — ١٥٤٥) :

ولما تصورت فرنسا أنها منتصرة ، فى الربع الأخير من القرن الرابع عشر ، أظهر معماريوها طرازاً قوطياً جديداً ، مرحاً فى ، وحه ، مسرفاً فى تفاصيل النقوش المحفورة ، معقداً مبهرجاً فى تفريقاته الزخرفية ، مسرفاً إلى حد غير معقول فى الزينة . وأصبح العقد القوطى ، أو العقد المدبب لقوس متصل ، وقتذاك عقداً مخروطياً لقوس مقلوب ، كلسان اللهب الذى أعطى هذا الطراز اسمه (المشع) . ولم تعد تستعمل تيجان العمد ، وتلولبت العمد أو خططت ، وأفرط فى حفر أماكن المرتل ، وحجبت بستائر حديدية من شرائط دقيقة ، وأصبحت الزخارف المدلاة كأعمدة الثلج الجامد المتدلى من سقوف المغاور والكهوف ، وصارت القباب تيها من الأضلاع التى تتراوح بين الظهور والخفاء ، وابتعدت فواصل النوافذ ، عن الأشكال الهندسية القديمة الجامدة ، وفاضت فى رشاقة فاتنة وتعمد لا يوصف ، وبدت الأبراج وكأنها شيدت من الزخرف ، واختفى البناء خلف الزينة . وكانت غرة هذا الطراز الجديد فى الكنيسة الصغيرة التى شيدت باسم القديس يوحنا المعمدان عام (١٣٧٥) فى كاتدرائية أمين ، وما إن جاء عام ١٤٢٥ ، حتى كان هذا الطراز قد غلب على فرنسا ، وبدأ عام ١٤٣٦ ، يحقق إحدى معجزاته الرقيقة ، وهى كنيسة سان ماكلو فى رون . وربما ساعد ، على انتصار الطراز المشع فى النصف الأول من من القرن الخامس عشر ، استرداد الثقة وبعث الروح العسكرية على يد جان دارك وشارل السابع ، ونمو الثروة التجارية ، كما يمثلها جان كير ، ونزوع الطبقة البورجوازية ، الصاعدة إلى الزينة المترفة . وظل الطراز القوطى فى هذا الشكل النسوى ، إلى أن أعاد الملوك والنبلاء الفرنسيون من حروبهم فى إيطاليا ، أفكار عصر النهضة المعمارية الكلاسية :

ويحمل نمو العمارة المدنية فى أعطافه ، ظهور الطابع الدنيوى لهذا العصر . ورأى الملوك والأمراء ، أن هناك ما يكفى من الكنائس ، فابتنوا لأنفسهم قصوراً ، تكون فتنة للشعب ، ومأوى لحظياتهم ، وأنفق الأغنياء من نواب المقاطعات ، ثروات طائلة على دورهم وأعلنت المجالس البلدية عن غناها بتشييد دور البلدية الفخمة ، وصممت بعض المستشفيات مثل مستشفى برن تصميما جميلا طليقاً لابد أنه قد أسبغ الصحة على المرضى . وجمع البابوات والكرادلة ، حشداً منوعاً من الفنانين ، وعضدوهم ، بيد أن بنائى فرنسا ورساميها ومثاليها ، كانوا يلتفون حول نبيل أو ملك . وشيد شارل الخامس قصر فنسن عام (١٣٦٤ — ١٣٧٣) ، والباستيل عام (١٣٦٩) ، واستقدم الفنان واسع الأفق أندريه بونيفو ليحفر صوراً لفيليب السادس ، وجون الثانى وشارل نفسه للمقابر الملكية ، المصففة ، الرائعة ، التى تزحم ممشى كنيسة سانت دينيس وسردابها عام (١٣٦٤) . وشيد لويس أمير أورليانز قصر بيرفوند ، وكان جون دوق برى ، على الرغم من قسوته على الفلاحين ، واحداً من أعظم رعاة الفنون فى التاريخ .

وهو الذى صور له بونيفيه عام ١٤٠٢ كتاب المزامير . وهو ليس إلا واحداً من سلسلة المخطوطات المزوقة ، الموضوعة بالقرب من القمة ، فيما يمكن أن يسمى غرفة الموسيقى ، فى فنون الرسم . ولهذا السيد الفطن نفسه ، صور جاك دى هسدن « الساعات الصغيرة » و« الساعات الجميلة » و « الساعات الكبيرة » ، وهى تمثل كتب « الساعات » للصلوات اليومية الكنسية . وأخرج الإخوان بل جيهانيكان وهرمان مالويل من لمبورج ، الساعات الغنية (١٤١٦) وهى خمس وستون منمنمة تصور الحياة فى فرنسا ومناظر منها : النبلاء يصيدون ، والفلاحون يعملون ، ومنظر ريفى يضفى عليه الجليد صفاء . وتعد هذه الساعات الغنية المستورة الآن ، حتى عن أعين السائحين ، فى متحف كونديه فى شانتلى ، والمنمنمات التى صورت للملك الطيب ، رينية صاحب انجو آخر انتصارات فن التزويق ، ذلك لأن هذا الفن

قد نافسه فى القرن الخامس عشر الحفر على الخشب وانتشار المدارس الموفقة فى الرسم على الجدران واللوحات فى فونتنبلووأمين وبورجس ، وتورومولان وافنيون وديجون إذا لم تتحدث عن أساتذة الفن الذين كانوا يعملون لدوق برجنديا .. وأدخل بونيفيه وفان ايكس ، طرز التصوير الفلمنكية إلى فرنسا ، وكذلك عن طريق سيمون مارتينى وغيره من الإيطاليين فى افنيون ، وعن طريق الدولة الإنجيفية فى نابولى عام (١٣٦٨ — ١٤٣٥) : ولقد أثر الفن الإيطالى فى الفرنسى ، قبل أن تغزو الجيوش الفرنسية ايطاليا بزمن طويل . حتى إذا جاء عام ١٤٥٠ ، كان الفن الفرنسى ، قد نهض على قدميه ، وسجل انتسابه إلى هذا العصر بصورة الورع لفيلينوف وهى بلا توقيع ، وتوجد الآن فى اللوفر.

ويعد جان فوكيه ، أول شخصية واضحة ، فى فن التصوير الفرنسى ، ولقد ولد فى تورعام (١٤١٦) ، وتعلم سبع سنوات فى إيطاليا (١٤٤٠ — ١٤٤٧) ، وعاد إلى فرنسا ، وهو متحيز للمهاد المعمارية الكلاسية التى أصبحت فى القرن السابع عشر ، هوسا ، على يد نيكولاس بوسان وكلود لورين . ومهما يكن من شىء ، فقد رسم صوراً متعددة لأشخاص وهى تكشف بقوة عن مقومات شخصياتهم : مثل جوفينال كبير أساقفة أورسان وحاكم فرنسا — وهو عبوس حازم ، وليس ممعناً فى التقوى إلى الحد الذى جعله غير صالح للحكم ، وأتين شيفالييه وهو القائم على خزانة المملكة — رجل مهموم ، منزعج من استحالة الحصول على المال بالسرعة ، التى تنفقه بها الحكومة ، وشارل السابع نفسه ، بعد أن جعلت منه أنييه سورل رجلا ، وأنييـــه فى اللحم الوردى ، تحول على يد فوكيه إلى عذراء هادئة سنية بعينين خفيفتين وصدر بارز وزوق جان لشفالييه ، كتاب الصلوات ، وبدد ملل إقامة الشعائر بمناظر ، نضرة ، من وادى اللوار . وتحتفظ رصيعة مطلية بالميناء فى اللوفر ، بصورة فوكيه كما رأى نفسه —

صورة ليس لها مثل رفائيل سيماء الأمارة ، يصعد إلى أعلى ، وإنما صانع بالفرشاة ، فى رداء العمل ، حازم حي ، مهموم ومصمم ، وعلى جبينه سمة قرن كامل من الفقر . ومع ذلك ، فقد مضت حياته ، بلا ملمات من حكم ملك إلى آخر ، وارتقى ، إلى أن أصبح آخر الأمر « مصور الملك » لويس الحادى عشر وبعد جهد السنين يأتى النجاح ، وسرعان ما يأتى الموت بعد ذلك .

٩ — جان دارك ١٤١٢ — ١٤٣١

فى عام ١٤٢٢ نادى ابن شارل السادس عشر الذى تبرأ منه أبوه ، بنفسه ملكاً باسم شارل السابع . ونظرت فرنسا فى عزلتها ، إليه لينقذها ، ثم ران عليها يأس عظيم وكان هذا الشاب الجبان ، فاتر الهمة عديم الاكتراث فى العشرين من عمره ، لم يصدق أنه يستحق الملك الذى أعلنه ، وربما شارك الفرنسيين شكوكهم فى شرعية مولده . وتظهر الصورة التى رسمها فوكيه له ، وجهاً حزيناً ساذجاً ، تحت عينيه جيوب ، وأنف ممتد . وكان متديناً إلى درجة الفزع ، يسمع ثلاث صلوات كل يوم ، ولا يترك ساعة من ساعات الكنيسة تمر دون أن يتلو ، مايناسبها من صلاة ، وكان يخلو بين هذه الأوقات ، إلى رتل طويل من الخطايا ، وأنجب اثنى عشر مولوداً فرضهم على زوجته الفاضلة . ورهن جواهره ، ومعظم الملابس التى على كاهله ، ليمول مقاومة بلاده لإنجلترا ، ولكنه لم يكن مفطوراً على الحرب ، فترك الصراع لوزرائه وقواده . ولم يكن أحد منهم متحمساً أو متيقظاً ، وتشاجر بعضهم مع بعض فى حقد — اللهم إلا جان دينو الأمين ، والإبن غير الشرعى للويس ، دوق اورليان . ولما تحرك الإنجليز جنوباً لمحاصرة تلك المدينة عام (١٤٢٨) ، لم يتفقوا على خطة للوقوف فى وجههم ، وكانت الفوضى ، طابع ذلك الزمان ، وتقع اورليان ، على حنية ، فى اللوار ، فإن سقطت ، انضم الجنوب بأسره ، وهو المتردد فى الولاء وقتذاك لشارل السابع

إلى الشمال ، ليجعل من فرنسا مستعمرة إنجليزية . وأخذ الشمال والجنوب معاً يراقبان الحصار ، ويصليان من أجل حدوث معجزة .

وأخذت دمريمى القرية البعيدة ، الهاجعة إلى جوار الموز على حدود فرنسا الشرقية تراقب الصراع بعاطفة دينية وطنية . وكان الفلاحون هناك من أبناء القرون الوسطى فى إيمانهم وشعورهم ، فى العقيدة والشعور ، يعيشون من الطبيعة ، ولكن فيما هو فوق الطبيعى ، وكانوا واثقين من أن الأرواح تعيش فى الهواء المحيط بهم ، وأقسم كثير من النساء ، أنهن رأينها وتحدثن معها — واعتقد الرجال مثلما اعتقد النساء ، وهو ماكان سائداً فى أنحاء الريف الفرنسى ، أن الإنجليز شياطين ، تخفى أذنابها ، فى اذيال معاطفها وراجت نبوءة فى القرية ، وهى أن الله سيرسل فى يوم من الأيام ، فتاة عذراء ، تنقذ فرنسا من هؤلاء الشياطين ، وتضع حداً لحكم الحرب الشيطانية . وهمست زوجة عمدة دمريمى ، بهذه الآمال إلى جان ابنتها فى العهاد .

وكان أبو جان واسمه جاك دارك ، فلاحاً ناجحاً ، ولعله لم يلق بالا ، إلى مثل هذه الحكايات . وقد عرفت جان بالتقوى ، بين هؤلاء القوم الأتقياء ، وأغرمت بالذهاب إلى الكنيسة ، وكانت تعترف بانتظام وحرارة وشغلت نفسها بجمع الصدقات للكنيسة وألفت الدواجن والطيور ، فى حديقتها الصغيرة ، أن تأكل من يدها . واتفق لها فى أحد الأيام ، أن تخيلت ، وهى صائمة ، أنها رأت ، نوراً عجيباً فوق رأسها ، وأنها سمعت صوتاً يهتف بها « يا جان كونى طفلة طيبة مطيعة . واذهبى دائماً إلى الكنيسة » . وكانت وقتذاك (١٤٢٤) فى الثالثة عشرة من عمرها ، وربما أسبغت عليها التغيرات فى وظائف أعضائها ، مسحة صوفية فى هذه المرحلة الممعنة فى الانفعال من مراحل حياتها . وتحدثت « هواتفها » — كما نعتت هذه الرؤى — بأحاديث كثيرة طوال السنوات الخمس بعد ذلك ، حتى خيل إليها آخر الأمر ، أن

الملك ميكائيل نفسه يأمرها : « اذهبي لإغاثة ملك فرنسا ، ولسوف تستعيدين ملكه . . اذهبي إلى السيد بودريكورت ، القائد فى فوكولور، وسيقودك إلى الملك » . وقال الهاتف فى مرة أخرى : « يا ابنة الله ، ستقودين الدوفان إلى ريمز ، حتى يستطيع هناك أن يحصل على رسامته وتتويجه » . ذلك لأن فرنسا كانت تشك فى حق شارل الإلهى فى الحكم ، فلم يحصل على رسامته من الكنيسة ، ولكن إذا صب الزيت المقدس على رأسه ، فإن فرنسا تقف من ورائه صفاً واحداً وفى ذلك إنقاذها.

وبعد تردد طويل مزعج أطلعت أبويها على رؤياها . فذهل أبوها عندما فكر فى فتاة بريئة تضطلع بمثل هذه الرسالة الخيالية ، قال إنه لن يسمح لها بذلك وتوعدها بأن يغرقها بيديه . وأراد أن يمعن فى تقييدها فأقنع ، شاباً قروياً ، أن يصرح بأنها وعدته بأن تمنحه يدها بالزواج ، فأنكرت قوله ، وفرت بعذرتها التى نذرتها لقديسيها ، ولكى تطع أوامرهم ، إلى عم لها ، وألحت عليه ، أن يأخذها إلى فوكولير عام (١٤٢٩) . وهناك نصح القائد بودريكور ، عمها ، أن يصفع الفتاة ، البالغة من العمر سبع عشرة سنة ، وأن يعيدها إلى والديها ، ولكن جان لما شقت طريقها ، ومثلت أمامه ، وصرحت بجنان ثابت ، أنها مبعوثة من الله لمساعدة الملك شارل على إنقاذ أورليان ، ذاب القائد المتعاظم ، فأرسل إلى شينون ، وهو يفكر فى أن بالفتاة مساً من الشياطين ، يطلب إذن الملك بإقامتها . وجاء الإذن الملكى ، وأعطى بودريكور الفتاة سيفاً ، وابتاع لها أهل فوكولير ، جوادا ، ووافق ستة من الجنود أن يدلوها على الطريق ، فى الرحلة الطويلة المحفوفة بالمخاطر ، عبر فرنسا إلى شينون . وتسربلت بزى الرجال العسكرى — ، سترة وصدار وجوربين طويلين وطماق ومهمازين — وقصت شعرها كالفتيان — ولعلها فعلت ذلك منعاً لتقحم الرجال ، وتيسيراً لركوب الجواد اكتساباً لموافقة القواد والجند . وعبرت فى رصانة وثقة مدنا ، اختلفت فى النظر إليها بين الخوف منها باعتبارها ساحرة ، أو إجلالها باعتبارها قديسة .

وبعد أن قطعت فى رحلتها أربعمائة وخمسين ميلا ، فى أحد عشر يوماً ، بلغت الملك ومجلسه . ومع أن حلته البسيطة ، لم تكن تنبىء عن أبهة الملك ، فقد عرفته جان (كما أنبئنا — وكيف ترفع الأسطورة يدها من تاريخ هذه الفتاة) لفورها ، وحيته بأدب قائلة . . «أمدك الله بطول العمر ، أيها الدوفان الكريم . . . ان إسمى جان لا بوسل ان وإله السموات يتحدث إليك بوساطتى ، وهو يقول انك سترسم وتتوج فى ريمز ، وتكون وكيلا لملك السموات ، الذى هو ملك فرنسا» . وقال أحد القساوسة وهو الذى أصبح راعى كنيسة العذراء ، فيما بعد ، إنها أكدت للملك ، فى مجلس خاص ، شرعية مولده . وظن بعضهم ، أنها قبلت فى أول لقاء لها مع شارل ، أن يكون رجال الدين أصحاب الحق فى تفسير هواتفها ، وأنها اتبعت قيادتهم فى حديثها مع الملك ، وعن طريقها يحل الأساقفة ، محل القادة فى صياغة السياسة الملكية . ولما كان شارل لايزال مرتابا فى أمرها ، فقد أرسلها إلى بواتييه ليمتحنها العلماء هناك . فلم يجدوا فيها شراً وكلفوا بعض النسوة أن يتأكدن من عذرتها ، واطمأنوا من هذه الناحية الحساسة أيضاً . لأنهم اعتقدوا أن للعذارى ، مثلهن فى ذلك مثل مريم العذراء بعض المزايا باعتبارهن وسائل الله ومبعوثاته .

وكان دينوا ، قد أكد للحامية فى أورليان ، ان الله سيغيثهم قريباً بشخص ما . فلما سمع عن جان ، كان بين مصدق ومكذب لآماله ، ورجا البلاط ، ان يرسلوها إليه توا . فوافقوا ، وأعطوها حصانا أسحم وأحاطوها بدرع أبيض ، ووضعوا فى يدها علما أبيض ، مزيناً بزهرة فرنسا ، وأرسلوها إلى دينوا ، مزودة بجمع من الحرس ، يحملون الزاد للمحصورين : ولم يكن من العسير ، أن تجد منفذاً إلى المدينة (٢٩ ابريل عام ١٤٢٩) ، فلم يكن الإنجليز ، يحدقون بها إحداقاً تاماً ، ولكنهم قسموا رجالهم الذين يتراوحون بين ألفين وثلاثة آلاف (أى أقل من حامية أورليان) على اثنى عشر

حصناً ، فى أماكن استراتيجية بالضواحى . وحيا أهل أورليان جان ، باعتبارها مريم العذراء مجسدة ، واتبعوها مؤمنين بها حتى إلى الأماكن المحفوفة بالمخاطر ، وصحبوها إلى الكنيسة ، يصلون إذا صلت ، ويبكون إذا بكت . وترك الجند ، حظياتهم بأمرها ، وجاهدوا ، لكى يثبتوا تطهرهم ، ووجد أحد قادتهم وهو لاهير ، أن ذلك مستحيلا ، وجاءته فتوى من جان ، أن يقسم على عصا قيادته . وهذا المغامر الجاسكونى ، الذى نطق بالدعاء المشهور « إلهى مولاى أتوسل إليك أن تعمل من أجل لاهير ، ما يعمله هو من أجلك لو أنك كنت القائد ، وكان لاهير هو الله . »

وأرسلت جان كتابا إلى تالبوت ، القائد الانجليزى ، تقترح عليه ، أن يتحد الجيشان وأن يكونوا إخوة ، وأن يتقدموا إلى فلسطين ، لتخليص الأرض المقدسة من الترك ، ورأى تالبوت ، أن هذا يخرج عن نطاق مهمته . وبعد ذلك بأيام قلائل ، تجاوز فريق من الحامية الأسوار ، دون أن يعلموا دينوا أو جان وهاجموا حصناً بريطانياً . فأبلى الإنجليز بلاءاً حسناً ، وتقهقر ، الفرنسيون ، ولكن دينوا وجان ، سمعا بهذه الفتنة ، فركبا جواديهما واستحثا رجالها أن يعودوا إلى الهجوم من جديد ، ونجح الهجوم ، وترك الإنجليز مكانهم وفى اليوم التالى هاجم الفرنسيون حصنين آخرين ، واستولوا عليهما ، وكانت العذراء وسط المعمعة . وفى الصدام الثانى ، اخترق سهم كتفها ، فضمد الجرح وعادت إلى المعركة . وأخذ مدفع جويوم ديزى ، القوى يصب فى الوقت نفسه على قلعة الإنجليز فى ليه توريل ، قذائف ، تزن كل منها مائة وعشرين رطلا . وأعفيت جان من رؤية الفرنسيين المنتصرين وهم يذبحون خمسمائة من الإنجليز عندما سقط هذا المعقل الحصين . وانتهى تالبوت إلى أن قواته ، لاتفى بالحصار ، فأمرها بالانسحاب شمالا (٨ مايو). وابتهجت فرنسا بأسرها ، ورأت فى « عذراء أورليان » إرادة الله ولكن الإنجليز ، قالوا إنها ساحرة ، وأقسموا أن يأخذوها حية أو ميتة .

وفى اليوم التالى لانتصارها خرجت جان لتلقى الملك ، المتقدم من شينون ، فحياها بقبلة ، ووافق على خطتها ، فى السير عبر فرنسا إلى ريمز ، وإن كان معنى ذلك المرور بأرض معادية . وقابل جيشه قوات إنجليزية فى مونج وبوجنسى وباتاى ، وأحرز انتصارات حاسمة ، لطخوها بمذابح انتقامية ، أفزعت العذراء . ولما رأت جندياً فرنسياً ، يذبح أسيراً إنجليزياً ، ترجلت عن جوادها ، وأمسكت برأس الرجل المحتضر فى يديها ، وواسته ، وأرسلت تطلب كاهناً ، يعترف له . وفى الخامس عشر من يوليو ، دخل الملك ريمز ، وفى السابع عشر ، رسم وتوج فى احتفالات رائعة فى الكاتدرائية العظيمة . ورأى جاك دارك ، وهو عائد من دومرى ابنته ، فى زى الرجال ، تمتطى صهوة جوادها فى أبهة عبر عاصمة فرنسا الروحية ، فلم يدع الفرصة تفوته ، وضمن بوساطتها ، إعفاء قريته من الضرائب . واعترت جان نوبة عابرة ، اعتقدت فيها أن مهمتها ، قد انتهت ، وفكرت ، « ان رضى الله أن أرحل وأرعى الأغنام مع أختى وأخى » .

ولكن حمى القتال مازجت دماءها . ومع أن نصف فرنسا اعتقد أنها ملهمة ومقدسة ، فقد كادت تنسى الآن أنها قديسة ، وأصبحت محاربة . كانت حازمة مع جنودها ، تؤنبهم فى حب ، وجردتهم من وسائل التسلية التى يعدها جميع الجنود حقاً لهم ، ولما رأت بغيتين فى صحبتهم ، جردت سيفها من غمده ، وضربت إحداهما بقوة ، تحطم معها السيف وماتت المرأة ، وتبعت الملك وجيشه فى غارة على باريس ، وكان الإنجليز لا يزالون يحتلونها ، وكانت فى العربة عند تطهير الخندق الأول ، وما إن اقتربت من الخندق الثانى ، حتى أصيبت بسهم فى فخذها ، ولكنها ظلت تحث الجنود . وفشل هجومهم ، وبلغت إصاباتهم ألفاً وخمسمائة ، فلعنوها لأنها ظنت أن الصلاة قد تسكت مدفعاً ، ولم يكن ذلك من تجاريبهم . واتهمها بعض الفرنسيات اللائى كن يتسقطن أول إخفاق لها بأنها قادت هجوماً يوم ميلاد العذراء

(٨ سبتمبر ١٤٢٩) . فانسحبت بفرقتها إلى كومبين ، ولما حاصرها هناك البرغنديون المتحالفون مع الإنجليز ، قادت هجوماً ببسالة ، ولكنه صد ، وكانت آخر من انسحب ، ووجدت أبواب المدينة قد أوصدت قبل أن تبلغها . فسحبت عن جوادها ، وأخذت أسيرة إلى جون صاحب لكسمبورج (٢٤ مايو ١٤٣٠) وكرمها هذا السيد وأسكنها فى قلاعه فى بوليوو بوريفوار .

وأوقعه حسن حظه فى مأزق خطير . فإن مولاه ، فيليب الطيب صاحب برجنديا ، طالب بالغنيمة الثمينة ، وحث الإنجليز ، سيرجون على أن يسلم الفتاة إليهم ، آملين أن يؤدى إعدامها العلنى إلى تحطيم ذلك السحر الذى طالما قوى من عزائم الفرنسيين ، وأرسلوا بيير كوشون ، أسقف بوڤيه ، الذى طرد من كنيسته لمناصرته الإنجليز ، إلى فيليب بالسلطة والمال ليتفاوض على نقل العذراء إلى السلطات الإنجليزية ، ووعدوه إن وفق فى مهمته ، أن ينصبوه كبيراً لأساقفة روين . وكان دوق بدفورد ، يدير جامعة باريس ، فناشد علماءها ، أن ينصحوا فيليب بأن يسلم جان . فقد تكون ساحرة خارجة على الدين ، إلى كوشون باعتباره رئيس الكهنوت فى المنطقة التى أسرت فيها . ولما رفضت هذه المطالب ، قدم كوشون إلى فيليب وجون رشوة مقدارها عشرة آلاف كراون من الذهب . ولم تنجح هذه المحاولة أيضاً ، ففرضت الحكومة الإنجليزية حظراً على جميع الصادرات إلى الأراضى الواطئة . فواجهت فلاندرز الإفلاس ، وهى أغنى مصدر لموارد الدوق . ووافق جون على الرغم من توسلات زوجته ، كما وافق فيليب على الرغم من لقب « الطيب » الذى يتسمى به ، على قبول الرشوة آخر الأمر ، فأسلما العذراء إلى كوشون ، الذى أخذها إلى روين . ومع أنها كانت من الناحية الرسمية هناك ، من سجناء محكمة التفتيش ، إلا أنها وضعت تحت الحراسة الإنجليزية فى برج قلعة ، يحتلها ايرل ورويك بصفته حاكم روين . ووضعت الأغلال فى قدميها ، ولفوا وسطها بقيد وربطت إلى جذع من الخشب .

وبدأت محاكمتها فى الواحد والعشرين من فبراير عام ١٤٣١ ، واستمرت إلى اليوم الثلاثين من مايو . ورأس كوشون المحاكمة ، وقام أحد كهانه مدعياً عاماً . ومثل راهب دومينيكى محكمة التفتيش ، وأضيف حوالى أربعين من علماء الدين والشريعة إلى هيئة المحكمة . وكانت التهمة هى الهرطقة : وأفتت الكنيسة بأن ادعاء تلقى الوحى الإلهى هرطقة عقوبتها الإعدام ، وذلك لكى تقمع الفريق المفزع من المتجرين بالسحر ، الذين ابتليت بهم أوربا . فأحرقت الساحرات ، لادعائهن القوى الخارقة ، والرأى الشائع ، بين رجال الكنيسة والمدنيين ، أن الذين يدعون مثل هذا الادعاء ، يكونون قد حصلوا فى الواقع على القوى الخارقة من الشيطان . ويبدو أن بعض قضاة جان ، كانوا يعتقدون هذا فى قضيتها ، وفى رأيهم أن رفضها الاعتراف بأن سلطة الكنيسة باعتبارها ، وكيل الله على الأرض ، تنسخ أوامر هواتفها ، يثبت أنها ساحرة . ثم أخذ أغلبية أعضاء المحكمة بهذا الرأى ، ومع ذلك فقد تأثروا من بساطتها الصريحة فى إجاباتها ، وبتقواها وطهارتها الواضحتين ، فقد كانوا بشراً ، ويبدو أنهم شعروا بقدر عظيم من الشفقة نحو هذه الفتاة التى كانت فى التاسعة عشرة من عمرها ، وكان من الواضح أنها ضحية الخوف من الإنجليز . قال ووروك بصراحة الجندى « إن ملك انجلترا قد دفع فيها ثمناً باهظاً ، وهو لن يتركها مهما يكن ، تموت ميتة طبيعية » . واقترح بعض أعضاء المحكمة أن الأمر ينبغى أن يعرض على البابا — وذلك يخلصها ويخلص المحكمة من السلطة الإنجليزية . وأبدت جان رغبتها فى أن ترسل إليه ، ولكنها عقدت مفاضلة فاصلة قضت عليها ، فإنها تعترف بسلطته العليا فى شئون العقيدة ، أما فيما يتعلق بما فعلته إطاعة لهواتفها ، فليس لها من قاض غير الله . وأجمع القضاة على أن قولها هذا هرطقة . وقضت فى المحاكمة شهوراً أنهكتها ، وأقنعت بأن توقع على تنازل عما سبق أن قالته ، ثم رأت أنها بهذا ستقضى حياتها سجينة فى نطاق القضاء الإنجليزى ، فسحبت تنازلها ، وأحاط الجنود

الإنجليز بالمحكمة ، وهددوا القضاة بالقتل ، إذا لم تمت العذراء حرقاً . وفى الواحد والثلاثين من مايو ، اجتمع نفر من القضاة وحكموا عليها بالإعدام .

وفى الصباح نفسه ، وضعت أكوام مرتفعة من الحطب فى ساحة السوق بمدينة زوين . ونصبت منصتان بالقرب منها — إحداهما لونشستر كاردينال إنجلترا وأساقفته ، والأخرى لكوشون والقضاة ، ووقف للحراسة ثمانمائة من الجنود البريطانيين . وأحضرت العذراء فى عربة ، يصحبها راهب أوغسطينى ، واسمه ، إسامبار ، الذى صادقها إلى النهاية ، معرضاً حياته للخطر . وطلبت صليباً ، فسلمها أحد الجنود الإنجليز إياه ، وقد صنعه من قضيبين من الخشب ، فقبلته ، ولكنها طلبت أيضاً ، صليباً باركته الكنيسة ، وأقنع إسامبار الموظفين ، أن يحضروا إليها صليباً من كنيسة سانت سوفير . فزمجر الجند من التأخير لأن الوقت أصبح ظهراً . وسأل قائدهم « أتريدوننا أن نتناول غذاءنا هنا ؟ » . فانتزعها رجاله من أيدى القساوسة ، وساقوها إلى القائمة التى تشد إليها . ورفع إسامبار ، أمامها صليباً ، وصعد راهب دومينيكى معها إلى المحرقة . وأشعلت أكوام الحطب ، وارتفعت ألسنة اللهب إلى قدميها . فلما رأت الراهب الدومينيكى ، لا يزال إلى جانبها ، ناشدته أن يهبط آمناً . وابتهلت إلى هواتفها ، وقديسيها ، والملك ميكائيل والمسيح ، ودخلت فى سكرات الموت . وتنبأ أحد كتاب سر الملك الإنجليزى بحكم التاريخ باكيا . . « قضى علينا ، لقد أحرقنا قديسة » .

وفى عام ١٤٥٥ أمر البابا كاليكستاس Calixtus الثالث ، بوحى من شارل السابع ، أن يعاد فحص الأدلة التى أدينت بها جان ؛ وفى عام ١٤٥٦ (وكانت فرنسا منتصرة حينذاك) أعلنت المحكمة الدينية التى أعادت النظر فى الموضوع ، ان الحكم الذى صدر عام ١٤٣١ ، ظالم وباطل . وفى عام ١٩٢٠ عد البابا بيندكت الخامس عشر عذراء أورليان ، بين قديسى الكنيسة .

١٠ – فرنسا تبقى ١٤٣١ – ١٤٥٣

يجب علينا ألا نبالغ فى الأهمية الحربية لجان دارك ، وربما كان فى استطاعة دينوا ولاهير ، أن ينقذا أورليان بدونها ، فإن خططهما فى الهجوم المتهور أحرزت النصر فى بعض الوقائع والهزيمة فى الأخرى ، وكانت إنجلترا تحس تكاليف حرب المائة عام . ولقد وقع فيليب صاحب برجنديا وحليف انجلترا ، معاهدة منفصلة مع فرنسا ، بعد أن مل الحرب ، وزعزع تخلفه ، قبضة الإنجليز على المدن التى غزوها فى الجنوب ، فتمكنت الواحدة بعد الأخرى من طرد الحاميات الأجنبية عنها . وأجلت باريس ، البريطانيين عام ١٤٣٦ بعد أن ظلت محتلة سبع عشرة سنة ، وحكم شارل السابع آخر الأمر فى عاصمة ملكه .

ومن عجيب ما يروى ، أن هذا الرجل الذى لبث طويلا كالخيال لا حول له ولا قوة ، قد تعلم فى ذلك الحين أن يحكم ويختار الوزراء الأكفاء ، وأن يعيد تنظيم الجيش ويهدئ من ثورة البارونات وأن يفعل كل ما يحقق الحرية لبلاده . فما الذى أحدث هذا التحول ؟ لقد حفزه إليه وحى جان ، فما كان أضعفه – فيما يبدو – إذ لم يرفع إصبعاً لإنقاذها . . ويروى أن حماته الجديرة بالاحترام ، يولاند أميرة أنجو هى التى أعانته بالرأى السديد ، وشجعته على استقبال العذراء ومناصرتها . ونحن – إذا صدقنا الرواية – قلنا إنها قدمت لزوج ابنتها الحظية ، التى ظلت تتحكم فى قلب الملك عشر سنوات.

وكانت انييه سورل – وهذا اسمها – ابنة سيد فى تورين . وكانت يتيمة فى طفولتها ، فنشأتها على الأخلاق الحميدة ، إيزابل دوقة لورين . ثم صحبتها ، وهى إذ ذاك فى الثالثة والعشرين من عمرها ، لزيارة البلاط الملكى فى شينون عام (١٤٣٢) أى بعد عام واحد من وفاة جان . وفتن شارل بجدائل شعرها الكستنائى ، وأغرم بضحكتها ، فآثرها لنفسه . ووجدتها يولاند سهلة الانقياد ، فرأت أن تصطنعها فى التاثير على الملك ،

وناشدت ابنتها ماري ، أن تقبل هذه الحظية الأخيرة من حظيات زوجها . واستمرت مخلصة للملك ، خائنة لعهود الزواج طوال حياتها ، حتى إن ملكا ممن جاءوا بعد ذلك وهو فرنسيس الأول ، وكان صاحب خبرة طويلة بهذه الأمور امتدح ، « سيدة الجمال كله » بأنها خدمت فرنسا أكثر من أى راهبة حبيسة في دير . « والتذ شارل طعم الحكمة من هاتين الشفتين » ، ولقد سمح شارل لها أن تخرجه من عادة الخمول والجبن إلى الجد والعزم . فجمع حوله رجالا قادرين مثل الياور ريشمون ، الذى قاد جيوشه ، وجاك كير الذى أعاد الاستقرار إلى مالية الدولة ، وجان بيرو ، الذى جعلت مدفعيته ، النبلاء المعارضين يلوذون بالفرار والإنجليز يسرعون إلى كاليه .

وكان جاك كير مغامراً فى التجارة ، ورجلا لا يعرف نسبه وحظه من التعليم قليل ، ومع ذلك ، كان يجيد العد ، كما كان فرنسياً اجترأ على أن ينافس بنجاح البندقيين والجنوبيين والقطلانيين فى التجارة مع الشرق الإسلامى . وكان يملك سبع سفن تجارية مجهزة ، يعمرها بمجرمين يستأجرهم ، ومشردين يختطفهم من عرض الطريق ، ثم يرسل سفنه تخوض البحار يرفرف عليها علم العذراء . واستطاع أن يجمع أعظم ثروة فى فرنسا لعهده ، حوالى ٢٧,٠٠٠,٠٠٠ فرنك ، عندما كان الفرنك يساوى ما يقرب من خمسة دولارات بالعملة الهزيلة فى أيامنا . وفى عام ١٤٣٦ عينه شارل مشرفاً على دار سك النقود ، وسرعان ما جعله مشرفاً على موارد الحكومة ، ومصروفاتها . ولقد أيد مجلس الولايات عام ١٤٣٩ ، الملك بحماسة فى تصميمه على طرد الإنجليز من الأرض الفرنسية ، فشد من عزيمته بقوانين متعاقبة (١٤٤٣ — ١٤٤٧) ليستولى على جميع الضرائب فى فرنسا — أوبعبارة أخرى جميع الضرائب ، التى كان يدفعها المستأجرون لسادتهم الإقطاعيين ، فزاد دخل الحكومة سنوياً إذ ذاك إلى ١,٨٠٠,٠٠٠ كراون ، فأصبحت الملكية الفرنسية ، منذ ذلك الوقت ، تختلف عن الملكية الإنجليزية ، فى استقلالها

عن السلطان المالى للولايات ، وتستطيع أن تقاوم نمو ديمقراطية الطبقة الوسطى . وأمد هذا النظام القومى للضرائب ، الحكومة بالمال من أجل انتصار فرنسا على انجلترا ، ولكن الملك كان قادراً على زيادة معدل الضريبة ، فقد أصبح ذلك وسيلة أساسية من وسائل الضغط الملكى ، وهو من أسباب اندلاع ثورة عام ١٧٨٩ . وكان لجاك كور شأن كبير فى هذا التطور المالى ، فاكتسب إعجاب الكثيرين وعداوة قلة من الأقوياء . فقبض عليه عام ١٤٥١ بتهمة — لم تثبت أبدا — استئجار عملاء ليدسوا السم لأنييه سورل وأدين ونفى من البلاد وصادرت الدولة جميع أمواله — وهى خطة بارعة للاغتصاب بطريق غير مباشر . ففر إلى روما ، حيث نصب ، أمير بحر على أسطول بابوى ، أرسل لتخليص رودس . ومرض فى كيوس ، ومات هناك عام ١٤٥٦ ، بالغاً من العمر إحدى وستين سنة .

وفى الوقت نفسه سار شارل السابع على منوال كبير ، فأنشأ عملة مستقرة ، وجدد بناء القرى المخربة ، وارتقى بالصناعة والتجارة ، وأعاد الحيوية الاقتصادية إلى فرنسا . وأمر بتسريح الفرق الخاصة من الجنود ، وألحق هؤلاء المسرحين بخدمته ، وهكذا تكوّن أول جيش نظامى فى أوربا ، (١٤٣٦) . وأصدر مرسوما ، نص على أنه يجب أن يوجد فى كل ناحية ، مواطن شديد البأس ، منتخب من زملائه ، يعفى من الضرائب كلها ، وأن يكون مسلحاً ، مدرباً على استعمال الأسلحة ، مستعداً فى كل لحظة ، لينضم إلى أمثاله فى الخدمة العسكرية للملك . وهؤلاء الرجال الأحرار من حملة القسى هم الذين طردوا الإنجليز من فرنسا .

وما أشرف عام ١٤٤٩ حتى كان شارل متأهباً للخروج على الهدنة التى وقعت عام ١٤٤٤ . وتعجب الإنجليز وصدموا وكانت قد أضعفتهم المنازعات الداخلية ، ووجدوا أن إمبراطوريتهم الآفلة فى فرنسا تكلفهم فى القرن الخامس عشر ما لا طاقة لهم به كما تثقل عليهم الهند فى القرن العشرين ،

فلقد تكلفت فرنسا على انجلترا عام ١٤٢٧ ثمانية وستين ألف جنيه فى حين حصلت منها على سبعة وخمسين ألفاً فقط . وحارب الإنجليز بشجاعة ولكن بغير تبصر ، إذ اعتمدوا طويلا على القسى والقضبان ، ولم تعد الخطط التى صدت الفرسان الفرنسيين فى كرسى وبواتييه تجدى فى فورمينى (١٤٥٠) ، فى الصمود أمام مدفع بيرو . وفى عام ١٤٤٩ جلا الإنجليز عن معظم نورماندیا ، وتركوا عاصمتها روين عام ١٤٥١ . وهزم تالبوت العظيم عام ١٤٥٣ وقتل فى كاستلون ، واستسلمت بوردو ، وعادت جوين بأسرها فرنسية مرة أخرى ، واحتفظ الإنجليز بمدينة كاليه فقط . ووقعت الأمتان فى التاسع عشر من أكتوبر عام ١٤٥٣ المعاهدة التى وضعت حداً لحرب المائة عام .

الفصل الرابع

بلاد الغـــال الخالدة

١٤٥٣ — ١٥١٥

١ — لويس الحادى عشر : ١٤٦١ - ١٤٨٣

وكان ابن شارل السابع وولى عهده متعباً على غير العادة . ولقد زوج وهو فى الثالثة عشرة من عمره ، رغم إرادته (١٤٣٦) من مارجريت صاحبة اسكتلندا ، وكان عمرها إذ ذاك إحدى عشرة سنة ، فانتقم لنفسه بإهمالها واتخاذ الخليلات . وأغزمت مارجريت بالشعر ، ووجدت السلام الأبدى فى الموت المبكر (١٤٤٤) وقالت وهى تلفظ أنفاسها « تبا للحياة . . امسكوا الحديث عنها . . » وانتفض لويس على أبيه مرتين ، وفر إلى فلاندرز بعد المحاولة الثانية ، وانتظر نافذ الصبر أن يؤول السلطان إليه . وأعانه شارل على بلوغ مأربه ، بأن انقطع عن الطعام إلى أن مات (١٤٦١) ، وحكم فرنسا بذلك واحد من أعجب الملوك وأعظمهم طيلة اثنتين وعشرين سنة.

وكان إذ ذاك فى الثامنة والثلاثين ، نحيلا غليظ القلب ، غير منغمس فى الترف ، له عينان مرتابتان وأنف طويل ، أقرب إلى الفلاح فى مظهره ، يتخذ زى الحاج الزاهد الذى يتألف من رداء أغبر خشن وقبعة رثة من اللباد ، وكان يصلى كالقديس ، ويحكم كأنما قرأ كتاب « الأمير » قبل أن يولد مكيافلى . . واحتقر أبهة الإقطاع ، وسخر من التقاليد والمراسيم ، وبحث فى شرعية مولده ، وأذهل جميع العروش ببساطته . وعاش فى قصر دى تورنل الكئيب بباريس ، أو قصر بلسيه ليه تور ، بالقرب من مدينة تور ، كالأعزب ، وان تزوج مرتين ، وكان شحيحاً وإن كان يمتلك فرنسا ،

ولم يحتفظ من الخدم إلا بالنفر الذين كانوا معه فى المنفى ، ولا يأكل من الطعام إلا بمقدار ما يتاح لأحد الفلاحين ، ولم يكن مظهره ينبىء عن شىء ، وإن كان ملكاً فى كل شىء .

فلقد أخضع كل عنصر فى شخصه لإرادته المصممة ، وكان على فرنسا ، أن تتحول بمطرقته ، من التمزق الإقطاعى إلى وحدة ملكية ودولة موحدة ، إذ يجب على هذه الحكومة الملكية المركزية أن ترفع فرنسا من رماد الحرب إلى حياة جديدة وبأس جديد ، ووقف لويس فكره آناء الليل وأطراف النهار ، على هدفه السياسى ، بعقل واضح ماكر ، مبتكر ، لا يهدأ ، مثله فى ذلك مثل قيصر ، يرى أنه ما من شىء يتحقق ، مادامت له بقية تحتاج إلى عمل . « أما السلام فلا يكاد يحتمل مجرد التفكير فيه » ، كما قال كوميتيس . ومع ذلك فلم يكن موفقاً فى الحرب ، وآثر الديبلوماسية والتجسس ، والرشوة على استعمال القوة ، وجمع الناس حوله لتأييد أهدافه بالإقناع والتملق والتخويف ، واحتفظ بحشد كبير من الجواسيس فى خدمته فى داخل البلاد وخارجها ، وكان يدفع مرتبات سرية بانتظام لوزراء ملك انجلترا ادوارد الرابع . ويستطيع أن يستسلم ويحتمل الإهانة ويتظاهر بالخضوع ، وينتظر فرصة للنصر أو الانتقام . ووقع فى أخطاء جسام ، ولكنه تخلص منها ببراعة مذهلة غير هيابة : ولقد عنى بكل ما يتصل بالحكومة من تفاصيل ، ولم يكن ينسى شيئاً . وادخر مع ذلك فسحة من الوقت للآداب والفن ، فقرأ بنهم ، وجمع المخطوطات ، وفطن إلى الثورة التى ترهص بها المطبعة ، واستمتع بصحبة المثقفين ، وبخاصة إذا كانوا « بوهيميين » بالمفهوم الباريسى . وانضم وهو فى منفاه بفلاندرز إلى كونت شاروليه ، فى تأليف أكاديمية للعلماء ، الذين أساغوا حذلقتهم بحكايات مرحة على منهج بوكاشيو ، ولقد جمع انتوان دى لاسال ، بعضها فى مصنفه « مائة حكاية جديدة » واشتدت وطأة الملك على الأغنياء ، ولم يحفل بالفقراء ، وكان

٤

معادياً لنقابات العمال ، وآثر الطبقة الوسطى باعتبارها أقوى مؤيد له ، ولم يرحم الذين يعارضونه أياكانت طبقتهم وأمر ، بعد ثورة بربينيان ، بأن تجب مذاكير ، كل ثائر منفى ، يجسر على العودة . وفى حروبه مع النبلاء حبس بعض الأعداء أو الخونة السنوات الطوال فى أقفاص من الحديد طولها ثمانية أقدام وعرضها مثل ذلك وارتفاعها سبعة ، وهى وسائل ابتكرها أسقف فردان ، الذى شغل قفصا منها بعد ذلك أربع عشرة سنة . واشتد إقبال لويس فى الوقت نفسه على الكنيسة ، لحاجته إلى معونتها ضد النبلاء والدول ، وكانت معه مسبحة لا تكاد تفارق يده ، يردد عليها الصلاة الربانية وينقطع لصلاة العذراء ، انقطاع راهبة فى سكرات الموت ، ولقد افتتح عام ١٤٧٢ صلاة التبشير — وهى صلاة ظهر للعذراء من أجل سلم المملكة . وزار الأضرحة المقدسة ، وبجل الآثار الدينية ، ورشا القديسين ليقوموا بخدمته ، وأخذ العذراء معه فى حروبه . ولما قضى ، عرض كقديس على حامل فى كنيسة فى مدينة تور .

وخلق بأخطائه هذه فرنسا الجديدة إذ وجدها مجموعة منحلة من الإمارات الإقطاعية والكهنوتية ، فجعل منها أقوى أمة فى العالم المسيحى اللاتينى . واجتلب نساجى الحرير من إيطاليا . وعمال المناجم من ألمانيا ، وعمل على تحسين الموانىء ووسائل المواصلات ، وحماية السفن الفرنسية ، وفتح أسواقاً جديدة للصناعة الفرنسية ، وجعل حكومة فرنسا حليفة للبورجوازية التجارية والمالية الناهضة . ورأى أن التوسع فى التجارة عبر الحدود المحلية والقومية فى حاجة إلى إدارة قوية مركزية . ولم يعد الإقطاع ضرورياً لحماية الزراعة والإشراف عليها ، وكانت طبقة الفلاحين تحرر نفسها ببطء من العبودية الجامدة ، ولقد مضى الزمن الذى كان فيه الأمراء الاقطاعيون يشرعون القوانين الخاصة بهم ، ويضربون سكتهم ، ويمارسون السيادة على ولاياتهم ، وألزمهم شارل بوسائل صالحة وطالحة بالخضوع والنظام واحدا بعد واحد .

وقيد حقهم فى الاعتداء على أملاك الفلاحين فى صيدهم ، وأنشأ إدارة بريد حكومية تخترق ولاياتهم (١٤٦٤) ، وحرم عليهم ، أن يخوضوا حروباً خاصة بهم ، وطالبهم بالمتأخر من الالتزامات التى أخفقوا فى دفعها لسادتهم فى الإقطاع وهم ملوك فرنسا .

ولم يكن الأمراء الإقطاعيون يحبونه . فاجتمع ممثلون لخمسمائة أسرة نبيلة فى باريس وألفوا جبهة الصالح العام (١٤٦٤) ليبسطوا أيديهم على امتيازاتهم بشعار الصالح العام . وانضم كونت شاروليه إلى هذه الجبهة ، فقد جعلته وراثته لعرش برجنديا مشوقا لضم شمال شرقى فرنسا إلى دوقيته . ورحل شارل دوق برى وهو شقيق الملك لويس نفسه ، إلى بريتانى وتزعم الثورة . . . فتجمعت الأعداء والجيوش من كل جانب ضد الملك ، ولو استطاعوا أن يتحدوا لقضوا على الملك، وكان أمله الوحيد أن يهزمهم متفرقين فرادى . فاندفع جنوباً عبر نهر آلييه ، وأكره قوة معادية على التسليم ،وأسرع عائداً إلى الشمال فى الوقت المناسب ليحول بين جيش برجندى وبين دخول عاصمته . وادعى كل فريق أنه انتصر فى معركة مونتلهيرى ، وانسحب البرجنديون ، ودخل لويس باريس وعاد البرجنديون مع حلفائهم وحاصروا المدينة . ولم يشأ لويس أن يخاطر بدفع الباريسيين إلى الثورة عليه ، وهم الذين يأبى عليهم ذكاؤهم أن يموتوا جوعاً فسلم بمقتضى معاهدة كنفلان (١٤٦٥) كل ما كان يطلبه أعداوه تقريباً — الأرض — والمال والمناصب ، وأخذ أخوه شارل نورمانديا . ولم يذكر شىء عن صالح الشعب ، وكان لابد من فرض ضرائب على الناس لجمع الأموال المطلوبة . وانتظر لويس وقته الملائم .

وسرعان ما انزلق شارل إلى محاربة الدوق فرنسيس صاحب بريتانى ، الذى أسره ، وسار لويس إلى نورمانديا واستعادها بلا إراقة دماء . ولكن فرنسيس ، الذى توقع بحق ، أن لويس يطلب بريتانى أيضاً ، تحالف مع كونت شاروليه — وكان قد أصبح وقتذاك الدوق شارل الجسور صاحب

برجنديا — فى معاهدة هجومية ، ضد الملك الذى لا رادع له . وشحذ لويس كل وسيلة من وسائل الدبلوماسية ، فعقد صلحاً منفرداً مع فرنسيس ، واتفق على حضور مؤتمر شارل فى بيرون . وكانت نتيجة ذلك ، أن سجنه شارل ، وأرغمه على التنازل عن بيكاردى والاشتراك فى تطويق لييج . وعاد لويس إلى باريس وقد بلغ الحضيض فى السمعة والسلطان ، بل إن الببغاوات دربت على السخرية منه (١٤٦٨) . وبعد عامين ، من تبادل الخيانة والغدر ، انتهز لويس فرصة انشغال شارل فى جلدرلاند ، وسير جيوشه إلى سانت كونتان وأمين وبوفيه . فألح شارل على ادوارد الرابع أن يتحد معه على فرنسا ، ولكن لويس أبعد إدوارد عن هذا المشروع بالمال . وكان يعرف كلف إدوارد بالنساء ، فدعاه إلى الحضور ، ليلهو مع نساء باريس ، كما أبدى استعداده أن يعين لادوارد ، كاردينال بوربون ، ليكون صاحب كرسى الاعتراف الملكى ، الذى « يسره أن يحله ، إذا اقترف خطيئة ما بوساطة الحب أو الشهامة » . واحتال حتى جعل شارل يقع فى حرب مع سويسرا ، حتى إذا قتل شارل لم يأخذ لويس بيكاردى فحسب وإنما أخذ برجنديا نفسها أيضا (١٤٧٧) . وهدأ من سورة النبلاء البرجنديين بالذهب ، وأرضى الشعب بأن اتخذ له خليلة برجندية .

وأحس عندئذ أنه أصبح من القوة بحيث يستطيع أن يواجه البارونات الذين طالما حاربوه ، وقلما لبوا نداءه ، أن يخرجوا للحرب من أجل فرنسا . وكان أكثر الأمراء الذين تآمروا عليه عام ١٤٦٥ قد ماتوا ، أو أقعدتهم الشيخوخة . وتعلم خلفاؤهم أن يخشوا ملكا ، يقطع رؤوس الخونة من الأرستقراطية ويصادر ضياعهم ، ملكا أنشأ جيشاً قوياً من المرتزقة ، وأنه مستعد على الدوام لجمع الأموال الطائلة لشراء الضمائر ودفع الرشى . وآثر لويس أن ينفق أموال شعبه لا أرواحه ، فاشترى سردينيا وروسيلون من أسبانيا . وحصل على روشل بموت أخيه ، وأخذ النسون وبلوا عنوة ،

وألح على رينيه أن يتنازل عن بروفنس للتاج الفرنسى (١٤٨١) ، وبعد ذلك بعام عادت أنجوومين إلى الملكية ، وفى عام ١٤٨٣ تنازلت فلاندرز ، وكانت تنشد معونة لويس ضد الإمبراطورية الرومانية المقدسة ، عن كونتية ارتوا مع المدينتين المزدهرتين اراس ودواى . وهكذا قهر لويس البارونات وسيطر على مجالس البلديات والولايات فأنجز بذلك لفرنسا تلك الوحدة القومية والإرادة المركزية التى أنجز مثلها بعد عشر سنوات هنرى السابع ، لانجلترا ، وفرديناند وايزابلا لأسبانيا ، واسكندر السادس للولايات البابوية . وهذا الصنيع وإن أحل طغيان فرد محل طغيان أفراد كثيرين ، إلا أنه كان فى ذلك الوقت حركة تقدمية ، توطد النظام فى الداخل والأمن فى الخارج ، وتثبت العملة والمقاييس ، وتذيب اللهجات فى لغة واحدة ، وتعين على نمو أدب وطنى لفرنسا . ولم تكن الملكية مطلقة ، فقد احتفظ النبلاء بسلطات كبيرة ، وكانت موافقة مجلس الولايات ضرورية ، فى العادة لإقرار الضرائب الجديدة . وأعفى النبلاء والموظفون ورجال الدين من الضرائب . أعفى النبلاء على أساس أنهم حاربوا من أجل الشعب ، والموظفون لأنهم كانوا يبخسون فى الأجر والرشوة ، ورجال الدين لأنهم يحمون الملك والوطن بصلواتهم . وكان الرأى العام والعرف السائد يحدان من سلطة الملك ، وكانت المجالس المحلية لاتزال تزعم أن أى مرسوم ملكى بقانون لا يصبح نافذا فى مناطقهم إلا إذا وافق الأعضاء عليه ووثقوه . ومهما يكن من شىء فقد فتح الطريق للملك اويس الرابع عشر ونظام « أنا الدولة » .

وأخذ لويس نفسه بين هذه الانتصارات جميعاً بذوى جسما وعقلا . فسجن نفسه فى بليسيه — ليه — تور ، خوفا من الاغتيال ، وارتاب فى الجميع ، وقلما رأى إنساناً ، وعاقب على الأخطاء والنقائص بقسوة ، وارتدى بين حين وآخر حللا تناقض فخامتها أرديته الخشنة فى مطلع حكمه

وأصبح نحيلا شاحباً حتى إن الذين رأوه تعذر عليهم أن يصدقوا أنه على قيد الحياة . وكابد الآلام سنوات من البواسير . وأصيب بالفالج فى بعض الأحيان . وفى الخامس والعشرين من أغسطس عام ١٤٨٣ ، أصابته نوبة من الفالج أفقدته النطق ، وما لبث خمسة أيام حتى مات .

فابتهج رعاياه ، لأنه أجبرهم على أن يدفعوا ما لا طاقة لهم به من تكاليف هزائمه وانتصاراته ، مما زاد الشعب فقراً ، وفرنسا عظمة ومجدا ، فى كنف سياسته التى لا ترحم . ومع ذلك فإن العصور التى جاءت بعده ، أفادت من إخضاعه النبلاء ، وإعادته تنظيم المالية والإدارة والدفاع ، ورقيه بالصناعة والتجارة والطباعة ، وتكوينه دولة موحدة حديثة . ولقد كتب كومنيس « إذا أحصيت جميع أيام حياته وعقدت موازنة بين المسرات والمباهج وبين آلامه ومتاعبه ، فستكون النتيجة ، عشرين يوماً محزناً فى مقابل يوم واحد بهيج . ولقد دفع هو وجيله ثمن ازدهار فرنسا وأبهتها فى المستقبل » .

٢ — المغامرة الإيطالية

وكان شارل الثامن فى الثالثة من عمره عندما مات أبوه فلبثت أخته آن دى بوجيه ، ولم تكن تكبره بغير عشر سنين ، تحكم فرنسا بتعقل ثمانى سنوات . فخفضت نفقات الحكومة ، وأعفت الشعب من ربع ضريبة الرؤوس ؛ وأعادت كثيرين من المنفيين ، وأطلقت سراح كثيرين من المسجونين ، ووفقت فى مقاومة محاولات البارونات ، « الحرب الحمقاء » (١٤٨٥) ، لاستعادة سيادتهم المحلية التى انتزعها لويس . ولما اشتركت بريتانى مع أورليان ولورين وانجوليم وأورانج ونافار فى عصيان آخر ، استطاعت بدبلوماسيتها وقيادة لويس دى لاترمويل أن تهزم الجميع ، وكانت مظفرة فى وضع حد لهذه المشكلة بأن أعدت لزواج شارل من آن صاحبة بريتانى ، التى قدمت دوقيتها العظيمة صداقا لتاج فرنسا (١٤٩١) . وعندئذ اعتزلت

تائبة الملك الحكم وعاشت بقية حياتها ، وهى إحدى وثلاثين سنة آمنة فى زوايا النسيان .

أما الملكة الجديدة ، وان اتفقت معها فى الاسم إلا أن شخصيتها كانت مختلفة تمام الاختلاف ، فلقد كانت قصيرة مسحاء نحيفة عرجاء ، غليظة الأنف واسعة الفم على وجه قوطى طويل ، ولها عقلها الخاص بها ، وفيها من الدهاء والبخل ما فى كل بريتانى . ومع أنها كانت بسيطة فى ثيابها ، بحلتها وقلنسوتها السوداوين ، إلا أنها كانت فى المناسبات الرسمية — تتلألأ بالجواهر والثياب الموشاة بالذهب ، وهى لا شارل التى قربت الفنانين والشعراء ، وكلفت جان بورديشون أن يصور « صلوات آن أميرة بريتانى » . ولم تنس قط موطنها الحبيب بريتانى وطرائقها فى الحياة ، فغلفت كبرياءها بالتواضع ، وعكفت على حياكة الثياب ، وكافحت من أجل إصلاح أخلاق الملك وحاشيته .

ويقول برنتوم الثرثار « إن شارل يشغف بالنساء أكثر مما تحتمله بنيته النحيلة » . واقتصر بعد زواجه على خليلة واحدة . ولم يكن يستطيع أن يشكو من منظر زوجته ، فلقد كان هو نفسه طويل الرأس أحدب ، قسماته تنم على السذاجة ، عيناه واسعتان بلا لون ، قصير النظر ، وشفته السفلى غليظة ومتدلية ، متردد فى الحديث ، ويداه ترتعشان فى تشنج . ومع ذلك كان حسن الطبع ، رحيما مثالياً فى بعض الأحيان . ويقرأ قصص الفروسية ، وامتلأ رأسه بفكرة إعادة فتح نابلى لفرنسا وبيت المقدس للعالم المسيحى : وظلت أسرة انجو ، تبسط يدها على مملكة نابلى (١٢٦٨ — ١٤٣٥) إلى أن انتزعها منهم ألفونسو صاحب أراجون ، وانتقلت مطالبة دوقات انجو بملكها إلى لويس الحادى عشر بالوراثة ، ثم جهر شارل بالمطالبة . واعتقد مستشاروه أنه آخر إنسان فى العالم يستطيع أن يقود جيشاً فى حروب كبيرة ، ولكنهم أملوا أن تمهد الديبلوماسية طريقه ، وأن الاستيلاء على نابولى ،

سيسمح للتجارة الفرنسية ، أن تتحكم فى البحر الأبيض المتوسط . وتركوا أرتوا فرانش — كونتيه إلى ماكسمليان صاحب النمسا وسردينيا وروسيلون لفرديناند ملك أسبانيا وذلك لحماية أطراف المملكة ، ورجوا أن يحصلوا على نصف إيطاليا من أجل الأجزاء التى اقتطعت من فرنسا واستطاع لودوفيكو نائب الملك فى ميلان أن يجمع جيشاً قوامه أربعون ألف رجل ، ومائة مدفع حصار وست وثمانون سفينة حربية . وذلك بفضل الضرائب الباهظة والجواهر المرهونة والقروض التى سحبت من رجال المال فى جنوا .

وخرج شارل مبتهجاً (١٤٩٤) ، ولعله لم ير بأساً من أن يخلف وراءه أخته وزوجته . فقوبل فى ميلان بالترحيب (وكان بينها وبين نابلى حزازة تريد أن تحسمها) . ولم يجد عند سيداتها مقاومة ما وخلف بعد مسيره جمعا من الأبناء غير الشرعيين ، ولكنه أبى فى شهامة أن يمس عذراء ناشزة جلبها وصيفه لإمتاعه ، وما كان منه إلا أن أرسل يطلب حبيبها ، ورأس بنفسه حفل خطوبتهما ، ومنحها صداقاً مقداره خمسمائة كراون . ولم تكن عند نابلى قوة عسكرية تقاوم جيشه فانتصر عليها فى يسر ودخلها (١٤٩٥) ، واستمتع بجمال مناظرها ، ومطاعمها ونسائها ، ونسى بيت المقدس .

ومن الواضح أنه كان من الفرنسيين السعداء ، الذين لم يصابوا بذلك المرض التناسلى الذى سمى فيما بعد « بالداء الغالى » لأنه انتشر بسرعة فى فرنسا بعد عودة الجنود إليها . وعقدت « محالفة مقدسة » بين الإسكندر السادس والبندقية ولودوفيكو صاحب ميلان (الذى تحول عن ولائه السابق) فأرغموا شارل على الجلاء عن نابلى والانسحاب عبر إيطاليا التى تناصبه العداء . وحارب جيشه الآخذ فى النقصان معركة غير حاسمة فى فورنوفو (١٤٩٥) ، وعاد مسرعاً إلى فرنسا ، حاملا معه مقومات النهضة فيما حمل من أسباب العدوى .

وفى فورنوفو أبدى بيير تيراى سيد بايار ، لأول مرة وكان إذ ذاك

فى الثانية والعشرين من عمره ، شجاعة أكسبته نصف اللقب المشهور الذى عرف به وهو « الفارس الذى لا يخاف ولايلام » : ولقد ولد فى قصر بايار بإمارة ولى العهد ، وهو من أسرة نبيلة ، لم يمت رئيس من رؤسائها طوال قرنين إلا فى حومة القتال ، ولعل بيير أراد فى هذا اللقاء ، أن يواصل ذلك التقليد . ونفق من تحته جوادان ، وظفر بأحد ألوية العدو ، فجعله مليكه فارساً تقديراً لبسالته . واستطاع أن يحتفظ فى عصر انتشرت فيه الفظاظة والعبث والخيانة بجميع فضائل الفروسية — فقد كان ، فى غير تظاهر شهماً ، مخلصاً فى غير خنوع . شريفاً فى غير تيه ، وخاض اثنى عشر حربا بروح رحيمة مرحة حتى لقبه معاصروه « الفارس الطيب » ، وسنلقاه مرة أخرى .

وعاش شارل بعد رحلته إلى إيطاليا ثلاث سنوات . وذهب لمشاهدة مباراة تنس فى امبواز فصفع رأسه باب غير محكم ، ومات من نزيف فى المخ بالغاً من العمر ثمانية وعشرين سنة . ولما كان أبناؤه قد ماتوا قبله ، فقد تحول العرش إلى ابن أخيه دوق أورليان ، الذى أصبح الملك لويس الثانى عشر (١٤٩٨) والذى ولد لشارل صاحب أورليان ، وهو شاعر عندما كان فى السبعين من عمره ، وكان لويس عند توليه العرش فى السادسة والثلاثين سقيم البنية منذ أمد . وكانت أخلاقه مهذبة على غير عادة ذلك العصر ، وسجاياه صريحة توصى بالمحبة ، حتى لقد تعلمت فرنسا أن تحبه ، رغم حروبه التى لانفع فيها وكان يبدو متهما بعدم اللياقة ، لأنه طلق عام تتويجه جان دى فرانس ، ابنة لويس الحادى عشر ، ولكن ذلك الملك العنيد فى مرونة ولين هو الذى أرغمه على الزواج من تلك الفتاة التى لا جاذبية لها ، عندما بلغ الحادية عشرة من عمره فقط . ولم يكن يستطيع أن يحبها ، فهو الآن يطلب إلى الإسكندر السادس أن يلغى ذلك الزواج على أساس قرابة العصب ، وأن يقر بناءه بالأرملة آن صاحبة بريتانى —

فى مقابل عروس فرنسية وكونتية ومعاش لابن البابا : قيصر بورجيا — وحملت آن معها دوقيتها كجزء من جهاز العروس . واتخذا مسكنهما فى بلوا ، وأعطيا فرنسا نموذجا ملكياً للحب والإخلاص المتبادلين .

ويمثل لويس الثانى عشر سيادة الشخصية على الفكر . ولم يكن فى دهاء لويس الحادى عشر ، بيد أن له النية الطيبة والرزانة الحسنة ، والفطنة ، التى تتيح له أن يجسم الكثير من قوته فى أعوانه الذين أحسن اختيارهم . وترك الإدارة ، ومعظم السياسة ، إلى صديق عمره جورج ، كاردينال امبواز ، فأدار هذا الكاهن الحكيم الطيب ، الأمور بحذق ، حتى إن الشعب المتقلب كان كلما جد أمر ، هز كتفيه ، وهمس « دع جورج ينهض به » . وتعجبت فرنسا عندما وجدت الضرائب المفروضة عليها تخفض ، خفض أولا العشر ثم الثلث . وانفق الملك الذى نشأ فى النعيم أقل ما يمكن على نفسه وعلى بلاطه ، ولم يسمن على حسابه مقربون . وألغى بيع الوظائف ، وحرم على الحكام قبول الهدايا ، وأباح البريد الحكومى للجمهور . وقيد نفسه بأن يختار ، لكل منصب إدارى شاغر ، واحداً من ثلاثة ، تعينهم الهيئة القضائية ، وألا يفصل موظفاً من موظفى الدولة إلا بعد محاكمة علنية وثبوت عدم النزاهة أو الكفاية عليه . وسخر بعض الهزليين ورجال البلاط من اقتصادياته ولكنه كان يقابل مزاحهم بروح متسامحة . وقال « قد يقولون لنا بين بذاءاتهم حقائق نافعة ، دعهم يسلون أنفسهم ، وعليهم أن يحترموا شرف النساء . . . وخير لى أن أجعل رجال البلاط يضحكون من تقتيرى ، على أن أجعل شعبى يبكى من تبذيرى » ، وكانت أفضل وسيلة تسرى عنه هى أن تدله على طريقة جديدة تنفع الشعب . ولقد عبر أبناء الشعب ، عن اعترافهم بالجميل له بأن لقبوه « بأبى الشعب » ولاتذكر فرنسا فى تاريخها مثل هذا الازدهار .

ومن المؤسف ، أن هذا الحكم السعيد تلطخ صحيفته بغزوة أخرى

لإيطاليا . وربما نهض لويس وغيره من الملوك بهذه الهجمات ، ليشغلوا النبلاء المشاغبين ويتخلصوا منهم ، وهم بغير ذلك يزعجون فرنسا بالحروب الداخلية ، مهددين بذلك الملكية والوحدة القومية اللتين لم تستقرا بعد . وكان على لويس بعد اثنى عشر عاما من النصر فى إيطاليا ، أن يسحب جنوده من شبه الجزيرة ، ثم خسر معركة مع الإنجليز فى جوينجيت ، (١٥١٣) ، وهى التى أطلق عليها الوصف الساخر « معركة المهاميز » لأن الفرسان الفرنسيين ، فروا من المعركة بسرعة غير عادية . ووقع لويس صلحاً ، وقنع بعد ذلك بأن يكون ملك فرنسا فحسب .

وزاد موت آن (١٥١٤) من أحزانه ، ولم تنجب له وريثا للعرش ، وزوج ، وهو غير راض تمام الرضى ، ابنته كلود إلى فرنسيس ، كونت انجوليم ، ويعد الثانى فى ولاية العرش . وألح عليه مساعدوه ، أن يتخذ زوجة ثالثة ، وكان فى الثانية والخمسين ، وأن يحجب فرنسيس ، الثائر بإنجاب ولد . فقبل مارى تيودور ، أخت هنرى الثامن ، البالغة من العمر ست عشرة سنة ، فجعلت الملك يسير فى حياة مرحة منهكة وتشبثت بكل ما يجب للجمال والشباب . وتوفى لويس فى الشهر الثالث من زواجه (١٥١٥) فخلف لزوج ابنته ، فرنسا المزدهرة ، التى ظلت تذكر بالحب أبا الشعب على الرغم من هزيمتها فى عهده .

٣ — نهضة القصور

أحس الفن الفرنسى الآن كله ، اللهم إلا العمارة الدينية ، تأثير الملكية الآخذة بأسباب القوة وفتوحها الإيطالية ذلك لأن الكنيسة تشبثت بالطراز القوطى المشع ، فى العمارة معبرة عن اضمحلالها بالزينة المسرفة والتفاصيل المبالغ فيها ، ولكن هذا الطراز ، كان يحتضر ، مثله فى ذلك ، مثل امرأة خليعة تجمع وهى تجود بأنفاسها كل المظاهر النسوية ، من رقة وزينة ورشاقة . ومع هذا كله بدأ تشييد بعض الكنائس الفخمة فى هذا العصر : سانت ولفرام

فى ابيفيل ، سانت أتين دى مون فى باريس ، والمزار الصغير المتقن الذى شيدته مرجريت أميرة النمسا فى برو ، تخليدا لزوجها فيلبرت الثانى ملك سافوى . وأدخلت على المبانى القديمة ، زخارف جديدة ، ووصفت كاتدرائية روين ، بابها الشمالى باسم « الباب المكتبى » نسبة إلى حوامل الكتب فى صحن الكنيسة ، وأنفقت المبالغ التى جمعت للانغماس فى أكل الزبد فى لنت ، على إقامة البرج الجنوبى الرائع ، وهو البرج الذى أسمته الفكاهة الفرنسية : « برج الزبدة» ، واستطاع كاردينال امبواز أن يحصل على أموال يشيد بها الواجهة الغربية ، على الطراز المشع نفسه . ومنح بوفيه ، جناح الكنيسة الجنوبى ، رائعتها التى لم تتم . ويفوق بابها ونافذتها الوردية معظم الواجهات الرئيسية ، وحسّن سينلس ، وتور وترويس هياكلها ، وشيد جان لوتكسبيه فى شارترز ، برجاً شمالياً غربياً مشرفاً ، وحاجزا ضخما للمرتلين ، وقد ظهرت فيهما أفكار عصر النهضة التى تغلب الخطوط القوطية . أما برج سانت جاك الرائع فى باريس ، فهو البقية المُرَمّمة من كنيسة ، أقيمت فى هذا العهد لسانت جيمس الأعظم .

وأفصحت مبانى النبلاء المدنية عن الصراع والفوضى فى ذلك العصر . وأنشئت البلديات للمدن فى أراس ودواى وسانت — أومر ونويون وسانت كنتان وكومبيين ودرين وايفريه وأورليان وسومور — وشيدت جرينوبل « دار القضاء » عام ١٥٠٥ ، وشيدت روين داراً أكثر بهاء عام ١٤٩٤ ، صممها روبرت انجو ورولان لبرو على الطراز القوطى المزخرف ، وأعاد القرن التاسع عشر زخرفتها . ثم جاءت الحرب الثانية فخربتها.

وهذا هو القرن الأول الذى ظهر فيه القصر ذو الطابع الفرنسى ، ذلك لأن الكنيسة أخضعت للدولة ، فغلب الاستمتاع بالحياة فى الدنيا على الاستعداد للآخرة ، وأصبح الملوك يستطيعون أن يكونوا آلهة ، وأن ينشئوا ، تزجية لفراغهم ، فردوساً على طول نهر اللوار . وتحول « القصر المنيع » أو القلعة

بين عامى ١٤٩٠ ، ١٥٣٠ إلى « قصر الملذات » . وطلب شارل الثامن بعد أن عاد من حملته على نابولى ، إلى معمارييه ، أن يشيدوا له قصراً ، فى فخامة ما شاهده فى إيطاليا . وكان قد أحضر معه المعمارى الإيطالى فراجيوفانى جيوكوندو ، والمثال الرسام جيدوماتزونى ، والنقاش على الخشب دومينيكوبرنابى « بوكادور » ، وتسعة عشر فناناً إيطالياً آخرين ، وكان بينهم معمارى تخصص فى المبانى الحلوية هو دومينيكو باتشيلو. وهو الذى أصلح قبل ذلك قلعة أمبواز القديمة ، وكلف الملك هؤلاء الرجال ، يعاونهم بناؤون وعمال فرنسيون ، أن يحولوها إلى مسكن مترف يليق بالملك « على الطراز الإيطالى » . وكانت النتيجة بالغة الفخامة : فقـــد نهضت بجلال ، على منحدر يشرف على النهر الوديع ، مجموعة من الأبراج ، والقباب والطنف ، وزخارف من الرفارف ومخادع وشرفات . وهكذا ولد نوع جديد من العمارة .

فضايق هذا الطراز الوطنيين والمحافظين على القديم ، بالمزاوجة بين الأبراج القوطية وبين قصور عصر النهضة ، وبإحلال الأشكال والتفاصيل الكلاسية ، محل الزخرف المشع . وظلت الجدران ، والأبراج الأسطوانية والأسقف العالية المنحدرة ، والشرفات الخاصة بالدفاع والخنادق العارضة ، تتسم بطابع القرون الوسطى ، تذكر بالوقت ، الذى كانت فيه دار المرء ، يجب أن تكون قلعته وحصنه فى وقت واحد ، ولكن الروح الجديدة أخرجت المسكن من غلافه العسكرى الكثيف ، وعرضت النوافذ وحددتها بخطوط مستقيمة لتسمح بدخول أشعة الشمس ، وجملتها بأطر من الحجر المنقور ، وزينت الداخل بانصاف عمد كلاسية مربعة وأفاريز وزينات مدلاة وتماثيل ونقوش عربية وزخارف بارزة ، وأحاطت البناء بالبساتين والنوافير والازهار وغابة للصيد أو سهل بسام . ولقد أخلى الظلام فى هذه الدور المترفة مكانه للنور ، كما انقشع الخوف والكآبة ، اللذان اتسمت بهما القرون

الوسطى وحل محلهما اطمئنان عصر النهضة وجرأته ومرحه . وأضحى حب الحياة طرازاً معمارياً .

ونحن نبالغ فى الحكم على هذه القصور فى عصرها الأول إذا ألحقنا بها أصلها أو إذا عرضنا لتطورها الكامل . فإن كثيراً منها كان موجوداً قبل ذلك فى صورة القلاع ، ولم يحدث فيها غير مجرد التعديل ، وأكمل القرنان السادس عشر والسابع عشر ، هذا الشكل الفنى حتى بلغا به الانسجام الأرستقراطى ، وغير القرن الثامن عشر هذا الاتجاه وأحل ملحمة فرساى العظيمة ، محل روح التصور الغنائية المرحة . وكان قصر شينون الحصين ، قديماً ، عندما استقبل فيه شارل السابع ، جان (١٤٢٩) ، كما مر لوشي بتاريخ طويل باعتباره مقراً ملكياً وسجناً ، عندما وفد عليه لودوفيكو المورو سجيناً (١٥٠٤) وذلك بعد أن استولى لويس الثانى عشر على ميلان للمرة الثانية . وأصلح جان بوريه ، وهو وزير لويس الحادى عشر حوالى عام ١٤٦٠ ، قلعة لانجيه ، التى أنشئت فى القرن الثالث عشر ، فى شكل ، يتسم أساساً بطابع القرون الوسطى ، وإن كانت من أحسن القصور الباقية إلى الآن . وشيد شارل دامبواز حوالى عام ١٤٧٣ ، فى شومون ، قصراً آخر على نهج القرون الوسطى ، وأقام أخوه الكاردينال فى جايون ، قصراً حصيناً فخماً (١٤٩٧ — ١٥١٠) أتلفته الثورة الرعناء . ورمم دينوا وهو نبيل « ابن سفاح من أورليان » قصر شاتودن (١٤٦٤) ، وأضاف كاردينال اورليان لونجفيل ، جناحاً جديداً لهذا القصر ، على الطراز الذى يزاوج بين القوطى وعصر النهضة . ولاتزال فى قصر بلوا ، أجزاء على نمط القرن الثالث عشر ، وقد أنشأ له لويس الثانى عشر ، جناحاً شرقياً ، فى وحدة متجانسة من الآجر والحجر ، ومن الأبواب القوطية ونوافذ عصر النهضة ، ولكن ذروة فخامته كانت تنتظر فرنسيس الأول.

وكانت المرحلة الأخيرة للنحت القوطى رائعة إلى أقصى حد بالزخرف

المنقور ببراعة فى المقابر ، وبالمحفة فى كنيسة برو ، حيث تبدو سيبيل أجرّبا فى شكل لا يقل جمالا عما هى فى شارترز أو ريمز . ولكن الفنانين الإيطاليين كانوا يعيدون فى الوقت نفسه ، صياغة النحت الفرنسى على طراز عصر النهضة ، استقلالا وانسجاماً ورشاقة . وزاد الاتصال بين فرنسا وإيطاليا بفضل زيارة رجال الدين والسفراء والتجار والرحالة ، وقامت الأشياء الفنية الإيطالية المستوردة وبخاصة الأدوات الصغيرة المصنوعة من البرونز ، مقام المبعوثين من عصر النهضة من الذوق والشكل الكلاسيين . وتحولت الحركة ، بمجيء شارل الثامن وجورج وشارل صاحب امبواز ، إلى تيار متدفق والفنانون الإيطاليون هم الذين أنشأوا « مدرسة امبواز » ذات التأثير الإيطالى فى المقر الريفى للملوك . وتعد مقابر الملوك الفرنسيين ، فى كنيسة سانت دينيس ، سجلا أثرياً ، للتحول ، من جلال النحت القوطى الجهم ، إلى الأناقة الرقيقة والزخرف الذى ينم على المرح ، اللذين اتسم بهما تصميم عصر النهضة ، معلنة المجد محتفلة بالجمال حتى فى انتصار الموت .

ويتجسم هذا التحول فى شخص ميكيل كولومب . ولد عام ١٤٣١ ، ووصف عام ١٤٦٧ بأنه « أعظم نحات فى المملكة الفرنسية قبل أن تغزو فرنسا إيطاليا وتبتلعها بزمن طويل . وكان النحت الغالى من الآن فصاعداً كله تقريباً من الحجر ، فاستورد كولومب رخام جنوا ، وحفر عليه صوراً لا تزال عابسة جامدة بمسحة قوطية واضحة ، لكنها وضعت فى أطر زاخرة بالزينة الكلاسيكية . لقد نقش لقصر جايون ، نقشاً بارزاً مرتفعاً يمثل « القديس جورج والتنين » — فى صورة فارس لا حياة فيه على صهوة جواد ناشط خفيف الحركة ، وهما محاطان بأعمدة وأفاريز ورفرف فى تصميم عصر النهضة . وبدأ فى « عذراء العمود » المنقوشة على الحجر ، لكنيسة سانت جالمييه ، وان كولومب حقق الوداعة الكاملة التى يتسم بها الأساوب الإيطالى فى بساطة الملامح ولطفها ، وفى الخطوط الناعمة للشعر المرجل . وربما

كان كولومب هو الذى نقر ، فى شيخوخته « المدفن الشرقى » (١٤٩٦) فى سراديب كنيسة فى سولزمس (*).

وتأثرت فرنسا فى التصوير بالأراضى الواطئة ، كما تأثرت بإيطاليا فقد بدأ نيكولاس فرومنت بواقعية هولندية فى صورته « بعث لازاروس » ولكنه انتقل عام ١٤٧٦ من أفنيون إلى ايكس آن بروفانس ورسم لرينيه صاحب انجو الصور ثلاثية الطيات « علّيقة موسى » ، وتظهر الصورة الرئيسية فيها ، وهى العذراء على العرش ، سمات إيطالية فى مهادها ، وفى العذراء السمراء ، وموسى المهيب ، والمَلَك الفاتن ، وكلب الصيد المتحفز والأغنام المخلصين ، وهنا أحرزت إيطاليا انتصاراً كاملا . وطبع تطور مماثل فى الأسلوب أعمال « أستاذ مولان » ، ولعله جان بريال . فلقد ذهب إلى إيطاليا مع شارل الثامن ثم مع لويس الثانى عشر ، فرجع ومعه نصف فنون عصر النهضة فى سجل مؤهلاته — فكان رسام منمنمات ونقوش جدارية ومصور أشخاص ومثالا ومعمارياً . وصمم فى نانت — ونقش كولومب على الحجر — المقبرة الرائعة لفرنسيس الثانى دوق بريتانى ، وخلد فى مولان ذكر أوليائه آن وبيير البيجومى ، مع الرسوم الجميلة للأشخاص التى توجد الآن فى اللوفر.

ولم تحتفظ الفنون الصغيرة بالامتياز الذى كان لها فى القرون الوسطى المتأخرة . فقد تحول المزخرفون الفلمنكيون ، منذ زمن طويل إلى الموضوعات الدنيوية والمناظر الأرضية . وتمثل منمنمات جان بورديشون فى « صلوات آن أميرة بريتانى » (١٥٠٨) العودة إلى البساطة والتقوى اللتين تتسم بهما القرون الوسطى مثل الأساطير المحببة عن العذراء وطفلها ، ومأساة جلجوثا وانتصار القديسين ، والرسم ردئ والمهاد كلاسية واللون قوى صاف ، كل هذا فى جو هادئ من التأنق والشعور النسويين . واتخذ الزجاج الملون

(*) استخرجت له صورة فى متحف متروبوليتان للفنون بنيويورك .

فى هذا العصر — وقد يكون ذلك على سبيل المقابلة — واقعية فلمينكية عند عند النظرة الأولى لا تلائم النوافذ التى تدخل الضوء الساطع على أرضية الكاتدرائيات ، ومع ذلك فإن الزجاج الذى نقش فى هذا العصر لاوخ وروين وبوفيه ، فيه آثار من روعة القرن الثالث عشر . وأعادت ليموج إشعال أفرانها ، التى خمدت طوال قرن كامل ، ونافست إيطاليا والبلاد الإسلامية ، فى طلاء الأوانى بالميناء الصافية . ولم يفقد الحفارون على الخشب حذقهم ، وذهب رسكين إلى أن مواضع الممثلين فى كاتدرائية أمين هى خير ما فى فرنسا بأسرها ، وأثارت السجاجيد الملونة التى يعود تاريخها إلى نهاية القرن الخامس عشر ، انتباه جورج صاند فى قصر بريساك (١٨٤٧) ، وأصبحت ذخيرة متحف كلونى فى باريس ، وفى متحف جوبلنز سجاجيد رائعة (حوالى ١٥٠٠) تصور موسيقيين يعزفون فى حديقة أزهار السوسن .

وكان القرن الخامس عشر مجدبا بصورة عامة فى الفن الفرنسى باستثناء عمارة القصور . فلقد حرثت أقدام الجنود الأراضى وأخصبتها بدماء الحروب ، ولكن ختام هذه المرحلة ، هو الذى شاهد رجالا عندهم الوسائل والفراغ نثروا البذور التى استطاع فرنسيس الأول أن يجنى ثمارها . فإن صورة فوكيه لنفسه إنما تنم على عصر خنوع وبأس ، وتعكس منمنمات تلميذه بورديشون ، السلام العائلى فى الزواج الثانى للويس الثانى عشر ، والطمأنينة المبتسمة للأرض المسترجعة . فقد تجاوزت فرنسا أسوأ عهودها ، ويوشك أحسنها أن يجيء

٤ — فرانسوا فيون : ١٤٣١ — ١٤٨٠

ومهما يكن من شيء ، فإن هذا القرن من الصراع والفوضى قد أفزع ، شاعراً فحلا ومؤرخاً كبيراً . وكانت إحدى النتائج الطبيعية للاقتصاد القومى والحكومة مركزية ، أن استعمل الأدب الفرنسى لغة باريس ، أياكان

موطن المؤلف: برجنديا أوبريتانى أوبروفانس . وكأنما أثرها فيليب دى كومين على اللاتينية ، ليثبت أن الفرنسيين قد نضجوا ؛ وسجل بها مذكراته . واستعار لقبه من كومين فى فلاندرز ، حيث ولد . وهو من أسرة ممتازة ، لأن الدوق فيليب الخامس كان اشبينه ، ونشأ فى البلاط البرجندى ، ولما بلغ السابعة عشرة (١٥٦٤) كان بين موظفى كونت شاروليه . حتى إذا أصبح الكونت ، شارل الجسور ، وأسر لويس الحادى عشر فى بيرون ، لم يرض كومين عن سلوك الدوق ، ولعله تنبأ بسقوطه ، فتحول راشدا إلى خدمة الملك . فجعله لويس حاجباً له وأسبغ عليه الإقطاعيات ، وأرسله شارل الثانى فى وفادات دبلوماسية هامة . وأنشأ كومين فى الوقت نفسه أثرين كلاسيين من الأدب التاريخى : أحدهما مذكرات وتاريخ الملك لويس الحادى عشر ، وثانيهما تاريخ الملك شارل الثامن — وهما سرد نثرى بلغة فرنسية واضحة بسيطة كتبهما رجل عرك الدنيا وشارك فى الأحداث التى وصفها .

وهذان الكتابان شاهدان على الثروة غير العادية للأدب الفرنسى فى المذكرات . ولها أخطاؤهما : فالحرب تكاد تستغرقهما وليس فيهما من الطرافة والحياة ما فى فرواسار أو فيلاردوين أو جوانفيل ، وفيهما كثير جداً من عبارات حمد الله والثناء عليه ، ذلك عند الإعجاب بسياسة لويس الحادى عشر الغاشمة . وكثيراً ما ينقطع عن السرد ويتعثر فى سقطات من اللغو . وعلى الرغم من هذا كله فإن كومين هو أول مؤرخ فلسفى : فهو يبحث عن العلاقة بين العلة والمعلول ، ويحلل الشخصيات والحوافز والمزاعم ويحكم على الأخلاق حكماً موضوعياً ويدرس الأحداث والوثائق الأصلية ليوضح طبيعة الإنسان والدولة . ولقد سبق بهذه الملاحظات مكيافلى وجويكشياردينى فى تقديره المتشائم للإنسانية فى قوله : « لا الفعل الفطرى ، ولا معرفتنا ، ولا حبنا لجارنا ولاشىء آخر غير هذا ، يكفى دائماً لأن يمنعنا من استعمال العنف بعضنا مع بعض أو يحول بيننا وبين الاحتفاظ

بما كان معنا . أو يصرفنا عن اغتصاب أملاك الآخرين بكل الوسائل الممكنة .. والأشرار يصبحون أكثر شراً على معرفتهم ، أما الأخيار فيزداد صلاحهم إلى أقصى حد » .

وكان عنده ، مثل مكيافلى ، أمل فى أن كتابه يعلم الأمراء حيلة أو حيلتين قال :

« ولعل السفلة لا يزعجون أنفسهم بقراءة هذه المذكرات ، أما الأمراء . . . فقد يقبلون عليها ، ويجدون بعض المعارف التى تكافئهم على متاعبهم . . . لأنه على الرغم من أن الأعداء والأمراء ليسوا دائماً سواء ، فإن ، أعمالهم واحدة فى العادة ، ومن المفيد دائماً أن تخبر عما مضى ؟ . فإن من أعظم الوسائل التى تجعل الإنسان حكيما ، أن يدرس التواريخ .. وأن يتعلم كيف يحدد ويلائم بين أحاديثنا وأعمالنا وبين النموذج والمثال اللذين كان عليهما أسلافنا . وما حياتنا إلا فترة قصيرة ، غير كافية لتمدنا بالتجربة عن أشياء جد كثيرة » .

واتفق شارل الخامس ، أحكم الحكام المسيحيين فى عصره ، مع ديكومين ووصف « المذكرات » بأنها كتاب صلواته .

وفضل الجمهور القصص الخيالى والمسرحيات الهزلية والهجائيات وفى عام ١٥٠٨ ظهرت النسخة الفرنسية من « أماديس دى‌جول » واستمرت حوالى عشر فرق تعرض مسرحيات الخوارق والأخلاقيات والهزليات والمساخر وهى حماقات تسخر من كل إنسان حتى القسس والملوك . وكان بيير جرنجور من أساتذة هذا الفن يكتب ويمثل هذه المساخر بحماسة ونجاح طوال جيل كامل . وأقدم مسرحية هزلية فى الأدب الفرنسى هى « السيد بيير باتيلان » ولقد مثلت أول مرة حوالى عام ١٤٦٤ كما مثلت بعد ذلك بأمد طويل عام ١٨٧٢ . وباتيلان محام فقير يتلهف على القضايا . وهو يلح على بائع صوف أن يبيعه ستة أذرع من الثياب ويدعوه إلى الغذاء

معه فى ذلك المساء ليتسلم الثمن . فلما جاء التاجر ، كان باتيلان فى فراشه يئن من حمى مزعومة . ويصرح أنه لا يعرف شيئاً عن أذرع الثياب والغذاء . فينصرف التاجر مشمئزاً ، فيلعن راعى أغنامه ، ويتهمه بالتصرف سراً فى بعض الخراف ، ويجره أمام القاضى . وهنا يبحث الراعى عن محام زهيد الأجر فيعثر على باتيلان ، الذى دربه على أن يمثل دور الأبله وأن يجيب على جميع الأسئلة بثغاء « الشاه » باء ، وتحير القاضى من هذا الثغاء وارتبك من خلط التاجر فى شكواه بين الراعى والمحامى ، فأعطى فرنسا كلمة مأثورة تدعو فيها كل فريق وهى « فلنعد إلى هذه الأغنام » ولما يئس من الحصول على دليل منطقى فى هذه الضجة ، رفض القضية وطالب باتيلان المنتصر بأجره ولكن الراعى أجابه بثغاء الشاه « با » ، ومكر الأبله بالمحتال البارع . وتتكشف القصة بكل ما فى الروح الغالية من مهاترة . ولعل رابيليه قد ذكر باتيلان عندما فكر فى بانورج ، وموليير قد تقمص جرنجور والمؤلف المجهول لهذه المسرحية .

والشخصية التى لا تنسى فى الأدب الفرنسى فى القرن الخامس عشر هى شخصية فرنسوا فيون . فلقد كذب وسرق وغش وارتكب الفاحشة وقتل ، مثله فى ذلك مثل ملوك عصره ونبلائه ، ولكنه كان أكثر تعقلا . وبلغ الفقر منه مبلغاً جعله لا يملك حتى اسمه . ولقد ولد فرنسوا دى مونتكوربييه (١٤٣١) ونشأ فى غمرات الطاعون والبؤس بباريس ، وتبناه قسيس طيب اسمه جويوم دى فيون ، فأخذ فرنسوا لقب هذا « الكفيل » فلطخه بالعار وأسبغ عليه الخلود فى وقت واحد ، وصبر جويوم على فرار الصبى من المدرسة وعبثه ودفع له نفقات تعليمه فى الجامعة ، واستراح فى زهو عندما حصل فرنسوا على درجة ماجستير فى الآداب (١٤٥٢) ، وزوده بالطعام والمسكن فى أروقة كنيسة سانت بنوا ثلاث سنوات بعد ذلك منتظراً أن يبلغ الأستاذ مرحلة النضج .

وليس من شك فى تحول فرنسوا من التقوى إلى الشعر ومن علوم الدين إلى السرقة قد أحزن جويوم وأم فيون وكانت باريس تزخر بالخلعاء والبغايا والدجالين والنشالين والشحاذين وحماة العاهرات والقوادين والسكارى ، فما كان من الشاب المستهتر إلا أن اتخذ له أصدقاء فى كل طائفة ، وعمل ديوثاً فترة من الزمان . ولعله حصل من الدين فوق ما يطيق ، ولم يسغ الحياة فى الدير ، فمن العسير بوجه خاص أن يستجيب ابن رجل الدين للوصايا العشر . وفى الخامس من يونيه عام ١٤٥٥ بدأ « قسيس يدعى فيليب شرموى » العراك مع فرنسوا (كما يقول بنفسه) ، وقطع شفته بمدية ، فما كان من فيون إلا أن أصابه بجرح عميق فى فخذه ، ولم يمض أسبوع حتى كان فيليب قد أسلم الروح وأصبح بطلا بين رفاقه ، وخارجاً على القانون يطارده الشرطة ، ففر الشاعر من باريس ، وظل حوالى سنة مختفياً فى الريف .

وعاد هزيلا شاحباً ، جامد الملامح وخشن البشرة ، ساهر العين حذر الشرطة ، يحطم الأقفال حينا والجيوب أحيانا ، يستشعر الجوع إلى الطعام والحب . وأصبح عاشقاً لصبية بورجوازية ، احتملته حتى تجد فارساً خيراً منه ، يتغلب عليه ، فزاد حبه لها ، ولكنه سجل ذكراها بعد ذلك بأنها « سيدتى ذات الأنف الأعوج » . وأنشأ حوالى ذلك الوقت (١٤٥٦) « العهد الصغير » ، وهو أقصر وصاياه ، الشعرية فقد كان عليه أن يفى بديون كثيرة وأن يصلح أخطاء كثيرة أيضاً ، ولا يستطيع أن يتنبأ متى يختم حياته على حبل مشنقة . وهو يهجو عشيقته على قلة لحمها ، ويبعث بجوربه الطويل إلى روبرت فاليه ، « لكى يلبس خليلته رداء أكثر احتشاما » ، وأوصى لبرنيه مارشان « بثلاث حزم من القش أو العشب الجاف ، ليضعها فوق الأرض العارية لينام عليها ، ويمارس لعبة الحب » ، ويمنح حلاقه « أطراف شعرى وقصاصاته » ، ويترك قلبه ، محزوناً شاحباً ميتاً لا إحساس فيه ، إلى التى « أبعدت عينها عنى » .

وبعد أن تجرد من كل هذه الثورة ، وجد نفسه مفتقراً إلى الخبز واشترك ليلة عيد الميلاد عام ١٤٦٠ مع ثلاثة آخرين فى السطو على كلية نافار ، وسرقت العصابة حوالى خمسمائة كراون . ولما اطمأن فرنسوا إلى نصيبه الكبير من هذه المغامرة استأنف إقامته فى الريف . واختفى عن نظر التاريخ عاماً واحداً ، ثم نجده فى شتاء عام ١٤٥٧ بين الشعراء الذين أكرم وفادتهم ، شارل صاحب أورليان ، فى بلوا ... وأسهم فيون فى مباراة شعرية هناك ، ولابد أنه قد أمتع ، لأن شارل أبقاه ضيفاً عليه أسابيع ، وأفعم كيس الشاب الخاوى بالمال ، ثم حدثت بينهما مشادة أومشاجرة قضت على صداقتهما ، وعاد فرانسوا إلى عرض الطريق ، ينظم قصيدة اعتذار. وتجول جنوبا إلى بورجس، واستبدل بقصيدة هدية من الدوق جون الثانى أمير بوربون ، وطوف حتى بلغ روسلون . ونحن نتصوره من شعره ، رجلا يعيش على الهبات والديون ، على الفاكهة والجوز والدجاج يلتقطها من المزارع على طوال الطريق ، يتحدث إلى الفتيات الريفيات وبنات الهوى فى الحانات . مغنياً أومصفراً على الطرق الكبيرة ، يراوغ الشرطة فى المدن . ثم لا نقع له على أثر مرة أخرى ، وإذا به يظهر فجأة بأحد السجون فى أورليان (١٤٦٠) وقد حكم عليه بالإعدام .

ولسنا نعرف ما الذى أوصله إلى هذا المصير ، وكل ما نعرفه أن مارى أميرة أورليان ابنة الدوق الشاعر ، دخلت فى يولية من هذا العام المدينة رسمياً ، وأن شارل احتفل بهذه المناسبة بأن أعلن عفواً عاماً عن المسجونين . فانتقل فيون من الموت إلى الحياة فى نشوة من الفرح . وسرعان ما استبد به الجوع فعاد إلى السرقة ، فقبض عليه وحوسب على فراره المتنكر قبل ذلك — وزج به فى سجن ينفذ منه المطر فى قرية مونج — سير — لوار بالقرب من أورليان . وعاش هناك شهوراً مع الجرذان والضفادع يعض على شفته الممزقة ، ويقسم ليثأرن من عالم يعاقب اللصوص ويترك الشعراء يموتون

جوعاً . ولم يكن العالم كله قاسياً . فقد أصدر لويس الحادى عشر ، وهو يمر فى أورليان ، عفواً عاماً آخر ، وأخبر فيون أنه أصبح حراً ، فرقص على حصير السجن رقصة الفاندانجو(*) . واندفع إلى باريس أو قريباً منها ونظم إذ ذاك وهو عجوز أصلع مفلس فى الثلاثين . أعظم قصائده ، التى أسماها ببساطة « الأناشيد » ، وأطلق أعقابه عليها ، وقد وجدوا الكثير منها يصاغ مرة أخرى فى صورة وصايا تهكمية باسم « العهد الكبير » (١٤٦١ — ١٤٦٢) .

وهو يهب نظارته إلى المستشفى للمكفوفين المعوزين حتى يميزوا « إن استطاعوا » الطيب من الخبيث والعظيم من الوضيع ، بين العظام فى مدافن الأبرياء . وسرعان ما استولت عليه إبان حياته فكرة الموت . فتفجع على زوال الجمال وتغنى بأنشودة جميلات الأمس :

قل لى أين ، وفى أى أرض للظلال ،
تقيم فلورا الجميلة من روما ، وأين
تاييس وارشيبياد ،
بنتا العم بجمالهما النادر
والصدى ، وجماله الخارق
وهو الذى كلما ناداه المرء عند تدفق نهره
أوسار ، أجاب من خارج الأرض ؟
وماذا صار إليه جليد العام الماضى ؟

وهو يرى أن خطيئة الطبيعة التى لا تغتفر ، أن تفتننا بالمحبة ثم تذيبها بين أذرعنا . وأشد قصائده مرارة « مرثية الجميلة صانعة الخوذات » :

أين ذلك الجبين الواضح البلورى ؟
والحاجبان المقوسان والشعر الذهبى ؟

(*) رقصة أسبانية بالصنج .

والعينان البراقتان ، أين هذا الآن ،
وقد فتن أحكم الحكماء ؟
الأنف الصغير المستقيم الجميل ،
والأذن الصغيرة الرقيقة البديعة ،
أين الذقن الذى له طابع الحسن ، وأين
والشفتان المضمومتان الحمراوان الواضحتان ؟

ويستمر الوصف من فتنة إلى فتنة ، ولم يترك شيئاً ، ثم تذوي كل واحدة منها فى صلاة مرددة حزينة . . .

وتغضن النهدان وانقشعا ،
وانسحب الردفان كالنهدين
ولم يعد الفخذان فخذين ،
لقد ذبلت جميعاً كما ذبلت العضلات

ومن العجيب أنها تغنى هنا المنبار المحشو ، وهكذا لم يعد فيون يعشق الحب أوالحياة ، فيوصى بجسمه إلى التراب :

إننى أهب جسمى ، أيضاً
إلى الأرض ، جدتنا
وستجد الديدان فيه مع ذلك غنيمة صغيرة ؟
فقد أنهكه الجوع أعواماً طوالا .

ويترك كتبه إلى أبيه الذى تبناه معترفا بجميله ، وهدية وداعه لأمه العجوز ، أنشودة متواضعة ينظمها للعذراء . وهو يطلب الرحمة للجميع إلا الذين زجوا به فى السجن : الرهبان والراهبات والمهرجين والمغنين والحشم والشجعان ، « أيها الماجنون الذين يبرزون كل مفاتنهم . . أيها المشاغبون والمحتالون والبهلوانات المرحة ، والمهرجون يعرضون قردهم ، وينشرون محاجيدهم . . . الطيبون البسطاء الأحياء منهم والأموات — إننى أدعو بالرحمة الشاملة ، لكل فرد منكم وللجميع » . وهكذا . .

وهنا ختام عهد فيون (الكبير والصغير معا) .

ختام عهد فيون المسكين . . فعندما يطويه الموت ،
أناشدكم أن تحضروا جنازته ،
عندما يصلصل الجرس فوق الرؤوس . .
أيها الأمير ، الرقيق كصقر محول ،
اسمع ما صنعه مع آخر زفراته ،
لقد احتسى رشفة طويلة من رحيق النبيذ الأحمر ،
عندما شعر باقتراب منيته .

وعلى الرغم من هذه الوصايا وتحيات الوداع ، فإنه لا يستطيع أن يفرغ كأس الحياة متعجلا . وفى عام ١٤٦٢ عاد إلى جويوم دى فيون وأروقة الدين ، وابتهجت به أمه . ولكن القانون لم يغفل عنه . وطلبت كلية نافار أن يقبض عليه ، ووافقت على إخلاء سبيله بشرط أن يدفع نصيبه فى السرقة ، منذ ست سنوات — أى أن يدفع أربعين كراون سنوياً لمدة ثلاث سنوات . وكان سيئ الطالع فى ليلة إخلاء سبيله . لوجوده مع اثنين من رفاقه المجرمين القدامى ، عندما دفعهم السكر إلى شغب طعن فيه أحد القساوسة . ويبدو أن فيون كان لا مؤاخذة عليه فى هذا الأمر ، فانسحب إلى غرفته ، وصلى ينشد الطمأنينة ، ومع ذلك فقد قبض عليه مرة أخرى ، فعذب بصب الماء فى حلقه حتى كاد ينفجر ، ومما أدهشه أن يحكم عليه بالإعدام شنقاً . ولبث فى سجن ضيق ، أسابيع ، بين اليأس والرجاء وتوقع الموت لنفسه ولصاحبيه فأنشأ وداعا مؤثراً للعالم :

أيها الناس ، أيها الإخوة الذين يعيشون بعدنا ،
لا تجعلوا قلوبكم جد قاسية علينا ،
فإنكم إن منحتمونا نحن المساكين بعض حسراتكم ،
فإن الله سرعان ما يأخذ عنكم هذه الحسرات .

نحن هنا خمسة أو ستة معلقون ، كما ترون ،
وهنا اللحم ، الذى كان كله حسن الغذاء ،
مأكولا متعفناً قطعته بعد ، مقطعاً ممزقاً ،
ونحن العظام نصير مع الجميع إلى تراب ورماد ،
لا تدعوا أحداً يضحك علينا نحن الأشقياء ،
بل ادعوا إلى الله أن يغفر لنا جميعاً . .
لقد غمرنا المطر وغسلنا نحن الخمسة جميعاً ،
وجففتنا الشمس وأحرقتنا ، نعم ، هلكنا ،
فالغربان والجوارح بمناقيرها التى تشوه وتمزق ،
قد سملت أعيننا ، وانتزعت لحانا وحواجبنا
أجراً لها ، لن نكون أحراراً أبداً ،
ولا مرة واحدة ، لنستريح ، وإنما تتعجلنا هنا وهناك
وتستاقنا بإرادتها الغشوم الرياح المتقلبة ،
وتنقرنا الطيور أكثر مما تنقر الفاكهة على أسوار البساتين ،
أيها الناس ، أقسم عليكم بحب الله ، ألا تدعوا كلمة سخر تقال هنا ،
ولكن ادعوا الله أن يغفر لنا جميعا .

وكان لا يزال عنده بصيص من الأمل ، فألح فيون على سجانه أن يحمل رسالة إلى أبيه الذى تبناه ، ليحمل إلى محكمة البرلمان استئنافا لحكم واضح الظلم . وتدخل جويوم دى‌فيون من أجل الشاعر مرة أخرى ، وهو الذى يستطيع أن يغفر للناس مرات ومرات ، فلابد أن تكون للشاعر بعض الفضائل تشجع على حبه . وفى الثالث من يناير عام ١٤٦٣ ، نطقت المحكمة بحكمها وأمرت بالآتى : . . يلغى الحكم السابق ، وبعد أن وضعت

فى الاعتبار سوء خلق فيون المذكور – ينفى عشر سنوات من المدينة . . وكونتية باريس » . فشكر فرانسو المحكمة فى نشيد مرح ، والتمس مهلة ثلاثة أيام « للإعداد لرحلتى ووداع قومى » . فسمح له بذلك ، وأغلب الظن أنه رأى أباه وأمه للمرة الأخيرة . وجمع أمتعته ، وأخذ زجاجة النبيذ وكيس النقود اللذين أعطاهما إياه جويوم الطيب ، وتلقى بركاته وخرج من باريس ومن التاريخ . ولم نعد نسمع عنه شيئاً بعد ذلك .

كان لصاً ، ولكنه كان لصاً مطرباً ، والعالم فى حاجة إلى الطرب . وكان يستطيع أن يكون فظاً مريراً كما فى أنشودة « مارجو البدينة » ورمى النساء اللائى لا يستجبن لرغباته بالأوصاف المفحشة ، وكان يتجاوز الحد فى تصريحه بتفاصيل الجسم الإنسانى . ونحن نستطيع أن نغتفر هذا كله من أجل الآثام التى اقترفت فى مقابل آثامه ، والرقة المنبعثة من روحه دائماً ، والموسيقى الشجية فى شعره . ولقد دفع عقوبة ما كان عليه ، وخلف لنا المثوبة فقط .

الفصل الخامس

انجلترا فى القرن الخامس عشر

١٣٩٩ ـ ١٥٠٩

١ ـ الملوك

ماكاد يجلس هنرى الرابع على العرش ، حتى تحدته الثورة . فلقد تخلص أوين جلن دُوير من السيطرة الإنجليزية فى ويلز إلى حين (١٤٠١—١٤٠٨) ، ولكن هنرى الذى أصبح فيما بعد الملك هنرى الخامس ، وكان يوم ذاك أمير ويلز ، تغلب عليه بخطة عسكرية مباغتة ، ومات أوين جلندوير ، بعد لحظات من تبليغه العفو الكامل عنه ، من المنتصر الشهم وذلك بعد أن أمضى ثمانى سنوات مطارداً فى حصون ويلز ونجادها . وقاد هنرى برسى ايرل نورثمبرلند ، بعض نبلاء الشمال فى ثورة ، أراد لها أن تساير فى الزمن ثورة أوين جلندوير ، ضد ملك لم يستطع أن يفى بالعهود التى قطعها لهم على نفسه ، فى مقابل معاونتهم إياه على خلع رتشارد الثانى ؛ وقاد هارى ، الابن المستهتر للايرل ، الملقب « بالمهماز الحاد » (وهو الذى صوره شكسبير شخصية محبوبة بلا مبرر) قوة عسكرية مترددة غير كافية ضد الملك فى شروزبرى (١٤٠٣) ، وهناك مات الفتى فى بطولة حمقاء ، وأبلى هنرى الرابع فى الصفوف الأولى من القتال بلاء حسناً ، وأظهر ابنه « أمير هل » المرح المتلاف شجاعة جديرة بالظفر بأجنكورت وفرنسا . ولم تترك هذه الثورات وغيرها من المتاعب لهنرى إلا فسحة ضئيلة من الوقت أو الحماسة للسياسة ، وكانت موارده أقل من نفقاته ، كما اختلف بلا كياسة مع البرلمان ، وختم ملكه بين الفوضى المالية وأصابته بمرض

الجذام، وهبوط المستقيم والمرض التناسلي . قال هولنشد « انه انتقل إلى جوار ربه فى السادسة والأربعين من عمره . . فى ارتباك عظيم ومتاع قليل » .

وتذهب الروايات ويذهب شكسبير إلى أن هنرى الخامس قد أمضى شبابا طليقاً ماجنا ، وأنه تآمر للاستيلاء على العرش ، حتى على أب ، أقعده المرض وإن تشبث بالسلطان . ويكتفى المؤرخون المعاصرون بمجرد الإشارة إلى ملذاته ، ولكنهم يؤكدون لنا ، أنه بعد توليه العرش « تحول إلى رجل آخر ، ودرس كيف يكون أمينا شجاعاً مهذباً » . وهذا العابث مع السكارى والخليعات ، يقف نفسه الآن ، على قيادة عالم مسيحى موحد ضد الأتراك الزاحفين ، وأضاف إلى ذلك أنه يجب أولا أن يغزو فرنسا ولقد حقق غايته القريبة بسرعة مذهلة ، وهكذا جلس أحد الملوك الإنجليز على عرش فرنسا لحظة مضطربة . وقدم له الأمراء الألمان فروض الولاء وفكروا فى تنصيبه إمبراطوراً . وقد نافس قيصر بصورة مجملة فى وضع خطط المعارك ، وإمداد جيوشه بالمؤونة ، وحب جنده له . وفى تعريض نفسه لجميع الوقائع والأجواء . ومات فجاءة بالحمى فى بوادى فنسن (١٤٢٢) ولما يزل شاباً فى الخامسة والثلاثين .

وأنقذ موته فرنسا ، وكاد يقوض أركان انجلترا . وربما كانت شعبيته تغرى ، دافعى الضرائب بإنقاذ الحكومة من الإفلاس ، ولكن ابنه هنرى السادس كان ، عند توليه العرش ، فى الشهر التاسع من عمره فقط ، وكانت النتيجة السيئة أن أغرق نواب الملك الفاسدون والقادة غير الأكفاء ، الخزانه فى دين تعجز عن تسديده . كما كان الحاكم الجديد أقصر باعا من الملك ، فهو دارس دقيق عصبى المزاج شغوف بالدين والكتب ، ترتعد فرائصه من فكرة الحرب ، وندب الإنجليز حظهم العاثر الذى أفقدهم ملكاً وأكسبهم قديساً . . وفى عام ١٤٥٢ أصيب هنرى السادس بالجنون على منوال شارل السادس ملك فرنسا . ووقع وزراؤه بعد عام واحد ، صلحاً يعترف بهزيمة انجلترا فى حرب المائة عام .

وحكم رتشارد ، دوق يورك ، عامين باعتباره حامياً للملك : وصرفه هنرى عن منصبه (١٤٥٤) فى لحظة من لحظات التعقل ، فادعى الدوق الغاضب ، العرش لأنه من نسل إدوارد الثالث ، واتهم الملوك من أسرة لانكستر بأنهم مغتصبون ، وانضم إلى سالسبورى وورك وغيرهم من البارونات فى حروب الوردتين — الوردة الحمراء تمثل آل لانكستر والبيضاء آل يورك — التى ظلت إحدى وثلاثين سنة (١٤٥٤ — ١٤٨٥) يتحرش فيها النبيل بالنبيل وكأنما تقدم الأرستقراطية الأنجلونو رماندية على انتحار متواصل ، وتركت انجلترا فقيرة ومنعزلة ، وكان لابد أن يسرح الجنود نتيجة لسلام غير مألوف لهم ، فكرهوا أن يعودوا إلى زمر الفلاحين ، وانضموا إلى كل من الفريقين ، ونهبوا القرى والمدن ، وقتلوا بلا وازع من ضمير كل من يقف فى طريقهم . وقتل دوق يورك فى موقعة عند ويكفيلد التى ذكرها جولدسمث فى روايته المشهورة(*) (١٤٦٠) ، ولكن ابنه إدوارد ايرل مارش ، استمر فى الحرب بلا رحمة ، وذبح جميع الأسرى ، المنتسبين وغير المنتسبين ، بينما قادت مرجريت أميرة أنجو ، والزوج العقيم لهنرى الطيب ، آل لانكستر فى دفاعهم عن حوزتهم فى وحشية لا تعترف بالحياء وانتصر مارش فى توتن (١٤٦١) ، فقضى بذلك على أسرة لانكستر المالكة ، وأصبح أول ملك من أسرة يورك ، وتلقب بإدوارد الرابع .

ولكن الرجل الذى حكم انجلترا فى واقع الأمر ، السنوات الست التالية ، هو رتشارد نيفيل ، ايرل وروك . وهو رأس عشيرة غنية كبيرة العد ، وكانت له شخصية أسرة محببة ، كما كان داهية فى السياسة ، بارعاً فى الحرب ، فإن الفضل إنما يرجع إلى « وروك صانع الملك » فى الانتصار فى توتن ، وهو الذى أجلس إدواد على العرش . ووقف الملك التى استراح من الصراع ،

(*) رواية قسيس ويكفيلد

لنفسه على النساء ، فى حين أحسن ورويك الحكم حتى إن انجلترا بأسرها جنوبى تاين وشرقى ستون (لأن مارجريت كانت لا تزال تحارب) أسبغت عليه جميع ألقاب التشريف ما عدا لقب الملك . ولما ثار إدوارد على الواقع وناصبه العداء ، انضم ورويك إلى مارجريت وطرد إدوارد من انجلترا وأعاد هنرى السادس إلى السلطة الإسمية (١٤٧٠) وأخذ يحكم مرة أخرى . ولكن إدوارد نظم جيشاً بمعونة برجنديا . وعبر إلى هل ، وهزم ورويك وقتله فى بارنت وهزم مارجريت فى توكسبرى (١٤٧١) وأمر بقتل هنرى السادس فى القلعة ، وعاش سعيداً فى آخر حياته بعد ذلك .

وكان إذ ذاك لا يزال فى الواحدة والثلاثين من عمره . ولقد وصفه كومين بقوله « كان من أجمل رجال عصره ، لا متعة له غير النساء والرقص والتسلية والقنص » . ولقد أفعم خزانته بمصادرة ضياع آل نيفيل ، وبقبول رشوة من الملك لويس الحادى عشر فى مقابل الصلح معه مقدارها مائة وخمسة وعشرون ألف كراون مع وعد بخمسين ألفاً أخرى كل سنة . وبلغ من طمأنينته أن تجاهل البرلمان ، الذى كانت فائدته بالنسبة إليه ، الموافقة على ما يريد من المال . وأحس بالاستقرار ، فاستسلم مرة أخرى للترف والخمول ، ولبس الفاخر من الثياب ، وأصبح سميناً مرحاً ، ومات فى الواحدة والأربعين من عمره ، وقد بلغ أوج سلطانه واكتملت جوانب شخصيته (١٤٨٣) .

وخلف ولدين : إدوارد الخامس البالغ من العمر اثنتى عشرة سنة ، ورتشارد، دوق يورك ، فى التاسعة . وكان عمهما رتشارد ، دوق جلوسستر، خدم الدولة فى السنوات الست التى خاتت رئيساً للوزارة ، فى جد وورع وبراءة ، حتى إنه لما نصب نفسه نائباً للملك ، وافقت انجلترا عليه بلا معارضة ، على الرغم من أطرافه المشوهة وظهره المقوس وملامحه الجافية وكتفه اليسرى المرتفعة على كتفه اليمنى . وسواء أكان الباعث نشوة السلطان

أو مجرد الشك فى تدبير المؤامرات لخلعه ، فإن رتشارد سجن عدداً من الأعيان ، وأعدم أحدهم . وفى السادس من يوليو عام ١٤٨٣ توج نفسه ملكاً باسم رتشارد الثالث ، وفى الخامس عشر من الشهر نفسه قتل الأميران الصغيران فى القلعة ، ولم يعرف أحد من الذى قتلهما . وثار النبلاء مرة أخرى ، يقودهم فى هذه المرة ، هنرى تيودور ، ايرل رتشمند . ولما التقت قواتهم الصغيرة ، بجيش الملك ، المتفوق فى العدد إلى حد كبير فى بوسورث (١٤٨٥) ، رفض معظم جنود رتشارد القتال ، وما[illegible] ـطاردة يائسة ، مفتقراً إلى الملك وإلى جواد . . وانتهت بذلك أسرة يورك المالكة ، وبدأ ايرل رتشمند ، أسرة تيودور وتلقب بالملك هنرى السابع ، وهى الأسرة التى تنتهى بإليزابث .

ومارس هنرى ، تحت وطأة الضرورة ، الفضائل والرذائل التى تصور له أن منصبه يتطلبها . ولقد رسم له هلبين صورة جدارية فى هوايت هول يبدو فيها طويلا ، ممشوقاً لا لحية له ، مفكراً عطوفاً . لا تكاد تنم ملامحه على التدبير الماكر الغامض ، والكبرياء العبوس الثابتة ، والعزيمة المرنة وإن كانت صلبة فى مصابرتها ، وهى الصفات التى نقلت إنجلترا من الانحلال والفقر ، فى عهد الملك هنرى السادس ، إلى الثروة والسلطة المركزة فى عهد هنرى الثامن . ويقول بيكون إنه كان يحب « ما تجلبه الخزائن المفعمة للناس من غبطة » ، لأنه عرف قدرتها على الإقناع فى السياسة . فبرع فى فرض الضرائب على الأمة ، واستنزف دماء الأغنياء بالصدقات والهدايا بالإكراه ، واستغل الغرامات فى شراهة لتكون مورداً لخزانته ورادعاً للجريمة ، وكان يبتهج كلما رأى القضاة يلائمون بين الغرامة وبين جيب المحكوم عليه ، لا بينها وبين المخالفة . وهو أول ملك إنجليزى منذ عام ١٢١٦ جعل نفقاته فى حدود دخله ، وصدقاته وهباته تخفف من وطأة شحه . ووقف نفسه بإخلاص على شئون الإدارة ، وقلل من ملاهيه ليستكمل

عمله : وأظلم الشك الدائم حياته ، ولم يكن ذلك بغير سبب ، فلم يثق فى أحد ، وكان يخفى أغراضه ، ويحقق أهدافه بوسائل مشروعة أو غير مشروعة . وأنشأ محكمة ستارتشمبر لمحاكمة النبلاء المشاغبين ، الذين بلغ سلطانهم حداً يخشى منه على التأثير فى القضاة المحليين والمحلفين . وذلك فى جلسات سرية . واستطاع عاماً بعد عام أن يخضع الأرستقراطية المتخلفة ، وطبقة رجال الدين الخائنة للملكية . وعارض بعض الأفراد الأقوياء ، القضاء على الحرية وتعطيل البرلمان ، ولكن الفلاحين صفحوا ، عن ملك كبح جماح سادتهم ، وأثنى الصناع والتجار عليه ، لعمله الحكيم على النهوض بالصناعة والتجارة : ولقد وجد انجلترا فى فوضى إقطاعية ، وحكومة جد فقيرة ، لا سمعة لها بحيث تحصل على الطاعة أو الولاء ، وخلف لهنرى الثامن دولة محترمة منظمة ، مؤتمنة موحدة وفى حالة سلم » :

٢ — نمو الثروة الإنجليزية

من الواضح أن ثورة عام ١٣٨١ العظيمة لم تسفر عن كسب ما . فلم يزل الكثير من فروض العبودية يؤخذ قسرا ، بل إن مجلس اللوردات قد رفض بعد ذلك بزمان ، فى عام ١٥٣٧ قانوناً يقضى بالتحرير الكامل لعبيد الأرض . وازداد الضيق على « العامة » ، وأصبح آلاف من رقيق الأرض المتحررين عمالا يدويين فى المدن لا يملكون شيئاً ، وقال توماس مور ، إن الأغنام كانت تأكل الفلاحين . وكانت هذه الحركة طيبة من بعض الوجوه : فقد كانت الأغنام الراعية للكلأ ، تسمد الأرض المشرفة على البوار . وما إن جاء عام ١٥٠٠ حتى كان واحد فى المائة من السكان فقط عبيد أرض . فنشأت طبقة من الفلاحين الملاك ، الذين يزرعون أرضهم بأنفسهم وهى التى منحت تدريجياً للرجل الإنجليزى العادى ، الشخصية المستقلة القوية التى صهرت الكومنولث وكونت دستوراً غير مكتوب لحرية غير مسبوقة .

ولم يعد النظام الإقطاعي مجدياً ، لأن الصناعة والتجارة ارتقتا بحيث اتخذتا الطابع القومى ، وتحولتا إلى اقتصاديات المال المنقول المرتبطة بالتجارة الخارجية . فحينما كان رقيق الأرض ينتج لسيده ، لم يكن عنده إلا حافز ضئيل للتوسع أو الإقدام ، ولكن عندما يستطيع الفلاح المتحرر والتاجر ، أن يبيعا إنتاجهما فى السوق الحر ، فإن الرغبة الملحة فى الربح تبعث الحياة الاقتصادية فى الأمة ، وأخذت القرى ترسل مزيداً من الطعام إلى المدن ، وتنتج المدن مزيداً من السلع للوفاء بثمن هذا الغذاء ، وهكذا تجاوز تبادل الفائض ، حدود البلديات القديمة وقيود النقابات لتغمر إنجلترا ، وتصل إلى ما وراء البحار .

وتحولت بعض النقابات إلى « شركات تجار » صرح الملك لها أن تبيع المنتجات الإنجليزية فى الخارج . وكانت معظم التجارة الإنجليزية تحمل فى القرن الرابع عشر على سفن إيطالية ، أما الآن فإن البريطانيين يبنون سفنهم ، ويسيرونها فى بحر الشمال والساحل الأطلسى والبحر الأبيض المتوسط . وقاوم تجار جنوه والاتحاد الهنسياتى ، أهؤلاء الوافدين الجدد ، وحاربوهم بالقرصنة ومصادرة السفن ، ولكن هنرى السابع ، اقتنع بأن تقدم إنجلترا يتطلب التجارة الخارجية ، فوضع الملاحة الإنجليزية فى حماية الحكومة ، وأعد مع أمم أخرى ، اتفاقيات تجارية ، أقرت النظام والأمن البحريين . حتى إذا وافى عام ١٥٠٠ ، كان « التجار المغامرون » فى إنجلترا ، يسيطرون على بحر الشمال . وكان الملك بعيد النظر فأوفد وهو يستشرف التجارة مع الصين واليابان الملاح الإيطالى جيوفانى كابوتو ، الذى عاش إذ ذاك فى بريستول باسم جون كابوت ، ليبحث عن ممر شمالى عبر الأطلنطى (١٤٩٧) . وقنع كابوت ، باكتشاف نيوفوندلاند ، والساحل من لبرادور إلى ديلاوير فى رحلة ثانية (١٤٩٨) ، ومات فى تلك السنة ، وتحول ابنه سيباستيان إلى خدمة اسبانيا . وربما لم يدرك الملاح والملك أن هذه الرحلات ، استهلت

التوسع الإمبراطورى البريطانى ؛ وفتحت للتجارة الإنجليزية والمستعمرين البريطانيين ، إقليما يمكن أن يصبح على الأيام — القوة والخلاص لانجلترا .

ودعّمت الرسوم الجمركية الوقائية ، الصناعة القومية ، وخفض النظام الاقتصادى ، سعر الفائدة ، تخفيضا كبيراً بلغ ٥ ٪ أحيانا ، ونظمت القوانين الحكومية تنظيما صارماً الأجور وأحوال العمل . وقضى قانون هنرى السابع (١٤٩٠) بـ :

« على كل رئيس عمل أو عامل أن يكون فى عمله ، بين منتصف شهرى مارس وسبتمبر ، قبل الساعة الخامسة صباحا ، وله نصف ساعة فقط لتناول الإفطار ، وساعة ونصف لغذائه (فى الظهيرة) وهو يستطيع النوم ، إن وجد فسحة له فى تلك الفترة . . وعليه ألا يترك عمله . . إلا بين الساعة السابعة والثامنة مساء . . ، وعلى كل رئيس عمل وعامل أن يكون فى عمله عند انبلاج الصبح وذلك فى منتصف سبتمبر إلى منتصف مارس ، وألا يغادره إلا بمجىء الليل . . ولا يسمح لأحدهم بالنوم نهاراً » .

ومع ذلك فإن العمال كانوا يستريحون ويشربون الخمر أيام الآحاد ، إلى جانب أجازة أربع وعشرين يوماً فى السنة . ووضعت الدولة أسعاراً عادلة « لكثير من السلع ، وقد سمعنا عن اعتقالات حدثت ، لتجاوز هذه الأسعار . وكانت الأجور الحقيقية ، بالنسبة إلى الأسعار ، أعلى بشكل واضح فى أواخر القرن الخامس عشر ، عما كانت عليه أوائل القرن التاسع عشر .

وأدى ضغط ثورات العمال فى انجلترا ، إبان ذلك العصر إلى الحصول على حقوق سياسية والوقوع فى أخطاء اقتصادية واستمرت دعوة شبيهة بالشيوعية فى كل سنة تقريباً ، وذكر العمال مراراً « بأنكم مخلوقون من نفس الطينة والمادة اللتين خلق منهما الأشراف ، فلماذا إذن يتريضون ويلعبون ، وأنتم تعملون وتكدحون ؟ — ولماذا يملكون الكثير جداً مما فى هذا العالم من ثروات وكنوز ، وأنتم تملكون أقل القليل ؟ » وكانت أعمال الشغب

كثيرة ، ضد التضييق على الأرض المشاع ، كما قامت خلافات موسمية بين التجار والعمال ، ولكننا نسمع أيضاً عن قلاقل من أجل الديمقراطية المحلية فى المدن ، وعن تمثيل العمال فى البرلمان وعن تخفيض الضرائب .

وفى شهر يونيه عام ١٤٥٠ ، سارت قوة كبيرة منظمة من الفلاحين وعمال المدن إلى لندن ، وعسكرت فى بلاك هيث . وعرض زعيمهم جاك كيد ظلاماتهم ، فى وثيقة منظمة « إن جميع الناس من العامة ، لا يستطيعون أن أن يعيشوا من كد أيديهم وفلاحتهم ، بسبب الضرائب والمغارم وغيرها من المظالم » . ولابد أن يلغى هذا الدستور العالى ، وأن تتألف وزارة جديدة . فاتهمت الحكومة زعيمهم كيد بالدعوة إلى الشيوعية(*) .

والتقى جنود هنرى السادس ، وأتباع بعض النبلاء ، بجيش الثوار فى سفنوكس (١٨ يونيه سنة ١٤٥٠) ومما أثار دهشة الجميع أن الثوار انتصروا وتدفقوا إلى لندن . وأمر مجلس الملك تهدئة لخواطرهم باعتقال لورد ساى ووليم كرومر ، وهما موظفان مكروهان لابتزازهما الأموال وطغيانهما . وفى الرابع من يوليه ، سلما إلى الغوغاء الذين حاصروا القلعة ، فحاكمهما الثوار ، وقد رفضا الدفاع عن نفسيهما وأعدما . ويقول هولنشد : إن الرأسين رفعا على قضيبين ، وحملا عبر الطرقات فى موكب مرح ، وكان فم كل منهما يصفع بقبلة دامية ، بين حين وآخر . وتفاوض كبير أساقفة كانتربرى وأسقف ونشستر للصلح ، الذى منح بعض المطالب ووعد بالعفو العام . ووافق الثوار وتفرقوا . ومع ذلك فقد هاجم جاك كيد قلعة كوينز بورد فى شيبى ، فاعتبرته الحكومة خارجا على القانون ، وأصيب بجرح مميت وهو يقاوم اعتقاله وذلك فى الثانى عشر من يوليه . وحكم على ثمانية من المتواطئين معه بالإعدام وعفا الملك عن الباقين ، فابتهج كافة رعاياه ابتهاجاً عظيما » .

(*) انظر صورة شكسبير الساخرة لجاك كيد : « سيكون هناك فى انجلترا سبعة أرغفة من التى بنصف بنس تباع ببنس كامل ... وسأجعلها من الكبائر احتساء زجاجة الجعة الصغيرة ، إن كل شيء سيكون مشاعا . . .

٣ ـ الأخلاق والطباع

كتب سفير البندقية حوالى عام ١٥٠٠ ، تقريراً إلى حكومته :

« معظم الإنجليز — سواء أكانوا رجالا أم نساء ، وفى جميع الأعمار — حسان وأجسامهم ممشوقة . . وهم يحبون أنفسهم حباً عظيما ، ويحبون كل شيء يتعلق بهم ويعتقدون ، أنه ليس فى الناس سواهم ، وليس هناك عالم آخر سوى انجلترا ، وكلما رأوا غريباً جميلا قالوا « إنه يشبه الإنجليزى ، ومن الأسف الشديد أنه ليس كذلك » .

وقد يجيب الإنجليز ، بأن معظم هذا الوصف ، بشيء من التعديل الضرورى ينطبق على كل الشعوب . . ومن المؤكد أنهم كانوا شعباً قوياً فى الجسم والأخلاق والحديث . وهم يقسمون بحرارة حتى إن جان دارك أسمتهم دائماً الملاعين .

وكان النساء أيضاً يتكلمن ببساطة ، ويتحدثن عن مسائل فسيولوجية وجنسية بحرية ، قد تذهل السفسطائيين اليوم . ومزاجهم كحديثهم خشن مفحش . وطباعهم جافية ، حتى عند الطبقة الأرستقراطية ، وعليهم أن يدربوا ويستأنسوا ، بقانون ساوكى صارم . ولقد نشأت الروح الشهوانية التى اتسم بها الإنجليز فى عهد أليزابث فى القرن الخامس عشر ، نتيجة لحياة يكتنفها الخطر والعنف والقحة . وكان على كل امرئ أن يكون شرطى نفسه ، مستعداً أن يقابل الصفعة بالصفعة ، وأن يقتل عند الضرورة برباطة جأش . وهؤلاء الحيوانات القوية نفسها يمكن أن تكون كريمة ، شهمة ، ورقيقة فى بعض الأحيان . فلقد بكى محاربون جفاة ، عندما مات سيرجون تشاندوس وهو فارس مغوار ، وتظهر رسالة مارجريت باستون إلى زوجها المريض (١٤٤٣) ، كيف يكون الحب ، لا عصر له ولا يضارعه شيء .

ويجب أن نذكر أن هذه السيدة نفسها ، قد هشمت رأس ابنها ، عندما رفضت أن تتزوج من اختاره أبواها .

ونُشّئت البنات فى حصانة رصينـــة واحتشام ، لأن الرجال كانوا حيوانات مفترسة ، وكانت العذرة عدة اقتصادية فى سوق الزواج . ويعد الزواج حادثاً من أحداث تنقل المتاع . فالفتيات قد يتزوجن زواجاً شرعياً فى سن الثانية عشرة ، والصبيان فى سن الرابعة عشرة ، حتى بغير موافقة والديهم ، ولكن الخطبة كانت تعد فى الطبقات العليا تعديلا للمعاملات المالية ، بوساطة الآباء والأمهات ، عقب بلوغ الأطفال السنة السابعة من العمر مباشرة . وما دام زواج الحب شاذاً ، والطلاق محرماً ، فقد شاع الزنا ، وبخاصة فى الطبقة الأرستقراطية . ويقول هولنشد : « لقد سادت هناك ، الرذيلتان الوبيئتان السكر والزنى ، مع الفحش البغيض ، وبخاصة عند الملك » واختار إدوارد الرابع ، بعد أن مر بتجارب عديدة فى الحب ، جين شور ، لتكون الحظية الأثيرة لديه . ولقد خدمته بإخلاص نزق ، وأثبتت أنها صديقة رحيمة فى البلاط لكثيرين من ذوى الحاجات . ولما مات إدوارد ، أرغمها رتشارد الثالث أن تجوب شوارع لندن ، فى ثوب الندم الأبيض وربما كان ذلك استعراضاً لآثام أخيه ، وإخفاء لآثامه هو ؛ وعاشت حتى بلغت أرذل العمر ، محتقرة مبغضة من أولئك الذين ساعدتهم .

ولم يحدث فى التاريخ المعروف إطلاقاً أن شعباً كان يماثل الإنجليز (الذين يتشبثون بالقانون اليوم) فى استهتارهم إذ ذاك بالقانون إلى حد بعيد . ولقد جعلت حرب المائة سنة الناس قساة مستهترين ، واستمر النبلاء بعد عودتهم من فرنسا ، يحاربون فى إنجلترا ، واستخدموا جنوداً مسرحين فى منازعاتهم . وشارك أبناء الطبقة العايا ، التجار الجشعين الذين داسوا كل فضيلة للحصول على المال . وكانت السرقات لا تحصى . وباع التجار الردىء من السلع واصطنعوا الزائف من الموازين ، وكاد

التدليس فى نوع الصادرات ومقدارها يقضى على تجارة انجلترا الخارجية ، فى فترة من الفترات . واستغلت التجارة فى البحار القرصنة ، وكانت الرشوة عامة أو تكاد : وقلما يحكم القضاة دون أن يحصلو على « هدايا » ، وكان جباة الضرائب يرشون ، تيسيراً للتخلص منها ، ويطلب إلى الضباط المجندين مثل فولستاف الذى صوره شكسبير ، أن يتغاضوا عن مدينة من المدن ، فقد استطاع الأعداء ، أن يشتروا جيشاً إنجليزياً ، كان يغزو فرنسا ، واشتد جشع الناس للمال وقتذاك إلى حد الجنون كما هو الآن ، وأنكر شعراء مثل تشوسر الجشع فى شعرهم ، ولكنهم مارسوه فى واقع حياتهم وكان من الممكن أن يتقوض الكيان الأخلاقى للأمة ، لولا أن أسسه قد دعمتها حياة البساطة التى اتسم بها الرجل والمرأة فى الطبقة العامة ، ففى الوقت الذى كان فيه من هم أفضل منهم ، يدبرون الحروب والشرور لذلك العصر ، احتفظ هؤلاء العامة بالحياة المنزلية وحافظوا على الجنس .

وعاشت جميع الطبقات ، ما عدا التجار والعمال ، فى الريف أطول مدة يستطيعونها كل سنة . وتحولت القلاع التى لم تعد حصينة ، بعد انتشار المدفع ، ببطء إلى منازل كبيرة . وحل الآجر محل الحجر ، ولكن البيوت المتواضعة ، كانت لا تزال تقام من الخشب والطين . وفقدت الردهة الوسطى ، مساحتها وفخامتها القديمتين وهى التى كانت تستعمل فى يوم من الأيام لجميع الأغراض ، وتقلصت إلى دهليز يؤدى إلى غرفة معيشة كبيرة ، وغرف صغيرة ، وقاعة استقبال للحديث الخاص . ووضعت السجاجيد على جدران بيوت الأغنياء ، وأضاءت النوافذ ، وهى من زجاج ملون فى بعض الأحيان المدخل الذى كان مظلما من قبل . أما دخان الموقد الذى كان يتسرب قبلا من النافذة والباب والسقف ، فقد جمع فى مدخنة ، ومدفأة ضخمة تزين غرفة المعيشة . وقد تعلقت السقوف بالخشب والأرضيات بالبلاط ، فى حين ظلت السجاجيد قليلة نادرة . إذا نحن صدقنا أقوال إراسموس التى يغلب فيها الجانب الأدبى على الدقة فى التصوير .

«كانت جميع الأرضيات تقريباً من صلصال ، مفروشة بحصير من حلفاء المستنفعات ، وقليلا ما تجدد حتى إن الأسس تظل عشرين سنة ، تردد أسافلها بالبصاق والقىء من الناس والكلاب والنبيذ والجعة ، وبقايا السمك وغيرها من القاذورات التى لا تسمى ، ويتصاعد منها ، بتغير الفصول ، بخار غير صحى فى رأيى» .

وكانت المخادع فخمة مزينة بالنقوش المحفورة ، ومزودة بالأغطية عليها رسوم أزهار وتعلوها كُنَّة . كما كانت مائدة الطعام ، فى المنازل المريحة ، فنية ضخمة رائعة ، بنقوشها البارزة من خشب الجوز أو البلوط ويقوم بالقرب منها ، أو فى القاعة بصفة عامة ، صوان للأوانى أو الفضيات والتحف حيث ترتب للعرض أو الزينة . ونظمت ردهة الجلوس التى أعدت فى الأصل للحديث ، لتناول الطعام .

وكانوا يتناولون وجبات الطعام الرئيسية نهاراً ، وذلك للاقتصاد فى زيت الإضاءة و« الغداء » فى الساعة العاشرة صباحاً ، والعشاء فى الخامسة مساء . وحرص الرجال على ارتداء قبعاتهم عند الجلوس إلى المائدة ، ليمنعوا شعورهم الطويلة ، من مخالطة الطعام . واحتفظ بالشوك لأغراض خاصة مثل تناول الكامخ أو تجمير الجبن ، وظهر استعمال الإنجليز لها على النمط الحديث ، أول مرة عام ١٤٦٣ ، أما السكين ، فقد كان الضيف هو الذى يأتى بها معه ، يحملهما فى جراب ، معلق بمنطقته ، ويتطلب آداب السلوك إذ ذاك أن يصل الطعام إلى الفم ، بوساطة الأصابع . ولم تكن المناديل مستعملة ، حتى منتصف القرن السادس عشر ، فقد كان على الرجال أن يتمخطوا باليد التى تمسك السكين بدلا من تلك التى تنقل الطعام إلى الفم . وكانت الفوط غير معروفة ، ويحذر الطاعمون بألا ينظفوا أسنانهم بغطاء المائدة ، وكانت الوجبات دسمة ، ذلك أن الغذاء العادى لواحد من أصحاب الوجاهة ، كان يتألف من خمسة عشر أو عشرين صحناً . واحتفظ اللوردات

العظام بموائد عظام ، فقد كانوا يطعمون يومياً ، مائة من الندماء والزوار والحشم ، وكان وروك صانع الملك يذبح ستة ثيران كل يوم لمائدته ، وأطعم أحياناً خمسمائة مدعو . وكانت اللحم هى الطعام القومى والخضرات نادرة أو غير محبوبة . والجعة هى الشراب القومى ، ولم يكن النبيذ موفوراً أو منتشراً ، كما كان الحال فى فرنسا أو إيطاليا بيد أن المسموح به من الجعة ، هو جالون للفرد كل يوم حتى الراهبات . وقال السير جون فورتسكيو (توفى عام ١٤٧٠) « لا يشرب الإنجليز الماء ، إلا فى أوقات معينة لأغراض دينية . أو للتكفير عن ذنب .

وكان الرداء فاخراً عند الطبقة الأرستقراطية . أما البسطاء فكانوا يرتدون جلباباً فضفاضاً وقلنسوة ، أو معطفاً قصيراً يلائم العمل ، وكان الموسرون بالقبعات المكسوة بالفراء أو الريش ، وأردية مزينة بالزهور ، أو سترات مزركشة تنتفخ عند الأكمام ، وجوارب طويلة ، شكا منها قسيس تشوسر بقوله « تظهر الساقين فى صورة مفزعة منتفخة ينفتق إحداها عن الأخرى بالإضافة إلى أرداف . . وكأنها الجانب الخلفى من قردة فى ليلة مقمرة » . وارتدى تشوسر نفسه عندما كان تابعاً فى حاشية الملك ، سترة مشعة وجوربين أحدهما أحمر والآخر أسود . واختفت فى القرن الخامس عشر الأحذية المدببة ، التى شاعت فى القرن الرابع عشر ، واستدارت الأحذية واتسعت عند الأصبع الكبير من القدم . أما « زى النساء » فهو يثير السخط ، وعلى الرغم من أن محيا بعضهن ، ينم على العفة والطيبة الكاملتين ، إلا أنهن يبرزن بقلة ردائهن غير المتناسق فتنتهن ودلالهن » . ومع ذلك ، فإن الصور التى وصلت إلينا ، تظهر الجنس المثير ، وقد حبس بإحكام فى حشد من الملابس من قمة الرأس إلى أخمص القدم .

وتراوحت ألعاب التسلية فى الداما والشطرنج ، إلى النرد ، ومن صيد السمك إلى قنص الوحوش ، ومن رمى السهام إلى المبارزة . ودخلت لعبة

الورق إلى إنجلترا حوالى نهاية القرن الخامس عشر، وهم لا يزالون يلبسون ملوكهم وملكاتهم ، على طراز ذلك العصر . وكان الرقص والموسيقى شائعين كالميسر ، وكل إنجليزى تقريباً ، يشارك فى الأغانى الجماعية ، ولقد نافس هنرى الخامس جون دستيبل ، مع أعاظم الملحنين لذلك العهد . واعترفت القارة الأوروبية بالمغنين الإنجليز . ولعب الرجال التنس، وكرة اليد وكرة القدم وغيرها من ألعاب الكرة القديمة ورمى الأطواق ، وتصارعوا وتلاكموا ، وأعدوا الديكة للعراك ، وتراهنوا وتحرشوا بالدببة والثيران . واحتشد الناس لمشاهدة البهلوان والسائرين على الحبال يعرضون فنونهم التى كانت تسرى عن القدماء ، وتدهش المحدثين . واحتفظ الملوك والنبلاء بالمشعوذين والمضحكين والمهرجين ، وكان الملك أو الملكة يعينان من يشرف على ألعاب ومشاهد عيد الميلاد ، ومنحوه لقب لورد . والنساء يخالطن الرجال فى حرية فى كل مكان . يحتسين الخمر فى الحانات ، يركبن وراء كلاب الصيد ، ويصدن بالصقور ، ويصرفن المشاهدين عن المتصارعين فى بعض الدورات ، وهن اللائى قادتهن الملكة للتحكيم فى رمى الأطواق ومنح التاج الذهبى .

وكانت الرحلة لا تزال مجهدة ، ولكن ما من أحد استقر فى داره ، على ما يبدو — وذلك من مساوئ الزواج من واحدة . والطرق موحلة أو متربة ، ولم يميز اللصوص بين عنصر جنس وطبقة أو مهنة . والفنادق بهيجة المنظر على الرغم من قذارتها تزدحم فيها الصراصير والفئران والبراغيث . ويجد كل رجل نهم بائعة هوى ، وقلما تجد الفضيلة مخدعاً صالحاً لها هناك . يذهب الفقراء راجلين والأوساط على صهوات الخيل ، فى جموع مسلحة عادة ، ويستعمل الأغنياء عربات ، تجرها خيول مطهمة ، ونسب ابتكارها إلى رجل مجرى فى قرية كوكر من أبناء القرن الخامس عشر . وكانت عربات اللوردات مزينة بالنقوش البارزة وموشاة بالرسوم ومذهبة ، لها حشيات

وستائر وبسط ، ومع ذلك فلقد كانت أقل راحة من ظهور الإبل ، وكانت تترنح كمركب صيد بشراع واحد . ولم تكن السفن خيراً مما كانت عليه فى العصر القديم ، ولعلها أسوأ حالا ، وأخذت السفينة التى جاءت بالملك جون من بوردو ، إلى لندن عام ١٣٥٧ اثنى عشر يوماً .

وانتشرت الجرائم وبلغت المدن من الفقر حداً لا تستطيع معه ، إلا أن تستخدم شرطة من المتطوعين غير المأجورين . ولكن الذكور كان يطالب إليهم جميعاً أن يسهموا فى « ملاحقة » مجرم هارب ، وكان يبحث عن الموانع فى الحكومات الصارمة من أجل القلة الذين يقبض عليهم ، وكانت عقوبة السطو والاختلاس والحريق العمد وانتهاك حرمة المعابد المقدسة ، كعقوبة القتل والتآمر ، وهى الشنق على أقرب شجرة ، وتترك الجثة ردعاً للآخرين وطعمة للغربان . وانتشر التعذيب — لكل من المتهم والشهود — إبان حكم إدوارد الرابع ، واستمر مائتى سنة . وكثر المحامون .

وقد يكون حكمنا على هذا العصر ممعناً فى القسوة ، متغافلين عن فظائع قرننا المتحضر . ولقد كان سير جون فورتسكيو القوام على العدالة فى عهد الملك هنرى السادس ، أحسن ظناً بعصره ، وكتب تمجيداً له مصنفين اشتهرا فى وقت من الأوقات : وفى محاورة امتدح قوانين انجلترا . ومجد صحة المحاكمة بوساطة المحلفين ، ونعى التعذيب ، وكان مثاله ، مثل آلاف الفلاسفة ، فى تحذير الأمراء الذين يجدر بهم أن يكونوا خدام الشعب المعتصمين بالقانون . ولقد وازن فى كتابه « الملكية » أو « حكومة انجلترا » بين فرنسا وانجلترا على أساس من العاطفة الوطنية : فالناس من فرنسا قد يحكم عليهم بغير محاكمة علنية : وقلما يدعى مجلس الولايات للاجتماع . والملك يفرض الضرائب على الحاجات الضرورية كالملح والخمر . وبعد أن بالغ فى تمجيد بلاده على هذا النحو ، ختم السير جون كلامه بقوله إن جميع الحكومات ، يجب عليها أن تخضع للبابا ولو أدى ذلك إلى تقبيل قدميه .

٤ ــ اللولارد

أعاد أرندل كبير الأساقفة عام ١٤٠٧ ، تأكيد سيادة الشريعة أو القانون الكنسى ، على كل تشريع وضعى ، وحكم بالكبيرة أو الهرطقة الكاملة على رفض أى مرسوم بابوى . وأقامت الكنيسة بعد ويكليف ، وازدادت قوتها فى انجلترا ، إبان القرن الخامس عشر ، وفاضت الثروة المتدفقة عن خزائنها . وشاع الاكتئاب الدينى : فإن الأشخاص الذين يتوقعون الموت ، كانوا يتبرعون لبناء كنيسة ، ولإقامة القداس للتعجيل بدخولهم الجنة . وسيطرت الكنيسة على مجلسى البرلمان ، فقد كان لها فى مجلس الشيوخ حوالى عشرين أسقفاً وستة وعشرين من رؤساء الأديرة ، فى حين لم يكن فى المجلس من غير رجال الدين سوى سبعة وأربعين عضواً . وأصر هنرى السابع — وهنرى الثامن فيما بعد — لموازنة ذلك الوضع على تعيين أساقفة ورؤساء أديرتها من بين رجال الدين ، ويسر اعتماد الرتب الكهنوتية على الملكية ، تسليم رجال الدين ، لجهود هنرى الثامن فى سبيل تحقيق السيادة الملكية على الكنيسة الإنجليزية .

وفى الوقت نفسه استقر وعاظ ويكليف المساكين على نشر أفكارهم المناهضة لرجال الدين . ولقــد ذكر أحد مؤرخى الأديرة ، فى فترة مبكرة ، ١٣٨٢ فى مبالغة تنم على الفزع « أنهم كانوا يتكاثرون بسرعة فائقة ، كالبراعم ، حتى عمروا المملكة بأسرها . . ومن النادر أن تلقى رجلين فى الطريق دون أن يكون أحدهما من تلاميذ ويكليف . ولقد وجدوا الجمهور المستعد للاستماع إليهم بين صفوف عمال الصناعة ، وبخاصة نساجى نورفولك . وفى عام ١٣٩٥ أحس جمــاعة اللولارد ، أنهم بلغوا من القوة حداً ، أتاح لهم أن يقدموا إلى البرلمان ، بياناً جريئاً بمبادئهم : فقد عارضوا عزوبة رجال الدين ، واستحالة القربان دم المسيح ولحمه

وعبادة الصور وزيارة القديسين والصلوات على أرواح الموتى ، وثروة الكنيسة وكثرة الموقوف عليها ، واستخدام رجال الكهنوت فى وظائف الحكومة وضرورة الاعتراف للقسس والاحتفال بالتعاويذ ، وعبادة القديسين . وأوصوا فى بيانات أخرى ، بأن الجميع يجب عليهم أن يعكفوا على قراءة الكتاب المقدس ، وأن يتبعوا تعاليمه باعتبارها فوق مراسيم الكنيسة . ورفضوا الحرب باعتبارها مناقضة للمسيحية ، والترف لأنه مناف للأخلاق ، وطالبوا بإصدار قوانين خاصة بالنفقات ، تفرض على الناس العودة إلى البساطة فى الغذاء والكساء ، وكرهوا الإيمان ، ووضعوا فى مقابل صفته القسم ، حيناً آخر مثل « أنا متأكد أن » و « إنها الحقيقة » ، وكان العقل الطهرى ووجهة النظر الطهرية ، يتخذان شكلهما فى إنجلترا قبل ذلك ، ولقد مزج نفر من الوعاظ ، الاشتراكية بعقيدتهم الدينية ، ولكن معظمهم ، كان ينفر من مهاجمة الملكية الخاصة ، وسعوا إلى تأييد الفرسان والنبلاء إلى جانب تأييد الفلاحين والعمال .

ومهما يكن من شيء فإن الطبقات العليا لم تستطع أن تنسى المأزق الشديد الذى نجت منه فى ثورة ١٣٨١ ، ووجدت الكنيسة فيهم ، استعداداً جديداً لحمايتها ، باعتبارهم قوة استقرار فى المجتمع . وهدد رتشارد الثانى ممثلى اللولارد فى البرلمان بالاعتقال وأكرههم على الصمت . وطالب أساقفة إنجلترا عام ١٣٩٧ ، الملك بإعدام الهراطقة المتعمدين « أسوة بجميع الممالك الخاضعة للدين المسيحى » . ولكن رتشارد الثانى ، كره أن يسايرهم إلى هذا المدى ، ومع ذلك فقد أصدر هنرى الرابع وبرلمانه عام ١٤٠١ المرسوم المشهور بحرق جميع الأشخاص الذين تحكم عليهم إحدى المحاكم الدينية بأنهم هراطقة بالإصرار ، وتباد جميع كتب الهرطقة . وفى العام نفسه ، أحرق وليام سوترى ، وهو قسيس على مذهب اللولارد ، بعد أن شد إلى القائمة الخاصة بالإحراق . وقبض على غيره من أنصار المذهب نفسه ، وأجبروا على

تغيير آرائهم وعوملوا برفق . وقدم أميرويلز ، إلى هنرى الرابع عام ١٤٠٦ ، عريضة تقضى بأن دعوة اللولارد ، وهجومهم على أملاك الأديرة يهددان كيان المجتمع بأسره . وأمر الملك بزيادة التشدد فى محاكمة المراطقة . ولكن انغماس الأساقفة فى سياسة البابوية ، جرف نشاطهم ، عن الهرطقة والمراطقة إلى حين . وفى عام ١٤١٠ أدانت الكنيسة جون بادبى ، وهو خياط لولاردى ، وأحرق فى سوق سمثفيلد . وقبل أن تشعل المحرقة ، رجا الأمير هال ، بادبى ، أن يرجع عن آرائه ، وأن يمنح فى مقابل ذلك الحياة والمال ، فأبى الرجل ، وارتقى المحرقة حيث لقى الموت

وجلس الأمير على العرش عام ١٤١٣ باسم هنرى الخامس ومنح تأييده الكامل لسياسة القمع . وكان أحد أصدقائه هو سيرجون ألدكاسل لورد كوبهام ، وهو الذى رأى نظارة مسرحيات شكسبير ، بعد ذلك ، أنه عين فلستاف . ولقد أبلى الدكاسل البلاء الحسن فى الحرب فى سبيل الأمة ، ولكنه تسامح مع دعاة اللولارد ، وبسط عليهم حمايته فى ضياعه بهيرفوردشاير وكنت . وطالب الأساقفة بمحاكمته ثلاث مرات ، وأبى حضور المحاكمة ثلاثاً ، ولكنه استسلم بناء على دعوة مكتوبة من الملك ، وقتل أمام الأساقفة (١٤١٣) فى نفس الموضع من كنيسة سانت بول ، حيث حوكم ، ويكلف قبل ذلك بست وثلاثين سنة . وأكد اعتقاده الثابت فى المسيحية ، ولكنه لم يقبل التخلى عن آراء اللولارد فى الاعتراف أو القربان . فأدين بالهرطقة ، وسجن فى برج لندن ، وأعطى مهلة أربعين يوماً ، على أن يعود عن هذه الآراء ، ولكنه بدلا من ذلك ، فر هارباً . وما أن بلغ اللولارد الذين كانوا حول لندن ، خبر فراره ، حتى جهروا بالثورة ، وحاولوا أن يقبضوا على الملك (١٤١٤) . وفشلت المحاولة ، وقبض على بعض الزعماء وأعدموا . واختفى الدكاسل ، ثلاث سنوات فى جبال هيرفوردشاير وويلز ، ثم قبض عليه آخر الأمر ، وأعدم بتهمة الخيانة ، ثم أحرق بتهمة الهرطقة (١٤١٧) ، لأن الدولة والكنيسة طالبت كل منهما بحقها .

ونحن إذا قسنا اضطهاد اللولارد إلى غيرهم ، نرى أنه كان معتدلا ، وبلغ عدد الذين أعدموا أحد عشر رجلا بين عامى ١٤٠٠ ، ١٤٨٥ . ولقد سمعنا عن طوائف من اللولارد عاشت إلى عام ١٥٢١ ، وفى سنة متأخرة هى سنة ١٥١٨ ، قتل توماس جان على المحرقة ،وهو الذى زعم أنه حول سبعمائة شخص إلى المذهب اللولاردى ، وأحرق ستة آخرون عام ١٥٢١ .

وأما فصل هنرى الثامن إنجلترا عن روما ، وقابلت الأمة هذا التحويل بلا ثورة ، فإن اللولارد من حقهم ، أن يزعموا ، أنهم مهدوا الطريق إلى هذا التحول إلى حد ما .

ونشر ريجنالد تيلوك ، أسقف تشيشستر عام ١٤٥٠ كتاباً ، اتخذ له عنواناً ، على طريقة العصر المتقلبة ، كبح جماح اللوم الزائد عن الحد لرجال الدين .

كان رداً صريحاً على المذهب اللولاردى ، وقد افترض وجود نزعة قوية ضد رجال الدين بين الناس . واقترح القضاء على هذه الآراء ، لا بالسجن فى المحرقة ، ولكن بالاحتكام إلى العقل فحسب . وأمعن الأسقف المتحمس فى الاحتكام إلى العقل ، حتى أغرم بالعقل فى ذاته ، وأوقعه ذلك فى الهرطقة ، وألفى نفسه ، يفند بالعقل بعض حجج اللولارد ، من الكتاب المقدس . ووضع العقل فوق الكتاب المقدس بصورة قاطعة كميزان للحقيقة ، فى « رسالة عن الاعتقاد » — وهو موقف احتاجت أوربا فيه مائتى سنة لاستعادته . وأضاف مؤلف «كبح جماح اللوم الذى لم يكبح جماحه» أن آباء الكنيسة لا يوثق بهم دائماً ، وأن أرسطو ليس ثقة لا يناقش ، وأن الرسل ، لا يد لهم فى العقيدة ، وأن هبة قسطنطين كانت انتحالا . وطالب الأساقفة الإنجليز بيكوك المعجب بنفسه بالمثول أمام محكمتهم (١٤٥٧) ، وخيروه بين الرجوع عن آرائه أو الإعدام حرقاً . وكان يكره الإحراق ، وقرأ

علانية إقراراً بالرجوع عن أقواله ، وشلح عن رتبته الكنسية ، واعتزل الناس في دير كنيسة تورنى إلى آخر حياته (١٤٦٠) .

٥ – الفن الإنجليزى ١٣٠٠ – ١٥٠٦

كانت الكنيسة ، على الرغم من الهرطقة واللاكهنوتية ، من القوة والثراء ، بحيث استطاعت أن ترفع فن العمارة الإنجليزية إلى مستوى من التفوق رفيع إلى حد ما . ولقد مول : نمو التجارة وغنائم الحرب : الكاتدرائيات والقلاع والقصور ، وأسبغت على اكسفورد وكمبردج جلالا بما شيدت من دور جميلة للعلم لا تضارع . ولقد أخذت مواد البناء في إنجلترا من رخام بربك ومرمر نوتنجهام إلى غابات شرود وآجر أى مقاطعة ، ثم تحولت إلى صروح النبلاء وأبراج اللوردات ذوات الأطراف الدقيقة ، والسقوف الخشبية التي كانت تماثل في متانتها وجمالهـا القباب القوطية من الحجر . واستبدلت بالدعائم القبيحة التي تربط السقف ، والتي تصل الجدار بالآخر في صورة متكلفة ، الدعائم البارزة المطروقة ، تحمل بأكتاف ضخمة من خشب البلوط ، والعقد المرتفع فوقها ، وبهذه الطريقة ، قوصرت بعض من أجمل كنائس انجلترا صحونها . وهكذا حصلت كاتدرائية سلبى على سقف من خشب البلوط مضلع ومعقد ، تضارع الرسوم التي على شكل عقد ومروحـة ، مما يسقف كنيسة « باث » ومنصة الترتيل في « إلى » – والجناح الجنوبى لكنيسة جلوسستر بأحجار متداخلة .

وأعطت نماذج من الزخارف الحجرية المفرغة في النو افذ ، ومن تغليف الجدران وحواجز المرتلين ، أسماءها لطرز معمارية متعاقبة ، تتداخل في الزمان وتختلط عادة في بناء واحد . واصطنع الطراز القوطى ذو الزخارف الهندسية (حوالى عام ١٢٥٠ – ١٣١٥) الأشكال الإقليمية ، كما هو الشأن

فى كاتدرائية اكستر . وانصرف الطراز القوطى الذى توسل بالأقواس فى الزخرف (حوالى ١٣١٥ — ١٣٨٠) ، عن الرسوم المحدودة ، إلى الخطوط التى تتماوج بحرية ، التى سبقت فى شىء من التحفظ ، طراز فرنسا المشع ، كما هو الحال فى النافذة المستديرة الجنوبية فى لكولن . وركز الطراز القوطى الرأسى (حوالى عام ١٣٣٠ — ١٥٣٠) ، على الخطوط الأفقية والرأسية فى داخل العقاد ، كما فى كنيسة هنرى السابع فى دير وستمنستر . وخففت الألوان الزاهية ، التى اتسم بها الزجاج الملون فى القرن الثالث عشر ، بأصباغ أخف أوبصباغ فضى أو رمادى شاحب ، ونافست صور الفروسية الآفلة ، الأساطير المسيحية ، على هذه النوافذ . وبلغ الفن القوطى بذلك أوجه فاضمحلاله .

وقلما عرفت انجلترا مثل هذا الشغف بالبناء . فلقد جهدت ثلاثة قرون (١٣٧٦ — ١٥١٧) لكى تشيد الصحن الحالى فى دير وستمنستر ، ونحن نستطيع أن نحس إحساسا ضيقاً فى الهوادج الطوال لتلك السنوات ، جهد العقل واليد اللذين اشتركا فى عمل مقام لايضارع العبقريات الإنجليزية ، فى خير أعمالها . ويعد تجديد بناء وندسور أقل روعة ؛ فلقد ابتنى ادوارد الثالث هناك على مساحة ضخمة ، البرج المدور الكبير (١٣٤٤) ، وبدأ ادوارد الرابع (١٤٧٣) تشييد كنيسة سانت‌جورج بمنصاتها الجميلة للمرتلين وعقدها الذى على شكل المروحة وزجاجها الملون . وصمم الن دى ولسنجهام ، على الطراز القوطى المتوسل بالأقواس فى الزخرف ، كنيسة رائعة للعذراء وبرج « مصباح » لأيلى . وزودت كاتدرائية جلوسستر ببرج وسيط وعقد للمرتلين ونافذة شرقية ضخمة ، وأروقة متسعة ، وتعد سقوفها التى على شكل المروحة من عجائب انجلترا . ووسعت ونشستر صحنها الكبير وزينت واجهتها الجديدة بالطراز الرأسى . وشيدت كفنترى ، على هذا النحو الكاتدرائية ، التى لم ينفذ منها فى الحرب العالمية الثانية ، سوى برجها المدبب الفخم . وأقامت

ببتربره ، عقدها الشاهق على شكل المروحة ، وأكملت يورك منستر صحنها ، أبراجها الغربية ومنصة المرتلين فيها . وكانت الأبراج هى المجد الذى يتوج العصر ، تسبغ النبل على كاتبى مرتن والمجدلية فى اكسفورد ودير فاونتين أبى وكنتربرى وجلاستبرى ودربى وتونتن وغيرها من مئات الأضرحة . واستعمل وليام الويكهامى الطراز الرأسى فى تصميم كلية اكسفورد الجديدة ، واتبع هذا النهج وليم وينفليت ، وهو معمر آخر فى التسعين ، فى «المربع الكبير» بكلية ايتون ، وختمت كلية الملك وكمبردج ، العصر بكنيسة قد تغرى بنوافذها وعقدها ومنصات مرتليها كاليبان بالعلم وتيمون الأثينى بالصلاة .

وفى الطراز القوطى الرأسي طابع دنيوى واقعى يناسب تماما عمارة الكليات والقلاع والحصون وأبنية النقابات والبلديات . وشيد أمراء وروك على هذا الطراز فى القرنين الرابع عشر والخامس عشر ، قلعتهم المشهورة بالقرب من ليمنجتن . وشيدت الجيلد هول فى لندن وهى مفخرة الطبقة التجارية فى العاصمة ، بين عامى ١٤١١ ، ١٤٣٥ ولكنها أحرقت عام١٦٦٦. فأعاد كريستوفرورن بناءها ، وأضيف إليها الجزء الداخلى الجديد عام ١٨٦٦ وهو الذى انهار تحت وطأة القنابل فى الحرب العالمية الثانية . كما اتخذت دكاكين المدينة ، فى قوائم نوافذها نموذجاً من الطراز الرأسى ، وهى تخلب مع رؤوسها المنقوشة وأفاريزها وطنفها البارزة ، ألبابنا بسحر مجد بائد .

ولقد احتفظ فن النحت الإنجليزى فى هذا العصر بالسمعة التى غلبت عليه ذلك لأن نحت التماثيل لواجهات الكنائس قد تخلف كثيراً عن العمارة التى كان الغرض منه أن يزينها كما هو الحال فى لنكولن واكستر . واستخدمت حواجز المذبح الكبير فى كاتدرائية وستمنستر ودير سانت الباان ، قوالب للتماثيل ولكن هذا شىء لا يؤبه له لكى نضيفه إلى قصتنا . وأجود الأمثلة

على هذا الفن إنما توجد فى الآثار الجنائزية . ولقد حفرت صور جميلة لادوارد الثانى على المرمر فى كاتدرائية جلوسستر ، وللسيدة البانوربرس فى بيفرلى منستر ولهنرى الرابع والملكة جان فى كنتربرى ، ولرتشارد بوشان فى ورولث . وبلغ المثالون الإنجليز أوج براعتهم فى عرض أزهار أرضهم الخضراء ونباتها . وكان الحفر الجيد يمارس على الخشب : وتبهر منصات المرتلين فى ونشستر وإيلى وجلوسستر ولنكولن ونوروتش الأنفاس بالجمال الذى بذل فى إظهاره غاية الجهد .

وكان الرسم لا يزال فناً ثانوياً فى انجلترا ، تخلف كثيراً عن معاصره فى فلاندرز وفرنسا وظل تزيين الكتب القديمة فناً محبباً ، ولقد دفع ادوارد الثالث مبلغ ستة وستين جنيهاً فى مقابل مجلد مزين للقصص الخيالى : وقدم روبرت من أورمزبى إلى كاتدرائية نوروتش ، نسخة مزينة من المزامير تعدها مكتبة بدليان « أجمل مخطوطة إنجليزية » بين مجموعاتها . واضمحل فن المنمنمات بعد عام ١٤٥٠ بظهور الرسوم الجدراية واللوحات الحائطية ، وأفل نجم هذا الفن فى القرن السادس عشر قبل ظهور معجزة الطباعة الطريفة .

٦ — كاكستون ومالورى

فى تاريخ مجهول من القرن التاسع عشر ، أنشأ مؤلف ، لا يعرف اسمه الآن ، أشهر المسرحيات الأخلاقية الإنجليزية ، فإن تمثيليته « كل إنسان » عبارة عن مجاز وأخلاقه تجريدات منفرة منـــذ البداية ، مثل المعرفة والجمال والمقولات الخمسة والرشد والقوة والفضل والمآثر والصداقة والقرابة والاعتراف والموت وكل إنسان والله . ونحن نجد فى الاستهلال ، أن الله غاضب ، لأن وصاياه يتجاهلها تسعة من عشرة أشخاص فى ستة أيام من كل أسبوع ، فيرسل الموت ، ليذكر سكان الأرض ، بأنهم لابد أن

يبادروا بالعودة إليه ، وأن يقدموا حساباً عن أعمالهم . وهبط الموت من السماء إلى الأرض ، فى مساحة خط واحد ، فوجد كل إنسان قد امتلأ فكره بالنساء والذهب ، فما كان منه إلا أن أمره بالانتقال إلى الأبدية . فاحتج كل إنسان بعدم الاستعداد ، وطالب بفسحة من الوقت ، وقدم ألف جنيه على سبيل الرشوة ، ولكن الموت يمنحه مسكناً واحداً — وهو أن يصطحب معه إلى الأبدية صديقاً يختاره . فأخذ الرجل يطلب المزاملة فى هذه المغامرة العظيمة ، ولكن من طلب مزاملته يعتذر عن نفسه بشجاعة قائلا :

« إن كنت ستتناول الطعام ، وتحتسى الشراب وتبتهج ،
أو تغنم معا صحبة المرأة الشهية ،
فإننى لا أتركك . . . .
فيجيبه كل إنسان : إذاً فتعال معى فى رحلتى الطويلة .
الزميل : قسما بإيمانى ، لن أذهب معك الآن .
إلا إذا قتلت رجلا : وأزهقت روحه ،
عند ذاك أعاونك صادقاً .

فالتجأ كل إنسان إلى قريبه ، إلى ابن عمه ، الذى رفض الدعوة بحجة « أننى مصاب بتقلص فى أصبع رجلى » . فناشد الرجل ، الفضل لمعاونته ، ولكنه كان حبيساً ليست عنده الحرية لتقديم أى مساعدة . فتوسل الرجل آخر الأمر بالمآثر فابتهجت ، لأنه لم ينسها تمام النسيان ، فقدمته إلى المعرفة ، التى قادته إلى الاعتراف ، الذى طهره . ثم هبطت المآثر معه إلى قبره ، ورحبت أناشيد ملائكية بدخول الآثم المطهر إلى الجنة .

ولقد انتصر المؤلف فى معظم الأحيان — ولا تقول انتصر تماماً — على قالب درامى عصى . فإن تشخيص صفة من الصفات ، لا يمكن أن يكون لها من الوصف ما للشخص ، ذلك لأن كل إنسان عبارة عن تناقض مركب متفاعل ، وهو فريد إلا إذا كان واحداً من جماعته ، والفن العظيم يجب أن

يصور العام عن طريق الخاص كما فى هاملت أو كيخوته ، أو أديب أو بانبرج واحتاجت التجربة والعبقرية قرناً آخر ، لكى تحول المسرحية الأخلاقية الفاترة ، إلى المسرحية الإليزابيثية ، التى تصور ، الإنسان المتغير إلى ما لا نهاية .

والحادث الأدبى العظيم فى انجلترا إبان القرن الخامس عشر ، إنما هو إنشاء أول مطبعة انجليزية . ولقد هاجر وليم كاكستون ، المولود فى كنت إلى بروجس للتجارة . وترجم فى أوقات فراغه عن الفرنسية ، مجموعة من القصص الخيالى الفرنسى . وطلب أصدقاؤه نسخاً من هذه المجموعة ، فكان ينسخها لهم بنفسه ، ولكنه يخبرنا بأن يده «كلت ولم تعد تستطيع الكتابة الكثيرة بسرعة » . وعشيت عيناه من النظر الطويل على الورق الأبيض . ولعله رأى فى زياراته إلى كلونيا ، إنشاء المطبعة هناك (١٤٦٦) على يد أولرتش زل ، الذى تعلم هذا الفن الجديد فى مينز . وأسس فى عام ١٤٧١ كولاردمانسيون ، مطبعة فى بروج ولجأ كاكستون إليها ، باعتبارها وسيلة لإخراج نسخ كثيرة من ترجمته . وفى عام ١٤٧٦ عاد إلى إنجلترا وأنشأ بعد ذلك بسنة فى وستمنستر الحروف — ولعلها المطابع — التى أحضرها معه من بروج . وكان قد بلغ إذ ذاك الخامسة والخمسين من عمره ، ولم يبق له من حياته سوى خمس عشرة سنة ، بيد أنه طبع فى هذه الفترة ثمانية وتسعين كتاباً ، ترجم أكثرها بنفسه عن اللاتينية أو الفرنسية . وكان لاختياره عنوان كتبه ، ولأسلوب مقدماته الطريف الخلاب ، طابع لا يمحى على الأدب الإنجليزى . ولما توفى (١٤٩١) تابع زميله الإلزاسى وينكين دى ورد هذه الثورة .

ولقد حقق كاكستون ونشر عام ١٤٨٥ نصاً من أروع نصوص النثر الإنجليزى وهو — التاريخ الشريف للملك ارثر وعدد معين من فرسانه . وكان مؤلفها العجيب قد مات وربما كان ذلك فى السجن — قبل ذلك بحوالى ست عشرة سنة . فلقد خدم السير توماس مالورى ، فى حرب المائة سنة ،

كواحد من حاشية ريشارد دى بوشان أمير ورِوك ، ومثل وروك فى برلمان عام ١٤٤٥ ، ولما شعر بالوحدة فى أجازة الحرب ، اقتحم دار هيوسمث ، واغتصب زوجة الرجل ، وسلب بالإكراه مائة شلن من مارجريت كنج ووليم هيلز ، ثم اقتحم دار هيوسمث مرة أخرى واغتصب زوجته ثانية ، وسرق سبع بقرات وعجلين وخمساً وثلاثين وثلاثمائة من الغنم ، وانتهب كنيسة الرهبان البندكتيين فى كومب مرتين ، ووضع فى غياهب السجن مرتين . ويبدو من غير المعقول أن يؤلف مثل هذا الرجل ، تلك الأغنية الرقيقة التى تترنم بالفروسية الإنجليزية وهى التى نسميها الآن « موت الملك آرثر » ، وبعد أن اشتد الخلاف ، حول مؤلفها قرناً من الزمان ، أصبح من المجمع عليه أنها من تأليف السير توماس مالورى إبان سجنه .

وأخذ معظم القصص من الروايات الفرنسية عن الأساطير المتعلقة بالملك أرثر ، فرتبها فى سياق مقبول ، وصاغها بأسلوب محبب خلاب . وأصدرها لطبقة أرستقراطية تفقد ماضى فروسيتها من فظائع الحرب وأهوالها ، ودعا من أجل ذلك إلى العودة إلى القيم العليا التى اتسم بها فرسان الملك أرثر متناسياً مظالمهم ومظالم نفسه . ومل أرثر الفسق والفجور فاستقر مع صاحبته الجميلة الجريئة جينفير ، وحكم انجلترا — بل كل أوروبا فى الحقيقة — من عاصمته فى كاميلون (ونشستر) وطلب إلى فرسان مائدته المستديرة المائة والخمسين أن يقطعوا على أنفسهم عهدا : « ألا ينتهكوا حرمة أو يقتلوا نفساً . . . وألا يكونوا غلاظاً بأى حال من الأحوال ، وأن يرحموا من يطلب الرحمة . . . وأن يغيثوا النساء الضعيفات ، ولو واجهوا الموت دون ذلك .

والحب والحرب هما الموضوعان الممتزجان فى كتاب يردد وقائع فرسان لا ضريب لهم ، من أجل سيدات وفتيات يفقن الوصف جمالا وفتنة وكان تريسترام ولانسيلون يجعلان من كل من ملوكهما ديوثاً ، ولكنهما يمثلان رغم ذلك الشرف والشجاعة . ولما التقيا وقد تحصن كل منهما

بالدرع والخوذة واللامة ، تبارزا ، وقد اختفت شخصية كل منهما أربع ساعات حتى كل سيفاهما وثلما .

ثم انبرى لانسيلو آخر الأمر قائلا : أيها الفارس ، إنك تبلى فى النزال ، بالبلاء الحسن كأعظم ما رأيت من الفرسان ، لذلك أطلب إليك أن تتفضل فتخبرنى باسمك . فأجاب تريسترام : سيدى لقد أقسمت ألا أبوح باسمى لأحد . فقال سيرلانسيلو ، الحق أننى إذا طلبت فلا يحول قسم بينى وبين البوح باسمى . فقال سير تريسترام ، أحسنت ، ولذلك فأنا أطلب إليك أن تبوح باسمك . فقال : أيها الفارس الوسيم ، إن إسمى سير لانسيلو دى ليك . فقال : سير تريسترام : يا عجبا ، ما الذى فعلت ؟ فأنت أحب رجال العالم إلى : فقال السير لانسيلو أيها الفارس الوسيم ، أخبرنى باسمك . فأجاب حقاً ، إن اسمى سير تريسترام دى ليون . فقال سير لانسيلو ، يا للمسيح ، أى مغامرة مرت بى . . وهنا ركع سير لا نسيلو وسلمه سيفه . وهنا ركع سير تريسترام بدوره وسلمه سيفه . . . . واصطحبا إلى الصخرة ، وجلسا عليها وخلعا خوذتيهما . . . . وقبـــل كل منهما الآخر مائة مرة » .

وأى قفزة هذه ، من تلك المملكة الخيالية ، التى لا يعمل فيها أحد من أجل العيش . . كل النساء فيها « منعمات » إلى مادة الواقع الحقيقى إلى رسائل باستون وهى تلك الرسائل الحية التى جمعت أسرة مفرقة على الحب والمال فى انجلترا ، إبان القرن الخامس عشر ! ونحن نجد هنا جون باستون ، الذى مارس القانون فى لندن أو ضواحيها ، فى حين أخذت مارجريت تربى أطفالها وتدير أملاكه فى نوروتش ، إن نفسه كلها للعمل وهو جاد ، لاذع نزاع إلى المنافسة ، أما هى فكلها استسلام ، زوجة متواضعة ، نادرة ، شديدة الحياء ، ترتعد لمجرد التفكير فى أنها أساءت إليه . وهكذا كان آل جنيفر فى صميم العالم الواقعى . ومع ذلك فنحن نجد هنا أيضاً العواطف الرقيقة ، والهموم المشتركة بل الخيال ، وتعترف مارجريت

بروز لسير جون باستون الثانى انها تحبه ، وانها تأسف ، لأن الصداق ، الذى تستطيع أن تقدمه له ، أقل بكثير من مكانته ، « ولكن إن كنت تحبنى ، كما أثق أنك حقاً كذلك ، فإنك لن تتركنى لهذا السبب » وهو الذى آلت إليه ثروة آل باستون ، فيتزوجها على الرغم من اعتراض أهله ، ويموت فى غضون سنتين . وهكذا نجد قلوباً رقيقة ، تحت السطح الجافى لهذا العصر المضطرب .

٧ — الإنسانيون الإنجليز

يجدر بنا ألا ندهش من أن وفرة الدراسة للكلاسيات فى إيطاليا لعهد كوزيمو ولورنزو دى مدتشى ، لم تثر إلا صدى ضئيلا فى إنجلترا ، التى كان تجارها لا يعبأون بالأدب إلا قليلا ، والتى كان نبلاؤها لا يخجلون من أميتهم على الرغم من ثرائهم . ورأى السير توماس مور : فى مطلع القرن السادس عشر أن أربعين فى المائة من الشعب الإنجليزى فقط يستطيعون القراءة . وكانت الكنيسة ، والجامعات التى تسيطر عليها ، هى التى ترعى الدارسين وحدها . وإلى إنجلترا يرجع الفضل فى أن رجالا أمثال جروسيني ولينا كر ولانيمير وكوليت : استطاعوا ، فى هذه الظروف ، وتحت وطأة الحرب المدمرة الضارية ، أن يقبسوا من الشعلة الإيطالية : وأن يحماوا قدراً كافياً من ضوئها وحرارتها إلى إنجلترا ، فيجعل ذلك رجلا مثل أرازمس الحكم الفيصل فى الأدب يشعر بأنه فى وطنه عندما هبط الجزيرة عام ١٤٩٩ . ووقف الإنسانيون أنفسهم ، على دراسة الثقافتين الوثنية والمسيحية على السواء ، فأنكرتهم قلة غير ناضجة من « الطروادين » الذين خافوا أن يأتى هؤلاء اليونان « بالنفائس من إيطاليا ، ولكنهم وجدوا من يدافع عنهم بشجاعة ومن يصادقهم بين أكابر رجال الكنيسة ، أمثال وليم الوينفليتى ، أسقف ونشستر ووليم ورهام رئيس أســاقفة كانتربرى وجون فيشر ، أسقف

روشستر ، وفيما بعد توماس كاردينال وُلْسى ، رئيس قضاة إنجلترا .

واستشعر بعض الدارسين من الإنجليز ، منذ زيارة مانويل شريسو لوراس ، (١٤٠٨) لإنجلترا بحمى لا يطفئها فى نظرهم غير الرحلة إلى إيطاليا للدراسة أو المجون ، ولقد عاد همفرى ، دوق جاوسستر ، من إيطاليا ، مغرماً بالمخطوطات ، وجمع مكتبة ، أثرت فيما بعد ، مكتبة بودليان . ودرس جون تيتوفت ، إيرل ورسستر ، على جوارينو الفيرونى فى فيرارا وجون أرجيرو بولوس فى فلورنسه . ثم عاد إلى إنجلترا وبين يديه من الكتب أكثر مما فى نفسه من الفضائل . ودرس الراهب وليم تيلى من عام ١٤٦٤ — ١٤٦٧ فى بادوا وبولونيا وروما ، وأحضر معه كثيراً من الآثار الكلاسية ، ثم أخذ يدرس اللغة اليونانية فى كانتربرى .

وكان توماس ليناكر أحد تلاميذه المتحمسين هناك . ولما عاد تيلى ، (١٤٨٧) إلى إيطاليا ، اصطحبه ليناكر معه ، وظل اثنى عشرة سنة . ودرس فى فلورنسه على بوليتيان وشالكوند يليز وحقق كتباً يونانية لالدس مانوتيوس ، وعاد إلى إنجلترا متبحراً فى فروع مختلفة من المعرفة ، حتى استدعاه الملك هنرى السابع ، ليؤدب آرثر ، أمير ويلز . وأوجد مع جروسين ولاتيمر فى اكسفورد « حركة اكسفورد » لإحياء اللغات والآداب القديمة ، فألهمت محاضراتهم جون كولت وتوماس مور ، واجتذبت أرازمس نفسه . وكان ليناكر أشهر الإنسانيين الإنجليز ، يجيد اللغتين اليونانية واللاتينية ، وترجم جالينوس ، وارتقى بالطب العلمى ، وأسس الكلية الملكية للأطباء وأوقف ثروته على تمويل كراسى أستاذية الطب فى اكسفورد وكمبردج . وقال أرازموس ، إن الفضل يرجع إليه ، فى أن الدراسة الجديدة ، بلغت من الاستقرار فى بريطانيا ، حظاً لا يحتاج معه أى إنجليزى إلى أن يرحل إلى إيطاليا فى سبيل العلم .

وكان وليم جروسين قد بلغ الأربعين عندما انضم إلى ليناكر فى فلورنسه . فلما عاد إلى انجلترا عام ١٤٩٢ ، استأجر غرفة فى كلية أكستر وفى أكسفورد وكان يحاضر عن اللغة اليونانية ، على الرغم من احتجاج المحافظين الذين كانوا يرتعدون خشية ، أن تقضى النسخة اليونانية الأصلية للعهد الجديد على ترجمة جيروم اللاتينية الشائعة وهى التى ظلت الحجة ألف سنة . ولكن جروسين أكد من جديد ، أنه صحيح المعتقد ، مستقيم إلى حد التزمت . ولم ينشأ فى نفس الإنسانيين الإنجليز أى عداء للمسيحيين حتى العداء المضمر الخفى ، كما حدث لبعض الدارسين فى عصر النهضة الإيطالية ، ولقد حرص هؤلاء الإيطاليون على التراث المسيحى ، وجعلوه مقدماً على جميع عناصر التربية العقلية ، ولم يجد أشهر هؤلاء ، حرجاً من تولى منصب نائب مطران كنيسة سانت بول .

ولقد كان جون كولت أكبر أبناء سير هنرى كولت ، وهو تاجر غنى أنجب اثنين وعشرين طفلا وتولى منصب عمدة لندن مرتين . وفى اكسفورد مست الشاب ، جذوة الإنسانيين من ليناكر وجروسين « فالتهم بشغف » كتب أفلاطون وأفلوطين وشيشرون ورحل عام ١٤٩٣ إلى فرنسا وإيطاليا ، وقابل ارازمس وبوديه فى باريس ، وتأثر بسافونارولا تأثراً عميقاً فى فلورنس ، وهاله نزق الكرادلة والبابا اسكندر السادس وتحررهم فى روما . ولما عاد إلى انجلترا ، ورث ثروة أبيه ، وأصبح من اليسير عليه أن يحرز مكانة مرموقة فى السياسة ، ولكنه آثر حياة الدرس فى أكسفورد وتجاهل التقليد القديم الذى يجعل تدريس علوم الدين وقفاً على القساوسة وأخذ يحاضر أهل روما عن إنجيل القديس بولس ، فأحل النقد والشرح للنص الشائع ،

محل الحذلقة والجدل ، وانتعشت جماهيره الغفيرة بطرافة منهجه ، وبتركيزه على الحياة الفاضلة باعتبارها أسمى علوم الدين ، ولقد وصفه أرازموس الذى رآه فى أكسفورد عام ١٤٩٩ ، بأنه قديس تغرية الشهوة والترف دائماً ، ولكنه « احتفظ بزهرة عذرته إلى وفاته » واحتقر الحياة اليسيرة التى يعيشها الرهبان فى زمانه ، وأوصى بثروته للأعمال الدينية والخيرية .

وكان يمثل معارضة الكنيسة مع ولائه لها ، فقد أحبها على الرغم من أخطائها . وتساءل عن الصدق الحرفى لسفر التكوين ، ولكنه قبل القول بأن الكتاب المقدس منزل بالوحى . وسبق المصلحين الدينيين بتأكيده صحة الكتب المقدسة على روايات الكهنوت وأشكاله ، ورفضه أن تكون الفلسفة المدرسية للقرون الوسطى ، المزيج العقلى المخفف للمسيحية البسيطة ، وشكه فى قدرة القسس على التطهير بالاعتراف ، ووجود المسيح بالفعل فى القربان ، وفى استنكار الحياة الدنيوية التى يعيشها رجال الدين :

« لو أن الأسقف الأكبر ، الذى نسميه البابا . . . كان أسقفا بحق ، لما فعل شيئاً بنفسه ، ولكن الله فيه هو الذى يفعل . فإن حاول شيئاً بنفسه ، فإنه يكون نافث سم . . . . لقد حدث هذا كثيراً بالفعل منذ سنوات طوال ، وازداد فى هذه الأيام زيادة كبيرة ، حتى سيطر على جميع أعضاء الكنيسة المسيحية ، وإذا لم يقبض المسيح بيده على كنيستنا الممعنة فى الاضطراب فإنها تشرف على الموت . . . . . ، إن أولئك القساوسة اليائسين ، الذين يوجد منهم فى هذا العصر كثرة هائلة ليترددون فى الفجور الشنيع ، فهم لا يخشون الخروج من بطن بغى حقيرة إلى هيكل الكنيسة وإلى مذبح المسيح وإلى الأسرار الإلهية . . ولسوف تحل عليهم نقمة الله فى يوم من الأيام .

وفى عام ١٥٠٤ نصب كولت نائباً لمطران كنيسة سانت بول ، ومن هذا المنبر الرفيع عارض بيع مناصب الأسقفية ، والفساد الناجم عن قوامة رجل واحد على موارد كنائس متعددة . وأثار بآرائه هذه معارضة عنيفة ، ولكن ورهام كبير الأساقفة ، عمل على حمايته . وكان ليناكر وجروسين ومور ، قد استقروا وقتذاك فى لنــدن وقد برئوا من جمود أكسفورد وتعصبها للقديم ؛ وشحذت عقولهم زيارات أرازموس وسرعان ما حظوا بتأييد الملك هنرى الثامن . وبدا أن كل شيء ممهد لنهضة إنجليزية ، ستتحرك مصطحبة ، إصلاحاً دينياً سلمياً .

الفصل السادس

حادثة في برجنديا

١٣٦٣ — ١٥١٥

١ — الدوقية الملكية

استطاعت برجنديا ، بفضل موقعها على الجناح الشرقي لفرنسا حول ديجون ، وبفضل السياسة الرشيدة لدوقاتها ، أن تخرج من حرب المائة عام دون أن تصاب إلا قليلا ، حتى أصبحت أكثر البقاع ازدهاراً ، في العالم المسيحي وراء الألب. ولما انقرضت الأسرة الدوقية البرجندية من آل كابيتان ، وعادت الإمارة إلى التاج الفرنسي ، منحها جون الثاني إلى رابع أبنائه فيليب (١٣٦٣) مكافأة له على شجاعته في مقاطعة بواتييه . ولقد أحسن ، فيليب الجسور ، تدبير الأمور في برجنديا ، إبان الإحدى والأربعين سنة التي لبثها دوق لبرجنديا ، وكان زواجه سياسياً إلى حد كبير ، حتى دخلت في حكمه هانو وفلاندرز وأرتوا وفرنش — كونتة وأصبحت دوقية برجنديا التي كانت من الناحية الاصطلاحيـــة ، ولاية فرنسية ، دولة مستقلة ، غنيت بالتجارة والصناعة الفلمنكيتين ، ونعمت برعاية الآداب .

ومد جون الذي لا يخاف ، سلطانه بوساطة شبكة دقيقة من المحالفات والدسائس ، إلى نقطة الانفجار ، وأحست فرنسا أنها لا بد أن تقاوم التحدي . وكان لويس ، دوق أورليان ، يحكم فرنسا نيابة عن أخيه المجنون شارل السادس ، فعقد محالفة بين فرنسا والإمبراطورية الرومانية المقدسة ، في خطة تقضي بالوقوف في وجه الدوق الذي لا يخاف إلى حد التهور . استأجر لويس جماعة من المغتالين قتلوا جون ، فأعقب ذلك صراع عنيف

بين الحزب البرجندي والحزب الأرمنياكي — وهم أنصار حمى لويس كولت أرمنياك — من أجل السيطرة على السياسة الفرنسية ، ومات جون بدوره مقتولا بطعنة خنجر من يد مغتال (١٤١٩) . وأنكر ابنه فيليب الطيب كل سبب من أسباب الولاء لفرنسا ، وعقد محالفة بين برجنديا وانجلترا ، وضم تورناى ونامور وبرابانت وهولنده وزيلند ، ولمبرج واوفان : ولما عقد الصلح مع فرنسا) ١٤٣٥ (فرض الاعتراف بالسيادة العملية لدوقيته ، والتنازل عن لكسمبرج ، وليج وكامبراى واترخت . وبلغت برجنديا إذ ذاك أوجها ، منافسة فى الثروة والسلطان أية مملكة من ممالك الغرب .

وأغلب الظن أن فيليب لم يكتسب لقب « الطيب » من القلوب الطيبة . ذلك لأنه لم يكن يترفع عن الغدر والقسوة وسورة الغضب الأهوج . بيد أنه كان ابناً وفياً ، وإدارياً بارعاً وأبا محباً حتى لأبنائه الستة عشر غير الشرعيين. وكان كغيره من الملوك شغوفاً بالنساء له أربع وعشرون خليلة ، ويصلى ويصوم ويتصدق ، وجعل عواصمه — ديجون وبروجس وجنت —مراكز الإشعاع الفنى للعالم الغربى خارج إيطاليا . وأتاح حكمه الطويل لبرجنديا وولاياتها ، من أسباب الترف ، ما جعل رعاياه يتسامحون معه ولايذكر أخطاءه إلا القليل منهم وتمردت المدن الفلمنكية على حكمه ، وتحرقوا شوقاً لرؤية تحول ، منظماتهم النقابية القديمة وحرياتهم الإقليمية ، إلى اقتصاد قومى ، فى ظل حكومة مركزية . وسحق فيليب وابنه شارل ثوراتهم ، ولكنهما سمحا لهم بترضية سلمية ، لأنهما أدركا أن أعظم موارد الأمارة إنما تستمد من صناعة هذه المدن وتجارتها وليس من شك أن مناطق الرين السفلى ، قبل فيليب كانت تختلف فى النظم الاجتماعية وشئون السياسة ، لاختلافها فى العنصر ولغة الحديث ، فضمها فى دولة موحدة ، وأقر فيها النظام ، وأعان على ازدهارها .

وأصبح المجتمع البرجندى فى بروجس وجنت وليج ولوفان وبروكسل ودجون (١٤٢٠ — ١٤٦٠) إذ ذاك أكثر المجتمعات فى أوربا صقلا واجتذاباً للقلوب ، لا نستثنى من ذلك فلورنسا المعاصرة التى كان يحكمها كوزيمو دى مدتشى . فقد احتفظ أمراء الدوقيات بجميع مظاهر الفروسية ، وفيليب الطيب هو الذى أنشأ نظام خبرة الصوف الذهبية (١٤٢٩) ، ويعود بعض الفضل إلى البرجنديين أحلاف إنجلترا ، فى اتخاذها أبهة الفروسية وبريقها وهذه الفروسية هى التى صقلت السطح الخشن للطباع الإنجليزية ، وأسبغت المجد على وقائع هنرى الخامس ، وبرزت فى صفحات فرواسارت وماأورى . ولما تجرد النبلاء البرجنديون من السلطان المستقل ، عاشوا فى الحاشية أفراداً وأظهروا جميع أمارات الشرف وأبرزوا فى الرداء والحلى كل ما يزين التطفل والفجور . وأخذ التجار والصناع يحاكون حاشية الملك فى الزى وكانوا يطعمون ويلبسون زوجاتهم كأنما يهيئون المشهد لروبنز . وغدا الاكتفاء بالزوجة الواحـــدة فى ظل دوق محب مثله خيانة كبرى للملك أو الحكومة . ولقد أنجب جون الهينزبرجى المرح أسقف لييج ، اثنى عشر ابن سفاح . . وكان لجون البرجندى أسقف كامبراى ، ستة وثلاثون ابنا وحفيدا خارج نطاق الزواج ؛ وهكذا ولد كثير من علية القوم فى ذلك العصر ، الشيء الذى كان يعمل على تحسين النسل . . وكان من اليسير أن توجد البغايا فى كل وقت وبأى ثمن فى الحمامات العامة . وزعمن فى لوفان أنهن صاحبات مساكن ، يؤجرنها للطلبة ، وكانت الحفلات كثيرا ما تتسم بالبذخ ، واستخدم فنانون مشهورون فى تصميم المناظر وإعداد الأنوار ، وكان الناس يعبرون الحدود والبحار ليشاهدوا المناظر الفخمة تمثل فيها النساء العاريات أدوار الربات والجنيات القديمات .

٢ – الروح الدينى

ونجد مقابل هـذا المجتمع الثائر القديسين والمتصوفة ، الذين أعطوا هولندة ، فى كنف أولئك الدوقات مكانة رفيعة فى التاريخ الدينى . فقد اعتزل القسيس جان فان ريسبرويك منصبه فى بروكسل وهوفى الخمسين من عمره (١٣٤٣) وأوى إلى دير أوغسطينى فى جروينندايل ، بالقرب من واترلو ،حيث وقف نفسه على التأملات والتآليف الصوفية . وصرح بأن « روح القدس » هى التى كانت تهدى قلمه ، ومع ذلك فإن مذهبه فى الحلول كاد ينكر خلود الفرد .

« فإن الله ذاته ، يحل مع الأبرار ، فى غيبوبة الكيفيات . . . وهو فناء أبدى للنفس . . وتحصل الدرجة السابعة ، عندما نكشف وراء كل المعرفة أو وراء العارف بكل شىء ، فى أنفسنا لا عارف ليس له قرار . وعند ما نتجاوز جميع الأسماء التى لله أو الكائنات ، فإننا نحتضر ، ونتحول إلى لا إسمية أبدية ، حيث نفقد أنفسنا . . . .

ونتأمل جميع هذه الأرواح المبرورة ، التى فنيت ودخلت وغابت فى جوهرها الإسمى ، فى ظلام غير معروف بلا كيفية » .

ولقد شهدت الأرض الواطئة[1] وولاية الراين الألمانية ، وفرة من جماعات غير دينية — البيجارديين والبيجوينيين وإخوان الروح الحر — أثمرت أحوالها الصوفية غالباً التقوى والخدمة الاجتماعية والسكينة والسلم وأدت أحياناً إلى إنكار الأسرار المقدسة على أساس أنها غير ضرورية ، وإلى الرضى عن الخطيئة أحياناً لأنها ستفنى بالاتحاد فى الله . وتلقى جبريت (أو

---

(١) تستعمل الأرض الواطئة أو المنخفضة فى هذا الكتاب بمدلولها الأصلى لتدل بالتقريب على ما يشمل بلجيكا وهولندة الحديثتين .

جريت أو جيرار) جروت الدفنترى ، قدراً صالحاً من العلم فى كولونى وباريس وبراغ ، ثم امضى فترة طويلة فى صحبة « ديزبرويك » فى جروبندايل ، وكان أثره فيه عظيما جعله يرى أن حب الله هو الغاية فى حياته . وبعد أن رسم شماساً (١٣٧٩) بدأ يلقى عظاته فى مدن هولنده ، باللهجة العامية ، إلى جماهير ضاقت بهم الكنائس المحلية وكان الناس يتركون أعمالهم وطعامهم ليستمعوا إليه . وكان أرثوذكسى المذهب فى تزمت ، ويعد نفسه « مطرقة على رؤوس الهراطقة » فهاجم على الرغم من ذلك التحالل الأخلاقى الذى غلب على رجال الدين والمدنيين على السواء وطالب بأن يلتزم المسيحيون بدقة أخلاقيات المسيح . . فاتهم بالهرطقة ، وسحب أسقف أترخت ، حق جميع الشمامسة فى الوعظ ، وأصدر أحد أنصار جروت وهو فلورس رد يوجمنزون Radewijnszoon ، قاعدة شبه رهبانية — شبه شيوعية « لإخوان الحياة العامة » الذين عاشوا فى أخوة مدينة ديفنتر وعلى رأسهم جروت ، وهم الذين شغلوا أنفسهم بالوعظ — دون أن يحصلوا على مراسيم الرهبانية — وتقضى هذه القاعدة بأن يقوموا بالعمل اليدوى والتعليم والعبادات ونسخ المخطوطات . . . ومات جروت فى الرابعة والأربعين من عمره (١٣٨٤) بالجدرى ، أصابته عدواه وهو يمرض صديقاً له ، ولكن أنصاره مدوا سلطانهم عن طريق مائتى شعبة إخوان فى هولنده وألمانيا . وجعلت مدارس هؤلاء الإخوان للآثار الكلاسية الوثنية ، مكاناً بارزا فى مقدراتها ، فمهدت بذلك السبيل لمدارس اليسوعيين الذين واصلوا عمل مدارس الإخوان فى الإصلاح الدينى المعارض . ولقد رحب هؤلاء الإخوان بالطباعة بعد ظهورها مباشرة ، واستعملوها فى نشر « عبادتهم الحديثة » وكان اسكندر هيجويز فى ديفنتر (١٤٧٥ — ١٤٩٨) مثالا لا ينسى للطلاب المجددين فى ذلك العصر فهو « المعلم القديس الذى يقف حياته على إرشاد تلاميذه وهدايتهم أخلاقياً فأصلح المقرر الدراسى ، وركزه حول

الآثار الكلاسية ، واكتسب ثناء إيرازمس على صفاء أسلوبه اللاتينى ولما توفى لم يترك شيئاً غير ملابسه وكتبه ، ذلك أنه وهب كل شىء سواها للفقراء سراً . ونجد بين طلاب العلم الذين نبغوا فى ديفنتر نيقولاس أكوساوى ،أرازموس ورودلف أجريكولا وجان دى جرسون ومؤلف كتـــاب « محاكاة المسيح » .

ولسنا نعرف على التحقيق من الذى ألف هذا الكتيب الشائق عن التواضع . ولعله توماس هموكن من مدينة كمبن Kampen من أعمال بروسيا . ولقد جمع فى سكينة خلوته بدير سانت اجنس بالقرب من زول ، (١٣٨٠ — ١٤٧١) من الكتاب المقدس ومن أقوال آباء الكنيسة ، ومن عبارات القديس برنارد شارحاً التجرد من الدنيا بالتقوى ، كما تصوره ويسبرويك روجروت وأعاد صياغة هذا كله فى لغة لاتينية وشيقة سهلة .

« ما الذى يجديك فى أن تشغل نفسك بجدل عميق فى الثالوث ؛ إن كنت مجردا من التواضع ، ومكروها من الثالوث ؟ والحق ، أن الكلمات السامية لا تجعل الإنسان مقدما عادلا ، بيد أن الحياة الفاضلة هى تجعله أثيرا عند الله . وإنه لخير لى أن أحس وخز الضمير من أن أحفظ الكتاب المقدس وأقوال الفلاسفة جميعهم فما الذى يفيدك ، إن افتقرت إلى حب الله وإلى فضله ؟ باطل الأباطيل والكل باطل ، سوى أن تحب الله ، وألا تخدم إلا إياه . وأسمى مراتب الحكمة ، أن تحتقر الدنيا وتتجه إلى مملكة السماء — ومع ذلك فلا تثريب على التعلم . . . . لأنه حسن فى ذاته كما أن الله قد أمر به ، ولكن الضمير الصالح والحياة الفاضلة مفضلان على الدوام .

العظيم بحق هو من يحمل فى قلبه حبا عظيما . والعظيم بحق هو الصغير فى نظر نفسه ، الذى لا يأبه برفعة الشرف . والحكيم بحق هو الذى يطرح جانبا جميع الأشياء الأرضية باعتبارها روثا ، حتى يغنم صحبة المسيح .

اهرب عن صخب الناس بأسرع ما تستطيع ، لأن معالجة الأمور

الدنيوية عائق عظيم . والواقع أن من التعاسة أن نعيش على هذه الأرض ... وأنه لأمر عظيم أن نلتزم الطاعة فى الحيـــاة ، وأن يكون فوقنا رئيس ، وألا نكون مخيرين بمشيئتنا . وأمن لنا أن نطيع من أن نحكم . . . وبذلك تبدو الصومعة التى نسكنها جميلة .

وفى « محاكاة المسيح » بلاغة رقيقة ، تعكس البساطة العميقة لعظات المسيح وأمثاله . وهو رادع ضرورى دائم لما فى العقل الرخو والسفسطة الجوفاء من غرور ذهنى . فنحن عند ما نكل من مواجهة أعباء حياتنا فإننا نعتصم بالإنجيل الخامس لتوماس اكمبيس . ولكن من ذا يعلمنا ونحن فى خضم العالم وأعاصيره كيف نكون مسيحيين ؟

٣ — برجنديا المشرقة ١٣٦٣ — ١٤٦٥

أخذت الولايات الخاضعة للحكم البرغندى على الرغم من أمثال هذه الاستغفارات التوماسية ، تنغمس فى نشاط عقلى ملحوظ . فلقد جمع الدوقات أنفسهم — وفيليب الطيب أكثرهم فى ذلك — المكتبات وشجعوا الأدب والفن . وكثرت المدارس ، وسرعان ما أصبحت جامعة لوفان التى أسست عام ١٤٢٦ ، مركزا من مراكز التعليم فى أوربا . ولقد سرد جورج كاستيلان فى « تاريخ دوقات برجنديا » تاريخ الدوقية فى كثير من البلاغة الناصعة وقليل من الفلسفة ، وإن كان قد عرضه بلغة فرنسية قوية ، فأسهم به مع فرواسار وكومين فى إيجاد تلك الوسيلة المحببة من النثر الواضح الرشيق . وأقامت جماعات خاصة ، قاعات للخطابة للتدرب على الخطابة والشعر وتمثيل المسرحيات . وتنافست لغتا المملكة — الفرنسية أورومانسية الوالون فى الجنوب واللهجات الألمانية التى كان نتكلم بهـــا الفلمنكيون والألمان فى الشمال — فى إظهار الشعراء ، الذين أسدل النسيان عليهم ستاره .

وكان التعبير الأرفع للدوقية يتجسم فى الفن . وبدأت أنتورب عام

١٣٥٣ كاتدرائيتها الكبيرة ذات الممرات الكثيرة وأتمتها عام ١٥١٨ ، وشيدت لوفان كنيسة سانت بيير الجميلة فى تناسبها — وهى ضحية أخرى للحرب العالمية الثانية . وكان الناس والمدن من الغنى بحيث أصبح من المستطاع أن يقدموا القصور ومبانى البلديات ، فى البهاء نفسه الذى كان يشيد به الكنائس لله . واتخذ الأساقفة الذين حكموا لييج ، لأنفسهم ورجال إدارتهم ، سكنا فى أعظم قصر وأجمله فى الأرض المنخفضة . وأنشأت جنت دارها النقابية عام ١٣٢٥ . وبروكسل قاعة بلديتها فى عام ١٤١٠ — ١٤٥٥ ولوفان من عام ١٤٤٨ — ١٤٦٣ ، وأضافت بروجى دار بلديتها بين عامى ١٣٧٧ ، ١٤٢١ ، وتوجتها ببرج ناقوس عالمى الشهرة ١٣٩٣ — ١٣٩٦) الذى استخدم كمعلم من المعالم للملاحين الضاربين بعيداً فى البحر . وبينما عبرت هذه المبانى القوطية النبيلة عن كبرياء المدن والتجار ، فقد أنفق الدوقات وأفراد الطبقة الأرستقراطية الأموال على تزويد قصوردم وقبورهم بضروب كثيرة ناصعة من النحت والتصوير والزخرفة الحطبة . ولما كان الفنانون الفلمنكيون ، قد أخافتهم الحرب من فرنسا ، فقد تزاحموا عائدين إلى مدنهم . وحشد فيليب الجسور نجوما ساطعة من العبقريات ، ليزين مقره الصيفى فى شارتريز دى شامبمول — وهو دير أرتوزى فى الحقل الهادى المجاور لريجون .

وأوفد فيليب عام ١٣٨٦ چان دى مارفى ، لكى يصمم له ضريحا فى شارتريز . ولما توفى مارفى (١٣٨٩) أتم عمله كلوز ساوتر الهولندى ، ولما توفى ساوتر بدوره (١٤٠٦) واصل العمل تلميذه كلوز ، وانتهى الضريح آخر الأمر (١٤١١) فاستقبل رفات الدوق ، الذى كان قد مات قبل ذلك بسبع سنوات . وفى عام ١٧٩٣ أمر مجلس ثورى فى ريجون بهدم الضريح العظيم ، فنثر حطامه أو أتاف . وفى عام ١٨٢٧ ، جمع رجال الدين فى المقاطعة ، بعد أن تنفسوا نسيم الحـــرية ، القطع الباقية منه

وأودعوها متحف ريجون . ورقد الدوق وزوجته الدوقة مارجريت أميرة فلاندرز فى تابوت مرمرى جميل على منصة ضخمة من الرخام ، وتحتهما رسوم أربعين شخصا يبكون — وهى التى بقيت وحدها من النقوش التسعين — موت الدوقين فى حزن صامت رائع . أما باب الكنيسة فى شارتريز فإن ساوتر وتلاميذه (١٣٩١ — ١٣٩٤) نقروا خمسة رسوم فاخرة . العذراء تتلقى ولاء فيليب ومارجريت ، يقدمها إليها يوحنا المعمدان وكاترين القديسة الاسكندرية . وأقام سارتر فى الصحن أروع أعماله وهو بئر موسى — وهى قاعدة تحمل تماثيل لموسى وداود وارميا وزكريا واشعيا ودنيال ، وفوقها مشهد الصلب ، ولم يبق منه إلا رأس نبيل مهموم للمسيح تتوجه الأشواك . ولم تشهد أوربا مثل هذا النحت الذى تبدو فيه القوة الفائقة والجرأة الفريدة ، منذ أزهى عصور الفن الرومانى .

وكانت للمصورين دولة عظيمة كالمثالين . وظل رسامو المنمنمات يحظون برعاية الكبراء . . فلقد دفع كونت وليام أمير هانو ، بسخاء من أجل تزيين « أجمل صلوات العذراء » (حوالى ١٤١٤)(*) . ووضع عبقرى مجهول (لعله هوبير فان ايك) نموذجا ومستوى لألف رسام من الأرض الواطئة للمناظر الطبيعية وذلك بالتقاطه بدقة مجهرية ، ثغرا فيه سفن تلقى مراسيها أو تحجز عباب البحر ، والركاب يصعدون والملاحون ورجال الشاطىء يقومون بأعمالهم المختلفة ، والأمواج تتكسر على شاطىء هلالى ، والسحب البيضاء تسير خفية عبر السماء — كل هذا فى حجم بطاقة الصورة الشمسية . وفى ١٣٩٢ زين ملكيور برويد رلام اليبرسى دير شارتريز دى شامبمول بأقدم لوحة حائطية باقية معبرة خارج إيطاليا . ولكن برويد رلام

(*) وتعرف كذلك باسم صلوات تورين . وذهبت بعض هذه المنمنمات فى حريق المكتبة الأهلية بتورين عام ١٩٠٤ ، ولكن صوراً فوتوغرافية منها قد بقيت ، وبقت أصول متعددة فى متحف مدينة تورين .

والفنانين الذين نقشوا الحوائط وتماثيل الدير ، قد استعملوا أمزجة ألوان تقليدية — خلطوا ألوانهم ببعض المواد الغروية ، وقلما يتحقق بهذه الوسائل التدرج فى الظلال والصفاء فى الألوان الخفيفة ، وقد تقضى الرطوبة على العمل بعد تمامه . وفى فترة مبكرة أى عام ١٣٢٩ قام جاك كومبير من جنت بتجربة خلط الألوان بالزيت . وطور الفلمنكيون بعد قرن من المحاولة والخطأ هذا التطبيق الفنى الجديد ، وأحدث ذلك فى الربع الأول من القرن الخامس عشر ، ثورة فى فن التصوير . فعندما صور هوبرفان أيك وأخوه الأصغر جان « تمجيد الحمل » لكاتدرائية سانت بيفن فى جنت ، لم يؤكدا تفوق الزيت كطلية للون فحسب ، ولكنهما أنشآ ، إحدى روائع الفن فى تاريخ التصوير ومن أجلها أصبحت سانت بيفن مقصدا للزائرين منذ ذلك الوقت .

أما من ناحية الشكل فإن هذا الأثر الذى يعد أعظم آثار الفن التصويرى فى القرن الخامس عشر ، والذى يصفه جيته بأنه « محور تاريخ الفن » ، عبارة عن طية من ست لوحات جدارية ، مصورة على الخشب ، على كلى جانب اثنتا عشرة صورة وعندما تفتح الطية ، يبلغ طولها احدى عشرة قدما ، وعرضها أربع عشرة قدما ، وفى وسط الصف الأسفل ، منظر خيالى للريف ، مع مدينة ذات أبراج عالية — بيت المقدس — ترتفع فى المساحة التى وراء التلال ، وفى الأرض الأمامية عين « ماء الحياة » وأبعد من هذا إلى الخلف مذبح وعنده حمل يرمز إلى المسيح يتدفق منه دمه القربانى ، بينما يتجمع حوله البطارقة والأنبياء والرسل والشهداء والملائكة والقديسون فى عبادة خاشعة . وفى الوسط العلوى شخص يجلس على عرش ، يشبه شخصية خيّرة لشرلمان له ملامح سامية ، ولقد رسم على أنه الإله الأب — وهو تمثيل غير مطابق للربوبية وإن كان تصورا نبيلا لحاكم رشيد وقاض عادل . ولا يتفوق عليه فى هذه الصورة إلا شخصية واحدة — هى شخصية

العذراء ، لها قسمات لطيفة ، شقراء تيوتونية ، لا تمثل الجمال ، بقدر ما تمثل الطهارة والوداعة ، وبدت العذراء السستينية أقل نبلا . وعلى يسار السيدة مريم جمع من الملائكة ، وفى أقصى اليسار آدم عارى الجسد . نحيل حزين ، يتذكر فى بؤس فترة سعيدة من الزمن . « وإلى يمين الإله الأب ، يوحنا المعمدان ، وهو فى زى أكثر ترفا من راع ، يعظ فى البرية . وفى أقصى اليمين تقف حواء عارية ، مكتئبة غير جميلة ، تندب الفردوس المفقود ، ولقد ظلت صورتها فترة من الزمن ، مثلها فى ذلك مثل آدم فى الطرف الآخر ، تصدم الفلندرى الذى ترتعد فرائصه من البرد ولم يألف العرى فى الحياة أو الفن . وأعلى صورتها قابيل يقتل أخاه كمدخل رمزى للتاريخ .

والجانب الخلفى من هذه المجموعة يهبط عن الطراز المتسامى للوحات الداخلية . فنجد فى الصف الأوسط ملاكا إلى اليسار ومريم إلى اليمين ، تفصلهما مسافة ، يصوران البشارة — الوجهان عاريان ، والأيدى جميلة إلى حد ظاهر ، والأزياء كأروع ما تكون فى التصوير الفلمنكى . وفى الأسفل مقطوعة شعرية لاتينية من أربعة أبيات ، ذهبت القرون ببعض كلماتها ، أما الباقى فهى « بدأ هوبرت فان أيك ، هذه المهمة الصعبة ، وهو العظيم الذى لا يضارعه فى حذقه أحد ، وجوهانس الذى يليه فى الفن . . . شجعتهما وصية « جودوكس فيد . وهذا الشعر فى السادس من مايو ، يدعوكم لمشاهدة العمل وقد تم » ، وفى البيت الأخير حروف معينة ، مجموعها فى حساب الجمل ١٤٣٢ ؛ وهى السنة التى أنجز فيها هذا الأثر الفنى . وكان ڤيد وزوجته هما الواهبان . ونحن نتساءل : ما هو المقدار الذى رسمه هربرت ، والذى رسمه جان ؟ إنها مشكلة تستعصى على الحل لحسن الحظ ، ومن ثم فقد تظل

الدراسات تكتب فى الموضوع حتى يختفى(*) أثر للصورة .

وربما كان فى هذه الصورة التى تعد بداية مرحلة جديدة فى الفن إسرافاً فى الأشخاص والمنمنمات : فقد أظهر كل رجل وامرأة وملاك وزهرة وغصن وفرار وحيوان وحجر ودرة بصبر وإخــلاص بطولين — وقد أمتعت « ميشــيلانجلو » الذى رأى ، فى الواقعية الفلمنكية ، تضحية بالتعبير الأساسى ، فى سبيل التفاصيل العارضة غير المتصلة بالموضوع . ولكنه لا يوجد شيء فى إيطاليا المعاصرة ، يضارع هذه الصورة فى المجال والفكرة والتأثير ، ولم يتفوق عليها فى فترة متأخرة من تاريخ التصوير ، إلا سقف الكنيسة السستينية لميشيلانجيلو وصور روفائيل الجدارية فى الفاتيكان ، وربما صورة « العشاء الأخير » لليوناردو ، قبل إن تدخل فى تحللها الطويل بل أن أوربا المتعلمة كلها كانت تتحدث عن صورة « تمجيد الحمل » إبان الفراغ من إنشائها . ولقد ناشد الفونسو الهام ، الفنان جان فان أيك ، أن يذهب إلى نابلى ، ويصور له ، أمثال أولئك الرجال والنساء ، ذوى الشعر الذهبي الذين كثروا فى هذه الصورة وإن قل وجودهم فى إيطاليــا الجنوبية .

وخرج هيوبرت فان إيك من محيط علمنا بعد عام ١٤٣٢(**) ، ولكننا

(*) لقد بقيت صورة « عبادة الحمل » برغم كثير من الإصلاحات والأحداث ـ ورممت فى الأعوام ١٥٥٠ ، ١٦٦٣ ، ١٨٢٥ ، ١٨٢٩ ، ١٨٥٩ ، ١٨٣٩ ، ١٩٥٠-١ . ولقد تفككت الأجزاء الرئيسية بوساطة جيش الثورة الفرنسية إلى باريس عام ١٧٩٤ ، ثم أعيدت عام ١٨١٦ . وبيع الجانبان (من غير آدم وحواء) إلى بائع صور فنية (١٨١٦) ، واشتراها متحف برلين (١٨٢١) ، وأعيدا إلى جنت بمعاهدة فرساى (١٩١٩) ، ونقلت المجموعة فى الحرب العالمية الثانية إلى فرنسا حماية لها ، وأخذها الألمان عام ١٩٤٢ ، وأخفيت عام ١٩٤٤ ، فى مناجم الملح النمسوية ، وأعيدت إلى كنيستها عام ١٩٤٦ ، بوساطة جيش الولايات المتحدة الأمريكية .

(**) وينسب إليه بغير تحقيق خمس صور : (نيويورك) ، ومريمات الثلاثة عند القبر (مجموعة فير هوتن فان بوتنجن) وصورة صغيرة للعذراء فى فرنكفورت ، وجانبان المذبح (نيويورك) تمثل الصلب والمحاكمة الأخيرة وفيه بوتشيان ؟ .

نستطيع أن نتتبع جان فى حيـاة عاملة مزدهرة . فقد جعله فيليب الطيب حاجباً له (وكان إذ ذاك منصباً له جلاله وسلطانه) وأرسله إلى الخارج فى سفارات وكأنه جوهرة من تاج برجنديا . وينسب إليه ما يقرب من أربع وعشرين صورة لا تزال باقية إلى الآن ، وتكاد تكون كل واحدة منها عملا فنياً كبيراً . وفى درسدن صورة للعذراء وطفلها ، وهى تلى « عبـادة الحمل » فى إنتاج فان أيك ، وتمتدح بولين « الرجل ذا الزهرة » — وجه دميم غير متناسب إلى حد عجيب مع الزهرة الجميلة ، وفى حيازة مدينة ملبورن صورة العذراء وطفلها فى بلدية إنس « وهى لا تكاد تتجاوز تسع بوصات فى ست ، ومع ذلك نقدر قيمتها بخمس وعشرين ألف دولار ، وتكتنز بروجز صوة العذراء والكاهن بايل — وفيها العذراء رائعة من شعرها المنساب إلى هدبة ردائها المثنى فى روعة . والكاهن سمين أصلع طيب وهى من أعم صور الأشخاص فى القرن الخامس عشر ، وتعرض لندن الزوجين حديثاً ، جيوفانى أو فلفين ومعه عروسه فى قاعة داخلية يتلألأ بمرآة وشمعدان ، وحصلت مجموعة فريك فى نيويورك ، حديثاً بثمن كبير لم يذكر ، على صورة للعذراء وطفلها زاهية الألوان ومعها القديسة بربارا وإليزابث ، وفى واشنطن صورة بشارة تمتـاز بخداع يوهم بعمق الفراغ وفخامة ثياب جبرائيل ، وهما يحولان البصر على مريم ، وفى حوزة اللوفر صورة العذراء والحاجب رولان . وفيها مشهد أخاذ لنهر تتلوّى عليه جسر يزدحم بالناس ومدينة ذات أبراج وحدائق مزدهرة ، وسلسلة تلال ترتفع مرحبة بالشمس . ونجد فى هذه الصور كلها ، إلى جانب الألوان التى تستوعبها إصرار على تصوير الواهبين كما كانوا يبدو للعين ، بحيث يتم الوجه على الحياة التى عاشها صـاحبها ، والأفكار والأحاسيس التى صاغت على مر السنين الملامح ، لتجعل منها ، اعترافاً يفصح عن الشخصية ولقد طرحت جانباً فى رسوم الأشخاص هذه الروح المثالية التى اتسمت بها

القرون القرون الوسطى ، وبدأت تظهر طبيعة حديثة — لعلهـا تعكس الاتجاه الدنيوى للطبقة الوسطى — بكل مقوماتها .

ولقد حصل فنانون كثيرون آخرون على الشهرة فى هذه البيئة وذلك العصر الخصيبين أمثال : بتروس وكريستوس وجاك دارت ووبرت كامين (أستاذ فلمال) ونحن نحنى رؤوسنا لهم خاشعين ثم نواصل السير إلى تلميذ كامين وهو روجر دى لا باستير . ولما أن بلغ روجر السابعة والعشرين من عمره ، ذاع صيته ، فى مسقط رأسه تورناى ، فأحرز مرتين الدرجات الثلاث ، أو قنانى النبيذ الثلاث ، التى رصدها لجان فان إيك ، ومهما يكن من شىء ، فقد لبى الدعوة ليكون مصوراً رسمياً فى بروكسل ، ومن ثم جعل لاسمه الصيغة الفلمنكية روجيه فان درويدن . وفى عام ١٤٥٠ وكان قد بلغ الواحدة والخمسين ، رحل إلى روما للاحتفال بعيده الخمسينى ، ولقى المصورين الإيطاليين ، واحتفل به بوصفه أحد مشاهير العالم وربما كان تقدم التصوير بالزيت فى إيطاليا بتأثيره . ولما توفى عام ١٤٦٤ فى بروكسل ، كان أشهر فنان فى أوربا بأسرها .

وبقى فنه فى آثار كثيرة . ولقد صور أيضاً فيليب الطيب ، ورولان — وزير فيليب لمدة أربعين سنة — وشارل الجسور وغيرهم من الشخصيات البارزة . وتتسم « صورة سيدة » بجمال يفوق الوصف فى المتحف القومى بواشنطن — وهى تجسم المشاكسة والتقوى والتواضع والكبرياء . وكان روجر فى فن تصوير الأشخاص رومانسيا لا يبلغ شان جان فان ايك ، ولكنه أظهر فى صوره الدينية، دقة وإحساساً مرهفاً ، وعمقاً فى الانفعال وهو ما يفتقر إليه فن جان القوى الواقعى ، وربما كانت الروح الإيطالية أوالفرنسية ، تتوسل فى التعبير بالشكل الفلمنكى ، وتبعث بذلك منهج القرون الوسطى .

ولقد سجل روجيه ، مثله فى ذلك مثل الإيطاليين ، الأحداث الحيوية المثيرة ، فى قصته مريم وابنها : فإن جبريل يعلن فتاة مفزعة أنها ستكون

أم الزب ، والطفل فى المزود ، وعبادة المجوس ، وصورة القديس لوقا وفيها العذراء وهى ترعى طفلها ، وزيارة مريم لاليزابث ، والأم تتأمل طفلها فى سعادة ، والحضور إلى الهيكل ، والصلب ، والنزول عن الصليب ، والقيامة ، ويوم الحشر . وبلغ روجيه فى هذا المشهد الأخير أوجه ، فى مجموعة لوحات لعلها صممت لتضارع « عبادة الحمل » ولكنها غير جديرة بذلك تماماً . ولقد صورت ارولان ، وهى الآن فى المستشفى الفخم ، الذى أسسه الوزير العظيم فى بوين . وفى اللوحة الجدارية الوسطى ، يجلس المسيح للمحاكمة ، وتغلب الرحمة عليه عما فى صورة ميشلانجياو ، ويقف فى كلا الجانبين الملائكة بملابسهم البيضاء الناصعة : يحملون وسائل عذابه وموته ، ويظهر تحتهم ميكائيل رئيس الملائكة : يضع فى الميزان الحسنات والسيئات : وإلى اليسار تركع مريم فى خشوع وضراعة ، وفى أحد الجانبين يجثو الأبرار فى صلاة شكر ، وفى الجانب الآخر يقع الأشرار فزعين فى الجحيم ، وهناك ثلاثية فى أشورب تكاد تبلغ فى شهرتها هذه الصورة وهى تصور الأسرار المقدسة السبعة فى مشاهد رمزية . وأراد روجيه ألا نتمثله ، مستغرقاً فى وجد دينى ، فصور حسناء تغتسل ، وشابين يسترقان النظر إليها من خلال شق فى الحائط ، بفضول تشريحى نهم لا يشبع أبداً .

٤ – شارل الجسور : ١٤٦٥ – ١٤٧٧

تبخر هذا الفوران كله بفضل حدة مزاج شارل المتهور ، الملقب خطأً بالجسور . وهو الذى صوره روجيه فان درويدن ، فى صورة كونت شاروليه الفتى الجميل الحاد ذى الشعر الأسود ، الذى قاد جيوش أبيه ، فى انتصارات دامية ، وعرك سلطان أبيه منتظراً وفاته . ففى عام ١٤٦٥ أحنق فيليب الطيب بنفاذ صبره ، فسلم إليه مقاليد الحكم ، وأشبع بذلك طموح الشاب ونشاطه .

وأبى شارل تقسيم دوقيته إلى ولايات شمالية وأخرى جنوبية تتفرق مكاناً

وتتعدد لغة ، وأبى فوق ذلك الولاء الإقطاعى الذى يدين به عن بعض هذه الولايات للملك فرنسا ، وعن بعضها الآخر لإمبراطور ألمانيا . وكان مشوقاً لتحقيق برجنديا العظمى ، مثل لوثارينجيا (لورين) فى القرن التاسع ، لتكون مملكة وسطى بين ألمانيا وفرنسا ، موحدة من الناحية الطبيعية ، ذات سيادة من الناحية السياسية . ولقد فكر أحياناً ، فى أن وفيات بعض أولياء العهود الذين يتداخلون فى نسبه فى الوقت المناسب ، قد تسلمه العروش الفرنسية والإنجليزية والإمبراطورية ، وتسمو به إلى مصاف أرفع الشخصيات فى التاريخ مكانة . ولقد نظم ، تحقيقاً لهذه الأحلام ، أحسن جيش عامل فى أوربا ، وفرض على رعاياه من الضرائب ما لا نظير له فى الماضى ، وكيف نفسه لمكابدة كل عناء وتجربة ، ولم يمنح عقله وجسمه ، ولا أصدقاءه وأعداءه ، فترة من الراحة والسلام .

ومع ذلك : فقد فكر لويس الحادى عشر ، فى برجنديا باعتبارها إقطاعة من ملك فرنسا ، وحارب تابعه الغنى متفوقاً فى الخطط والدسائس . فانضم شارل إلى النبلاء الفرنسيين ضد لويس ، وغنم مدناً أخرى ، والعداوة الدائمة للملك عنيد . وفى هذا الصراع انتقضت دينان ولييج على برجنديا ، وأعلنا ولاء هما لفرنسا ، كتب بعض المتحمسين فى دينان Dinant ، على صورة معلقة لشارل ، إنه ابن سفاح لقسيس مستهتر . فهدم شارل أسوار المدينة بالمدافع ، وأباحها لجنوده ثلاثة أيام ينهبونها ، واسترق جميع رجالها ، وشرد كل نسائها وأطفالها ، وأحرق جميع مبانيها حتى أصبحت أثراً بعد عين ، وألقى بثمانمائة من الثائرين مقيدة أيديهم وأرجلهم من خلاف فى نهر الموز (١٤٦٦) ومات فيليب فى شهر يونيو التالى ، وأصبح كونت شاروليه ، شارل الجسور . فأعاد الحرب مع لويس ، وأجبر لييج التى ثارت مراراً بمحاصرتها ، على أن تؤيده وتعاونه فى هذه الحرب . وقدم سكان المدينة المتضورون جوعاً ، جميع ما يملكون ثمناً لحياتهم . . فرفض العرض ،

وأباح المدينة ، ولم ينج من النهب بيت أو كنيسة ، وانتزعت كؤوس القربان من أيدى القساوسة وهم يقومون بالصلاة ، وأغرق جميع الأسرى الذين عجزوا عن دفع الدية الباهظة (١٤٦٨) .

والعالم ، وإن تردى ، طويلا فى أعمال العنف ، لا يستطيع أن يغتفر لشارل قسوته ، وخروجه على تقاليد الإقطاع فى حبس مليكه وإذلاله . فلما غزا جلدرلاند ، وحصل على الألزاس ، وتقدم بخطى إمبراطور ليتدخل فى كولونيا ومحاصرة نيس Neuss . بادر جميع جيرانه إلى الوقوف فى وجهه . وأسخط بيتر فان هاجنباك ، الذى عينه والياً على الألزاس ، الناس لفظاظته وجوره وقسوته ، فشنقوه ، وأعلن الاتحاد السويسرى محاربة شارل إلى الموت (١٤٧٤) ذلك لأن التجار السويسريين كانوا من ضحايا بيتر ، والذهب الفرنسى كان يوزع من الناحية العسكرية فى سويسرا ، والولايات السويسرية ، كانت تحس بأن اتساع سلطان شارل خطر يهدد حريتها . فترك شارل نيس ، واتجه ناحية الجنوب ، فغزا اللورين — موحداً لأول مرة طرفى وقيته — وسير جيشه عبر جورا ، إلى فود . وكان السويسريون أشجع الجنود فى عصرهم ، فهزموا شارل بالقرب من جرانسن Granson ، ثم دحروه بالقرب من مورات (١٤٧٦) وهكذا اكتُسح البرجنديون ، وبلغ الحزن بشارل أن أشرف على الجنون . فاغتنمت اللورين الفرصة وانتقضت عليه ، وأرسل السويسريون الرجال وبعث لويس الذهب لمعاونة الثورة ، وألف شارل جيشاً جديداً ، وحارب الحلفاء بالقرب من نانس ، وهزم فى المعركة ولقى الموت (١٤٧٧) . وفى الغداء التهمت الغيلان قطعاً من لحمه العارى ، ووجد غارقاً إلى النصف فى مستنقع ، ووجهه متجمد ملتصق بالجليد . وكان فى الأربعة والأربعين من عمره . وهكذا اندمجت برجنديا فى فرنسا

٥ – الفن فى الأراضى الواطئة

١٤٦٥ – ١٥١٥

اضمحلت فلاندرز الجنوبية فترة من الزمن بعد فيليب الطيب ، ودفعت الاضطرابات السياسية بكثير من النساجين إلى إنجلترا ، وكانت صناعة النسيج البريطانية النامية تحصل على تجارتها ومواردها الخامة من المدن الفلمنكية ، وما إن جاء عام ١٥٢٠ ، حتى كان النسيج الإنجليزى يزحم أسواق فلاندرز نفسها . وازدهرت بروكسل وميشلن ، وفالنسين بالتفوق فى صناعة الشرائط والسجاجيد والفرش والحلى ، ونامور بفضل صناعة الجلود ، ولوفان بفضل جامعتها وجعتها . وحوالى عام ١٤٨٠ ، بدأت القناة التى تصل بروجس بالبحر ترسب الطمى فى مجراها ، وبذلت جهود جبارة لتطهيرها ، وقضت الرمال والرياح على هذه الجهود ، ولم تعد السفن التى تمخر عباب البحر ، تستطيع الوصول إلى بروجس بعد عام ١٤٦٤ . وسرعان ما هجر تجارها ، ثم صناعها المدينة إلى أنتورب ، التى كانت السفن ذوات الغاطس الكبير ، تدخلها عن طريق مصب نهر شلد . وعقدت أنتورب اتفاقيات مع المصدرين الإنجليز ، وشاركت كاليه فى تجارة إنجلترا مع القارة الأوربية .

ولقد بقيت الحياة فى هولندة بفضل السدود ، التى ينبغى أن يعاد بناؤها مراراً ، وقد تنهار فى أى وقت ، ولقد اختل بعضها عام ١٤٧٠ فأغرق عشرين ألفاً من السكان . وكانت الصناعة الرئيسية الوحيدة هى صيد سمك الرنجة وتجفيفها . وأخرجت هولندة كثيرين من أشهر المصورين فى ذلك العصر ، ولكنها كانت أفقر من أن تحتفظ بهم ، فهاجروا جميعاً إلى فلاندرز ما عدا جيرتجن الذى شرب نخب سنت جانز .

وهناك ، حتى فى المدن الآفلة ، كان الأغنياء من نواب المقاطعات يرتدون الملابس الفاخرة ، ويسكنون بيوتاً من الآجر المتين بها أساس فخم — علقوا

على جدرانها حوراً على النسيج من أراس وبروكسل ، وزودوها بآنية متلألئة من النحاس الأصفر من دينان . وشيدوا كنائس رائعة مثل كنيسة نوتردام دى سالبون فى بروكسل ، وكنيسة سانت جاك فى أنتورب ، وأقاموا برج واجهة كاتدرائية أنتورب حجراً حجراً ، وبدأوا فى تشييد قاعة البلدية العظيمة فى جنت . وأمدوا المصورين بالمال ، وجلسوا أمامهم لتصوير أشخاصهم ، وتقربوا إلى السموات بفن يقوم على النذور ، وسمحوا لنسائهم بقراءة الكتب . وربما كانت نزعتهم الدنيوية ، هى التى حفزت فن التصوير الفلمنكى ، فى الفترة الثانية من ازدهاره ، إلى التركيز على الواقعية والمناظر الطبيعية حتى فى الصور الدينية ، والبحث عن موضوعات جديدة فى الدور والحقول .

واستهل ديرك بوتس الاتجاه الواقعى بمبالغات طبيعية عند أصحاب البدع . ولقد جاء إلى بروكسل من مسقط رأسه هارلم ، ودرس هناك على يد روجيه فان درويدن ، وأقام فى لوفين ، وصور لكنيسة سانت بيير مجموعة لوحات جدارية هى « العشاء الربانى الأخير » ، ومعها لوحة حائطية موضوعها — عيد الفصح فى أسرة يهودية — ويبدو أنها توحى بأن العشاء الربانى الأخير ، كان احتفالا بعشيرة يهودية سنية ، يقوم بها يهود لا يزالون مؤمنين باليهودية . وصور للكنيسة ذاتها « استشهاد القديس إيرازس » تصويراً حرفياً مذهلا ؛ جلاذان يديران دولاباً ، يخرج ببطء ، أمعاء القديس المتجرد من الثياب . وفى « استشهاد القديس هيبوليتوس » أربعة جياد تساق فى أربع اتجاهات تنفصل ذراعي الفريسة ورجليها . وفى « قطع رأس الفارس البرىء » نجد فارساً اتهمته إمبراطورة فاشلة فى حبه انتقاماً منه ، بأنه حاول هتك عرضها ، فأمرت بقطع رأسه ، وفيها انبطحت الجثة الدامية على الأرض ، واطمأن الرأس المنفصل فى حجر الأرملة ، وكان بوتس يتفادى عنفه ، فى الغالب ، بإظهار الطمأنينة الراضية عند المحتضر أو الميت — وفى هذه الصور

ألوان حية ، ونجد بين حين وآخر منظراً طبيعياً حسناً أو رسماً منظوراً ، بيد أن رسومها المتقنة وشخوصها الجامدة والوجوه التى لا حياة فيها ، توحى بأن الزمن ليس حكيماً فى انتقائه على الدوام .

وقد يكون هوجوفان درجوز ، أخذ نسبته من جوز فى زيلندة ، وهو شاهد آخر على عبقرية هولندة الخصية الآفلة . وفى عام ١٤٦٧ سمح له بأن ينضم إلى نقابة المصورين فى جنت . وكان ذلك إرهاصاً بشهرة التصوير الفلمنكى ، حتى إن تاجراً إيطالياً فى فلاندوز ، وقع اختياره عليه ، لكى يصور ثلاثية كبيرة لمستشفى سانتا ماريا نيوفا فى مدينة فلورنسا التى كانت تعج بالفنانين . وانتخب هوجو لموضوعه هذه العبارة « إن من حملته قد عبدته » . وصورة العذراء بالحجم الطبيعى ، يغمرها الخشوع ، وهى من الروعة بمكان ، وإلى اليسار راع يتنبأ بروعة رفائيل وتيتيان ، ويعد المنظر الطبيعى الشتوى ، عملا جديداً ، من ناحية الحب المخلص للطبيعة . وأن ما اتسم به فان دُوجوز من الواقعية العاتية ، والأداء الأصيل ، والرسم الدقيق والتحديد المضبوط للشخصية ، قد وضعه على قمة المدرسة الفلمنكية فى الربع الثالث من القرن الخامس عشر . ولقد دخل أحـــد الأديرة بالقرب من بروكسل (حوالى ١٤٧٥) ، أما ليجد مزيداً من الهدوء يعينه على العمل ، وأما ليتخلص من المخاوف الدينية التى اعترته . وهناك واصل التصوير وأمعن فى تعاطى الخمر ، (كما يقول راهب زميل له) . واستولت عليه فكرة ، إن الله قد كتب عليه اللعنة الأبدية ، فأظلمت حياته ودفعته إلى الجنون .

ويخبرنا فسباسيانو دا بستيش ، أن الدوق فيديريجو صاحب أوربينو Urbino ؛ قد أرسل حوالى عام ١٤٦٨ ، إلى فلاندرز يطلب مصوراً ، يزين غرفة مكتبه ، لأنه « لا يعرف أحداً فى إيطاليا ، يفهم كيف يصور بالألوان الزيتية » . فلبى فان فاسنهوف الدعوة ، وهو صديق فان درجوز ،

وأقام فى أربينو ، وعرف منذ ذاك باسم جوستس فان جنت . فصور للدوق العالم ثمانى وعشرين صورة لطائفة من الفلاسفة كما صور لفريق من الإخوان الرهبان فى أربينو مذبحاً « تناول الأسرار المقدسة » . ومع أن هذه الآثار فلمنكية الأسلوب إلا أنها تسجل تأثيراً متبادلا بين فلاندرز وإيطاليا ، فقد تأثر المصورون الإيطاليون بالفن الفلمنكى فى الإقبال المتزايد على استعمال الزيت والنزعة إلى الواقعية ، كما تسربت المثالية والحرفية الإيطالية فى الفن الفلمنكى .

ونحن نجد أن هانز مملنج ، وإن كنا لم نعثر على خبر يفيد زيارته إيطاليا ، قد أدخل فى تصويره رشاقة ورقة ، لعله اكتسبها من مصورى كولونيا ، أو من روجيه فان درويدن ، أو لعل هذا التأثير قد جاءه من البندقية وعلى طول الرين إلى مينز . ولقد ولد بالقرب من مينز ، وربما اكتسب نسبته من مسقط رأسه مزملنجن ، ثم رحل من ألمانيا إلى فلاندرز وبروجس حوالى عام ١٤٦٥ . وهناك ، وبعد ثلاث سنوات ، طلب إليه سير جون دن ، وهو زائر إنجليزى ، أن يصور له « العذراء على العرش » . فكانت صورة تقليدية فى المنهج والآراء . ولكنها تظهر فى الوقت نفسه اقتداره الحرفى ، ورهافة حسه ، وتفرغه للعبادة . ولقد أبرز القديس يوحنا المعمدان ، فى واقعة فلمنكية والقديس يوحنا الإنجيل فى مثالية ملائكية ؛ وكشفت الفردية النامية فى الفن ، من نفسها فى صورة « مملنج » وهو يختلس النظر متلفتاً حول عمود .

وكان مملنج يشبه بروجينو ، الذى جاء بعده بقرن من الزمان فى رسمه مئات الصور للعذراء ، فى رقة الأمهات وسكينة الأبرار وهذه الصور معلقة على جدران المتاحف ، تراها العين أينما اتجهت فى برلين وميونخ وڤينا وفلورنسة ولشبونة ومدريد ، وباريس ولندن ونيويورك ووشنطن وكليفلند وشيكاغو . وتوجد اثنتان من أحسن هذه الصور بمستشفى سانت جون فى بروجس ، ونجد أن مريم تسيطر على صورة « زواج القديسة كاترين الصوفى » ، حيث تبدو

الفخامة فى كل شخصية ، وهى تتصدر مرة أخرى « صورة عبادة الطفل » ويلفت النظر فيها المجوسى — وهو شخصية تشبه جوته المستشار الخاص — وفى صورة رحبة الأفق فى ميونخ ، رسم مملنج جميع الأحداث الرئيسية فى حياة المسيح الملونة . وسرد فى صورة أخرى بتورينو « قصة » الآلام « وعرض فيها أخلاطاً من الرجال والنساء ، حتى إن « بروجل » وجد عناء فى التفوق عليه فى كثرة العدد . وصور من أجل صندوق أرغن فى دير بمدينة ناجرة بأسبانيا ، ثلاثية للسيد المسيح تحيط به الملائكة ، تضارع صورة « الملاك الموسيقى » للرسام ميلوزد دافورلى التى رسمت قبل ذلك بأعوام ، ولم ير متحف أنتورب أنه مغبون عند ما دفع مائتين وأربعين ألف فرنك ثمناً لهذه الصورة عام ١٨٩٦ . ورسم صورة متعـــددة الأجزاء لمذبح موضوعها ، « يوم الحساب » لأيا كويوتانى وهو وكيل لورنزو دى مديتشى فى « بروجس »، ووضعت فى سفينة مبحرة إلى إيطاليا ، ولكن ربانا هانسياتيا استولى على السفينة ، فاحتفظ لنفسه بما كان فيها من أموال وترك الصورة تذهب إلى كنيسة العذراء فى دنزج .

ولقد صور مملنج فى هذه الآثار الرئيسية وفى اللوحات الخاصة بالأفراد ، بعض الرسوم الرائعة للأشخاص : مارتن فان نيو ومنيوف و « امرأة » — فى مظهر فخم تحت قبعتها العالية وفى أصابعها خواتم كثيرة — وكلا الصورتين فى إحدى مستشفيات بروجس ، وصورة « شاب » فى معرض لندن للصور ، و « عجوز » فى نيويورك ، وحامل السهم فى وشنطن . وهى لا تبلغ الإلهام والعمق اللذين اتسم بهما فن تيتيان أو رفائيل أوهولبين ، ولكنها تبلغ السطوح البسيطة بخلق صناع . أما الصور العادية غير الأساسية مثل آدم وحواء ، وأم سليمان فى الحمام فلا تفتن الناظرين .

وزين مملنج فى ختام حياته العملية تقريباً ، ضريحاً قوطياً ، فى مستشفى بروجس ، وقد صمم لكى يستقبل ، آثار القديس أورسولا . فقص فى ثانى

لوحات حائطية ، كيف أن السيدة الورعة ، خطيبة الأمير كونون ، أجلت زواجها حتى تجمع إلى روما ، وكيف أبحرت ، مع أحد عشر ألف عذراء ، فى نهر الرين إلى بازل ، وقادتهن فى رحلة فوق جبال الألب ، واعتصمت ببركات البابا وكيف أن هؤلاء الـ ١١,٠٠١ قد استشهدن على يد الهون فى كلونيا . وبعد ذلك بتسع سنوات (١٤٨٨) ، قص كارپاكشيو فى صورة ، هذه القصة الرائعة المستحيلة فى آن واحد ، برسم أدق ، وألوان أزهى ، وذلك لمدرسة القديس أرسولا فى البندقية .

وليس من الإنصاف لمملنج ولا لأى مصور آخر ، أن ننظر إلى صوره ، نظرة كلية ، فكل واحدة منها لزمان ومكان معينين ومنهما تحمل خصيصته الغنائية . ونحن إذا نظرنا إليها نظرة عريضة فسنجد لتونا حدوده — ضيقة فى الأفق والأسلوب ورتابة شخوصه ، حتى رسومه المتواضعة للعذراء بما فيها من شعر ذهبي مرسل ، والسطح محبب أو صادق ، ويضىء بألوان لامعة ، ولكن الريشة قلما تنفذ إلى أعماق النفس تحت هذا السطح ، إلى سر العزلة ، والدهشة ، والطموح والهموم . وصور النساء عند مملنج لا حياة فيهن ، وكلما جردهن عن ثيابهن ، فإننا نصاب بالحزن ، عندما نجد أن كل واحدة منهن عبارة عن معدة كبيرة وصدر رقيق . وربما كان الطابع الغالب فى تلك الشئون مختلفاً عما هو عليه الآن ، بل أن رغباتنا قد تلقنا المبادئ . ومع ذلك فيجب أن نعترف أن مملنج عندما مات (١٤٩٥) ، كان زعيم مصورى شمالى جبال الألب بإجماع أوليائه ومنافسيه . فإن أحس فنانون آخرون بأخطائه أكثر من إحساسهم بأخطائهم . فإنهم لا يستطيعون أن يبلغوا مبلغه فى رقة الأسلوب وصفاء إحساسه وروعة تلوينه . ولقد ظل تأثيره عظيما قرناً كاملا على المدرسة الفلمنكية .

وواصل جيرار ديفيد مذهبه . فلقد جاء إلى بروجس من هولنده حوالى عام ١٤٨٣ ، وفتنته رقة مملنج الغنائية ، وصوره عن العذراء تكاد تماثل

صور مملنج ، ولعلهما اقتسما فيما بينهما نموذجاً يصدران عنه . وهى فى بعض الأحيان كما فى صورة « الراحة أثناء الفرار إلى مصر » (وشنطن) ، فإنه يتساوي مع مملنج فى إظهار وصيانة جمال العذراء ، وتفوق عليه فى تحديد رسم الطفل . وتحول فى كهولته إلى التجارة ورحل إلى أنتورب ، وبه انتهت مدرسة بروجس ، بينما بدأت مدرسة أنتورب على يد كونتن ماسيس .

وكان ماسيس ، ابن حداد فى لوفان واستقبل فى نقابة سانت لوك للمصورين بأنتورب عام ١٤٩١ ، بالغاً من العمر خمسة وعشرين عاماً . ومن العسير مع ذلك ، أن يوافق سانت لوقا على صورة « مأدبة هيرود » حيث كان هيرود يأسر بحز بسكين رأس المعمدان المفصول عن جسده ، أم على « دفن المسيح » حيث كان يوسف الأريماش ، ينذف لطع الدم عن شعر الجثة التى لا دم فيها . وتزوج ماسيس مرتين ، ودفن سبعة أطفال ، فكانت له صلابة فى نسج لوحاته ، وحموضة فى زيوته . وبذلك استطاع أن يصور فاجرة أرادت أن تخدع مرابيا عن نقوده ، وأظهر فى حالة نفسية أهدأ ، صيرفياً يعد ذهبه ، بينما تنظر زوجته إليه نظرة يختلط فيها التقدير بالغيرة . أما صور ماسيس للعذراء فهى أكثر إنسانية من صور مملنج ، إحداها (فى برلين) تقبل وتداعب طفلها كأى أم ، وألوان ملابسها التى تتراوح بين الزرقة الناصعة والأرجوانية والحمرة تبرز جمالها . ولما تحول إلى فن تصوير الأشخاص ، فإننا نجده ينفذ فى ملامح الوجه إلى الشخصية وكان بذلك أكثر توفيقاً من مملنج ، كما فى الصورة الرائعة « دراسة من أجل صورة شخص » فى متحف جاكيمار أندريه فى باريس ، ولقد لجأ إليه بيتر جيلليس Gillis (١٥١٧) عندما أراد أن يرسل إلى توماس مور ، صورة صادقة لشخصه وأخرى لأرازمس . وأحسن ماسيس مع تصوير جيلليس ، ولكن صورته لأرازمس كانت سيئة الطالع ، إذ أعقبتها الصورة التى رسمها هلبين .

ولما ذهب « دورد » (١٥٢٠) وهلبين (١٥٢٦) إلى أنتورب قدما إلى ماسيس أسمى أيات الإجلال باعتباره عميد الفن الفلمنكى .

ومع ذلك فقد ظهر فى الوقت نفسه فى برابانت ، أكثر الفنانين أصالة وعبثاً فى التاريخ الفلمنكى . ونحن نجد فى آثار ماسيس — كما فى الغوغاء بنظراتهم الشذراء فى « إظهار المسيح للناس » (مدريد) أو الوجوه الدميمة فى صورة « عبادة المجوس » (نيويورك) — الوجوه الشوهاء القاسية كالتى صورها ليوناردو فى عبثه الساخر بقلمه . ووفق هيرونيمس بوش فى استغلال هذه الأضاحيك . ولقد ولد ، وأنفق الشطر الأكبر من حياته فى بو — ل — ديك (فى شمالى برابانت ، وهى الآن هولنده الجنوبية) ، وأصبح يعرف بصفتها الفلمنكية « هيرتوجنبوش » واختصر أخيراً إلى بوش . وظل يصور الموضوعات الدينية المألوفة فترة من الزمان ، واقترب فى بعضها كما هو الحال فى « عبادة المجوس فى مدريد » من العادية . ولكن إحساسه بالمضحك أخذ يسيطر على خياله وفنه . ولعله ارتاع فى طفولته من حكايات القرون الوسطى عن العفاريت والأشباح ، وعن الشياطين تخرج من وراء كل صخرة ، أو تبرز من كل شجرة ، وأضحى الآن يستطيع أن يرسم هذه المردة رسماً كاريكاتوريا ، فى هجاء يشفى نفسه منها . ويبعدها عن عقله بالضحك منها . وأنكر بحساسية الفنان وصمات الإنسانية — الشاذ أو الدميم أو المشوه — والتقطهم فى مزيج هستيرى من الغضب والسرور . بل إنه فى المشاهد الرعوية كما فى صورة « المولد » (كلونيا) ، فإنه يجعل الصدارة لأنف بقرة ، وفى « عبادة المجوس » (نيويورك) يختلس الفلاحون النظر من النوافذ ومن الطرقات المسقوفة تحت القناطر ، إلى العذراء وطفلها . ومع ذلك فقد رسم فى هذه الصورة الأخيرة بحذق يبلغ حد الكمال ، صورة جليلة للقديس بطرس ، وملكا زنجيا ، يضع وقاره المهيب سائر الشخوص تتضاءل . ولما كان بوش قد بدأ بقصة المسيح ، فقد أظلم صوره بوجوه

بهيمية وعيون وحشية ، متوحشة ، وأنوف ضخام وشفاه ممطوطة سمجة نهمة . ولما تحول إلى قصص القديسين ، فقد أظهر القديس يوحنا الإنجيلى فى صورة رقيقة إلى حد عجيب ، فى مهاد غير عادى من المشاهد الطبيعية بين جزر وبحر ، بيد أنه وضع فى أحد الأركان شيطانا يتأمل — له قلنسوة قسيس وذنب فار وأرجل حشرة — وينتظر فى صبر أن يرث الأرض — وفى صورة « إغراء القديس أنطونى » أحاط الناسك المتوحد اليائس ، بفاجرات مبتهجات وتخيلات سحرية » — قزم غرست رجلاه فى كتفيه وطائر له ساقا ماعز وقرد له أرجل بقرة وفأر تتخطاه عليه ساحرة ومنشد متجول يضع على رأسه جمجمة حصان . وأخذ « بوش » العجائب من الكاتدرائيات القوطية وجعل منها عالماً قائماً برأسه .

كان أبعد ما يكون عن الواقعية . ولكنه كان ينقل بين حين وحين مشهداً من الحياة ، كما فى « الابن السفيه » ، إلا أنه بالغ هنا فى إظهار الدمامة والفقر والخوف . وليست صورته « ركبة اللدريس » نسمة فى أوائل الربيع ، ولكنها تصوير مرير لعبارة « كل الحشائش لحم » وكل شىء مثالى فوق الحمل : شاب يعزف الموسيقى لفتاة تغنى ، وخلفهما عشيقان يتبادلان القبلات وملاك يجثو على ركبتيه ، وفوقهما يرفرف « المسيح » فى السحاب . بيد أنه يصور على الأرض قاتلا ، يطعن عدوه المترنح ، وقوادة تغوى فتاة على الفجور ، ودجالا يبيع الدواء لكل داء وقسيساً بديناً يتسلم النذور من الراهبات ، وعجلات العربة تدهس بعض المحتفلين غير المكترثين . وإلى اليمين ، فريق من الشياطين ، تعاونهم قردة ، يسحبون الأشرار إلى الجحيم . ولقد علق فيليب الثانى ملك أسبانيا الذى غلبت الكآبة عليه هذه القطعة الفنية فى الاسكوريال . ووضع بالقرب منها ، زميلة لها هى « مباهج الدنيا » . وفيها نرى غديراً ، يغتسل فيه العرايا من الرجال والنساء ، وحوله موكب راكب من العرايا على متون حيوانات نصفها طبيعى ونصفها الآخر من

تهاويل الخيال ، ويبرز الشوك والحسك من كل جانب فى الصورة ، وفى مقدمتها ، عريانان يتعانقان فى رقصة فالس ، بينما يحدق إليهما طائر ضخم فى نشوة فلسفية . ويظهر قطاع منها خلق حواء لتكون أصل جميع الشرور ، ويظهر قطاع آخر تعذيب الأشرار . وهى معجزة فى الإبداع والحذق فى الرسم والخيال المريض — وتمثل بوش خير تمثيل .

وقد يتساءل البعض : هل وجد ، حتى فى فجر التجديد الحديث ، ملايين المسيحيين البسطاء الانفعاليين ، المصابين بكابوس مثل هذا ؟ وهل كان بوش واحداً من هؤلاء ؟ من العسير أن نقول ذلك ، فنحن نرى فى صورة له تمثله فى مكتبة أراس ، وقد بدأ فى الشيخوخة ، تام القوة العقلية والحدة البصرية ، كان رجلا حصيفاً ، تجاوز غضبه الهجاء ، واستطاع أن ينظر إلى الحياة بمرح امرئ سرعان ما يخرج من الحلبة . ولم يكن من الممكن أن يصور هذه الأخيلة الحاذقة ، إذا ظلت مستولية عليه . لقد تغلب عليها ، وهو أدنى إلى الغضب منه إلى السرور ، لأن الإنسانية احتضنتها على الدوام . ومما يؤكد أن معاصريه استمتعوا بآثاره ، على أنها مرح تصويرى ، أكثر منها مفازع دينية ، رواج صوره المنقولة بالحفر والمطبوعة ، وجاء « بيتر بروجل » بعد جيل واحد فاستطاع أن يدرب هذه الشياطين ، ويحول أولئك الغيلان إلى حشد مرح سليم ، وبعد ذلك بأربعة قرون عكس الفنانون العصابيون ، أمراض عصرهم العصبية ، بتصوير أخيلة ساخرة تعبق ، معبودهم بوشى .

ويختتم هذا الفصل فى تاريخ التصوير الفلمنكى بظهور شخصية ، أدخل فى المنهج التقليدى . ولقد ولد صاحب هذه الشخصية فى « موبيج » ، ومنها أخذ نسبته « مابوس » ، واسمه « جان جوساير » ولقد رحل إلى أنتورب عام ١٥٠٣ ، ومن المحتمل أن يكون ذلك ، بعد أن ثقف الفن على يد دافيد فى بروجس . ودعى عام ١٥٠٧ إلى بلاط الدوق فيليب البرجندى وهو

أحد ثمرات عشق فيليب الطيب ، وصحب جان الدوق إلى إيطاليا ، وعاد بشيء من الصقل أضيف إلى ريشته ، وشوق إلى تصوير العاريات والأساطير الوثنية ، ونحن نجد فى صورته « آدم وحواء » أنه جعل الجسم العارى جذاباً لأول مرة فى الفن الفلمنكى . وفى صورتيه مريم والطفل والملائكة والقديس لوقا يرسم العذراء ، أصداء لما فى إيطاليا من أطفال سمان ومهاد معمارية تتسم بطابع عصر النهضة ، وقد يرجع الفضل إلى إيطاليا ، فيما نراه فى صورة « العذاب فى الحديقة » من العرض الرائق لضوء القمر . ولكن قوة « جوساير » تركزت فى فن تصوير الأشخاص . ولم يصدر عن مصور فلمنكى ، منذ جان فان إيك ، هـــذه الدراسة للشخصية التى نجدها فى صورة « جان كاروندليه » فى متحف اللوفر ، ففيها يركز الفنان على الوجه واليدين ، ويكشف عن الغنى الموروث ، ويميط اللثام عن الإدارى الذى لا يتزعزع ، المهموم بأعباء السلطة ، وعلى يد ماسيس انتهى الرعيل الأول فى التصوير الفلمنكى وهو الذى بلغ حد الكمال فى الصور التى أبدعتها مدرسة « فان إيك » . وقبس جوساير من إيطاليا ، تلك التجديدات الحرفية ، والأناقة فى الزخرف ، والرشاقة فى الخطوط ، والحذق فى إظهار الحلى والقائم على السواء ، وتصوير الأشخاص ، وهى السمات التى نجدها فى القرن السادس عشر (إذا استثنينا بروجل) تحول التصوير الفلمنكى ، عن براعته وعبقريته فى حدود وطنه وتتركه ثابتاً فى تفوقه ، حتى بلغ أوجه على يد روبنز وفان ديك .

ولم ينجب شارل الجسور ابنا ، ولكن ابنته مارى كانت مخطوبة إلى مكسيمليان صاحب النمسا ، أملا أن يحمى آل هبسبرج برجنديا من فرنسا . ومع ذلك عندما ضم لويس الحادى عشر الدوقية فرت مارى إلى جنت حيث دفعت الثمن لتكون الملكة الدستورية بموافقة فلاندرز وبرابانت وهانو وهولنده ، وهو توقيعها على « قرار امتياز جروت » (فبراير ١٤٨٨) ، الذى ناشدها أن لا تتزوج ، وألا تفرض ضريبة أو تعلن حرباً ، إلا بموافقة

(المقاطعات) أو مجالس الأقاليم الموقعة على القرار . وبهذا المرسوم وغيره من المراسيم الصادرة بعد ذلك ، بما فيها المدونة السعيدة كما أطلقت برابانت على تصريحها الخاص بحريتها المحلية ، بدأت الأراضى المنخفضة قرناً طويلا من الصراع فى سبيل الاستقلال . ولكن زواج مارى من مكسميليان (أغسطس ١٤٧٧) جاء بآل هبسبرج الأقوياء إلى الأراضى الواطئة » حتى إذا توفيت ملرى (١٤٨٢) أصبح مكسميليان نائباً عن الملك . ولما انتخب مكسميليان إمبرطوراً (١٤٩٤) أسلم منصب نائب الملك فى الأراضى المنخفضة إلى ابنه فيليب . ولما مات فيليب (١٥٠٦) عينت أخته ، مارجريت أميرة النمسا ، حاكمة عامة بوساطة الإمبراطور . ولما أعلن أن ابن فيليب ، وهو شارل الخامس المقبل ، قد بلغ سن الملك (١٥٢٥) ببلوغه الخامسة عشرة ، أصبحت الأراضى المنخفضة جزءا من الإمبراطورية الهبسبرجية الشاسعة ، فى ظل واحد من أكثر الحكام دهاء وطموحاً فى التاريخ . ولهذا قصة .

الفصل السابع

أوربا الوسطى

١٣٠٠ — ١٤٦٠

١ — الأرض والعمل

ما دام الإنسان يعيش تحت رحمة الجغرافية الطبيعية ، فقد كتب عليه أن ينقسم بوساطة الجبال والأنهار والبحار ، إلى جماعات تتطور فى شبه عزلة ، مختلف لغاتها وشرائعها ، وملامحها التى تتحكم فيها الظروف المناخية وعاداتها وأزياؤها . ودفع الافتقار إلى الأمن الإنسان إلى الشك فى الغريب ، فأصبح يكره ويختصم الملامح الأجنبية المستهجنة ، وطرائق العيش للجماعات الأخرى غير جماعته . وهذا التنوع الأخاذ فى الأرض — من جبال وأودية وأزقة بحرية ومضايق ، وخلجان وغدران — الذى يجعل أوربا منظراً جامعا لمباهج شتى ، قد مزق ، سكان قارة صغيرة إلى عشرات من الأقوام ، يجترون خلافاتهم ، ويحبسون أنفسهم فى تراث أحقادهم . وهناك فتنة فى هذا الخليط من النشأة المختلفة ويستطيع المرء أن يطلب الغوث لعالم من الناس ، محصور فى أساطير بذاتها وأزياء بأعيانها . ومع ذلك ، فإن فوق هذه الخلافات وتحتها . . الخلافات فى الزى والعادة والعقيدة واللغة ، فقد فرضت الطبيعة والحاجة على الإنسان ، وحدة اقتصادية وارتباطا ، يزداد وضوحهما وسلطانهما كلما حطم الاختراع والمعرفة الحدود . وتستطيع العين المنصفة الشاملة أن ترى ، من النرويج إلى صقلية ومن روسيا إلى أسبانيا ، الناس لا يختلفون كثيراً فى الزى واللغة ، وإنما تراهم مشغولين فى مهن متماثلة ومصبوبين فى قوالب أخلاقية متشابهة : كالفلاحة والتعدين ونسيج الملابس

وبناء المنازل والهياكل والمدارس ، وتربية الناشئين والتجارة بالفائض عن حاجتهم ويشكلون النظام الاجتماعى باعتباره أقوى وسيلة للدفاع والبقاء . وسنتأمل لحظة أوربا الوسطى باعتبارها وحدة على هذا الأساس .

فقد كان الشغل الشاغل للإنسان فى اسكنديناوه ، أن يقهر البرد ، وفى هولنده أن يتغلب على البحر ، وفى ألمانيا الغابات وفى النمسا الجبال ، وتوقف مصير الزراعة وهى أساس الحياة على مدى الانتصارات . وما إن جاء عام ١٣٠٠ حتى كانت دورات المحاصيل قد أصبحت عامة فى أوربا مضاعفة غلة الأرض . ولكن نصف سكان أوربا الوسطى بين عامى ١٣٤٧ ، ١٣٨١ ، قد هلكوا بالطاعون ، فعطل موت الفلس خصوبة الأرض . ولقد فقدت ستراسبورج فى عام واحـــد ١٤,٠٠٠ نسمة وكراكا و ٢٠,٠٠٠ وبرسلو ٣٠,٠٠٠ . ولبثت مناجم « هارز » بلا عمال قرناً من الزمان . وواصل الناس الأعمال القديمة معتمدين على صبر الحيوان الأعجم ، فى حفر الأرض وحرثها . وتوسعت السويد وألمانيا فى استخراج الحديد والنحاس ، كما كان الفحم يستخرج من آخن ودرتمند والزنك من سكسويناه والقصدير من هارز والفضة من السويد والبترول والذهب من كارنثيا وترانسلفانيا

وعمل هذا الفيض من المعادن على تغذية الصناعة النامية التى غدت بذورها تجارة رائجة . وكانت ألمانيا إماماً فى التعديل فأصبحت بطبيعة الحال ، رائدة فى علم المعادن . وظهرت أفران صهر المعادن هناك فى القرن الرابع عشر ، فغير تشغيل المعدن بمساعدة المطرقة المائية والطاحونة الدوارة وغدت نورمبرج ، عاصمة تجار الحديد واشتهرت بموقعها وأجراسها . وجعلت التجارة والصناعة نورمبرج واجزبرج ومنيز وسبير وكلونيا ، مدناً ذوات حكومة مستقلة تقريباً . وبوأت أنهار الرين ومين ولش والدانوب ، مدن ألمانيا الجنوبية ، مكان الصدارة فى المواصلات البرية ، مع إيطاليا والشرق . ونشأت بيوت تجارية ومالية ، لها أسواق وعملاء إلى مدى بعيد ، على طول

هذه الطرق ، وتفوقت فى القرن الخامس عشر على الحلف الهنسياتى اتساعاً وقوة . وكان هذا الحلف لا يزال قوياً فى القرن الرابع عشر . مسيطراً على التجارة فى مجرى الشمال والبلطيق ، ولكن الأقاليم الاسكنديناوية اتحدت عام ١٣٩٧ لتحطم الاحتكار ، وسرعان ما بدأ الإنجليز والهولنديون بعد ذلك ينقلون سلعهم بأنفسهم . بل إن سمك الرنجة قد تآمر على الهانس ، إذ قرر أن يتكاثر فى بحر الشمال ، بدلا من البلطيق ، ففقدت لوبك وهى من عمد الحلف تجارة الرنجة وأفل نجمها ، وغنمت أمســتردام هذه التجارة وازدهرت .

وغليت مراجل حرب الطبقات تحت هذا التطور الاقتصادى — بين الريف والمدينة وبين السلدة للملاك وعبيد الأرض وبين النبلاء ورجال الأعمال وبين الغرف التجارية ونقابات العمال وبين الرأسماليين والصناع وبين الكهنوت والعلمانيين وبين الكنيسة والدولة . وكان رق الأرض فى السويد والنرويج وسويسرا أخذا فى الزوال أو زال بالفعل ، ولكنه اتخذ حياة جديدة فى المناطق الأخرى من أوربا الوسطى ، أما فى الدنمارك وبروسيا وسيليزيا وبوميرنيا وبرندنبرج ، حيث نال الفلاحون حريتهم بتمهيد البرارى للزراعة ، فقد أعيد رق الأرض فى القرن الخامس عشر على يد أرستقراطية عسكرية ، ونحن نستطيع أن ندرك مدى الفظاظة التى اتسم بها هؤلاء الفتيان النبلاء الألمان من مثل سائر ردده فلاحو برندنبرج ، وهو يدعو بطول البقاء لجياد السيد المالك ، حتى لا يحل العبيد محلها فى الركوب . وقنع البارونات والفرسان التيوتون ، فى أراضى البلطيق أول الأمر ، باسترقاق أهل البلاد التى غزوها من الصقالبة ، وحملهم ، نقص الأيدى العاملة بسبب الطاعون والحرب البولندية عام ١٤٠٩ ، على أن يسترقوا جميع « الكسالى الذين يتسكعون فى الطريق أو فى المدن » ، وعقدت المعاهدات مع الحكومات المجاوره بشأن تسليم الهاربين من رقيق الأرض .

وقرب الأباطرة ، الطبقة البرجوازية التجارية ، لتحد من غلواء البارونات ، فحكم هؤلاء التجار البلديات تماماً ، حتى صارت دار البلدية فى كثير من الأحيان ، هى بعينها الغرفة التجارية . وضعف سلطان النقابات المهنية وأخضعت للقواعد التى تضعها المجالس البلدية تحديداً للأجور ، ومنعت من العمل المشترك ، وتحول العمال الحاذقون للمهن ، المعتزون بخبرتهم ، هنا ، كما حدث فى إنجلترا وفرنسا إلى عمال يدويين بلا حول ولا قوة . وحلول العمال الثورة حيناً بعد حين . وفى عام ١٣٤٨ استولى عمال مدينة نورمبرج على المجلس البلدى وحكموا المدينة مدة عام ، ولكن جنود الإمبراطور أعادوا التجار الأشراف إلى السلطة . وصدر فى بروسيا عام ١٣٥٨ مرسوم يقضى بصلم أذن ، كل عامل يضرب عن العمل . واندلعت ثورات الفلاحين فى الدنمرك (١٣٤٠ ، ١٤٤١) ، وسكسونيا وسيلزيا وبرندنبرج وأراضى الرين (١٤٣٢) والنرويج والسويد (١٤٢٤) ، ولكن هذه الثورات كانت منحلة العرى فى التنظيم فلم ينتج عنها غير أعمال عنف عارضة . وانتشرت الأفكار الثورية فى المدن والقرى . ولقد كتب عام ١٤٧٨ متطرف مجهول ، رسالة يعرض فيها « إصلاحاً يقوم به القيصر سيجيسموند » وهو شخصية خيالية ، وذاك على أسس اشتراكية . وهكذا مهد المسرح ببطء لحرب الفلاحين عام ١٥٢٥ .

٢ — إقرار النظام

النظام أبو الحضارة والحرية ، والفوضى هى القابلة التى تولد الدكتاتورية ، ومن ثم فإن التاريخ يمتدح حينا بعد حين الملوك . وكانت وظيفتهم فى القرون الوسطى أن يحرروا الفرد من السيطرة المحلية وأن يركزوا فى يد واحدة ، سلطة التشريع والقضاء والعقاب وإصدار السكة وإعلان الحرب . وتباكى البارون الإقطاعى على فقدان الاستقلال المحلى . بيد أن المواطن

البسيط رأى الخير فى أن يكون هناك سيد واحد وعملة واحدة وقانون واحد ، وقلما أمل الناس فى تلك الأيام التى فشت فيها الأمية ، أن الملوك أنفسهم قد يختفون من الوجود ، ولا يخلفون وراءهم سلطاناً غير القوانين والأخطاء التى اقترفها الناس بحرية .

ولقد حكم اسكنديناوه بعض الملوك الأفذاذ فى القرن الرابع عشر فوحد ماجنوس الثانى ملك السويد ، قوانين مملكته المتعارضة فى مجموعة قوانين منسجمة قومية (١٣٤٧) . ونظم أريك الرابع فى الدنمرك البارونات ودعم السلطة المركزية ، وأضعفها كريستوفر الثانى وأعادها ولدمار الرابع ، وجعل بلاده ، إحدى الدول الرئيسية فى السياسة الأوربية . ولكن أعظم شخصية فى الدول الحاكمة الاسكنديناوية فى ذلك العصر ، هى شخصية ، مارجريت ابنة فالديمار ، ولقد زوجت وهى فى العاشرة (١٣٦٣) من هاكون السادس ملك النرويج ، وهو ابن ماجنوس الثانى ملك السويد ، وبدا أنه قد كتب عليها ، بفضل الزواج والدم ، أن توحد العرشين اللذين تربط بينهما القرابة ، ولما قضى أبوها (١٣٧٥) أسرعت إلى كوبنهاجن ومعها ابنها أولاف وعمره خمس سنوات ، وأقنعت الناخبين فى البارونات ورجال الدين أن يقبلوا ابنها ملكاً على أن تكون هى نائبة الملك . وبموت زوجها (١٣٨٠) ورث أولاف تاج النرويج ، ولما كان لا يزال فى العاشرة من عمره فقد أصبحت مرجريت هناك أيضاً نائبة ملك ، وكانت إذ ذاك فى السابعة والعشرين من عمرها . وأذهلت حكمتها وحياتها وشجاعتها معاصريها ، الذين ألفوا عدم الكفاءة . أو العنف فى الحكام من الرجال ، وأيد السادة الإقطاعيون فى الدنمرك والنرويج مفاخرين ، هذه الملكة الرشيدة الخيرة ، وهم الذين تسلطوا على ملوك كثيرين قبل ذلك . حتى إذا بلغ أولاف سن الرشد (١٣٨٥) غنمت له دبلوماسيتها ، حق الجلوس على عرش السويد . ولكنه مات بعد ذلك بسنتين ، فظهر أن خططها التى وضعتها فى فراسة وبعد نظر ، لتوحيد

اسكنديناوه قد حبطت بموته : ولكن المجلس الملكى فى الدنمارك ، لم يجد وريثاً ذكراً يضارع « مارجريت » فى القدرة على إقرار الأمن والسلام . فتجاوز القوانين الاسكنديناوية ، التى تعارض حكم المرأة ، وانتخبها نائبة ملك (١٣٨٧) . وتقدمت إلى أسلو ، فاختيرت نائبة ملك النرويج مدى الحياة (١٣٨٨) ، وبعـد ذلك بعام ، أقصى النبلاء السويديون ملكاً لم يرضوا عنه ، ونصبوها ملكة عليهم . وأقنعت العروش الثلاثة كلها بأن تبايع أريك أكبر أبناء أخيها ، ولياً لعهودها . واستدعت عام ١٣٩٧ مجالس الدول الثلاث إلى كالمر فى السويد ، وهناك أعلن أن السويد والنرويج والدنمرك قد اتحدت إلى الأبد ، تحت سلطة حاكم واحد ، على أن تحتفظ كل واحدة منها بعاداتها وقوانينها . وتوج أريك ملكاً ، بيد أنه كان لا يزال فى الخامسة عشرة ، فاستمرت مارجريت نائبة ملك إلى أن ماتت (١٤١٢) . ولم يحظ حاكم أوربى آخر فى ذلك العصر بمملكة متسعة كهذه ، أو بحكم موفق كحكمها .

ولم يرث ابن أخيها حكمتها ، فجعل أريك الاتحاد ، يصبح فى الحقيقة إمبراطورية دنمركية ، بمجلس فى كوبنهـاجن يحكم الدول الثلاث . واضمحلت النرويج فى هذه الإمبراطورية ، وفقدت زعامتها الأدبية التى احتفظت بها من القرن العاشر إلى القرن الثالث عشر . وفى عام ١٤٣٤ تزعم انجلبركت انجلبركسن ثورة السويد على سيادة الدنمرك ، وجمع فى أربوجا (١٤٣٥) مجلسا قوميا من النبـلاء والأساقفة وملاك الأراضى وممثلى المقاطعات ، وأصبح هذا المجلس المتوسع فى تكوينه ، وقد استمر خمسمائة سنة ، ريخستاج السويد الحالى . وانتخب انجليبروكس وكارك كنتسن نائبى ملك . واغتيل بطل الثورة بعد ذلك بعام ، وحكم كنتسن السويد نائب ملك ، ثم ملكا ، إلى أن مات (١٤٧٠) .

وبدأ فى الوقت نفسه كريستيان الأول (١٤٤٨ — ١٤٨١) أسرة

ألدنبرج الحاكمة ، التى حكمت الدنمرك إلى عام ١٨٦٣ والنرويج إلى عام ١٨١٤ . ودخلت أيسلنده فى حكم الدنمرك إبان نيابة مرجريت عن الملك (١٣٨١) . وقد ولى مجد تاريخ الجزيرة وأدبها ، ولكنها استمرت تقدم إلى أوربا التى تمزقها الفوضى ، درسا لم يلتفت إليه عن كفاءة الحكومة ونظامها .

وكانت أقوى ديمقراطية فى العالم وقتذاك مستقرة فى سويسرا . ونجد أن البطولة فى تاريخ هذه البلاد المنيعة كانت مجسمة فى الولايات ، وفى عام ١٢٩١ بدأت الولايات التى تكتنفها الغابات ، ويتحدث أهلوها الألمانية وهى أورى وشوتز وانترفالدن ، تؤلف اتحاداً من أجل الدفاع المشترك . وأحرز الفلاحون السويسريون انتصاراً تاريخياً على جيش آل هبسبرج فى مورجارتن (١٣١٥) ، فاحتفظ الاتحاد باستقلال حقيقى بينما اعترف بالسيادة الإسمية للإمبراطورية الرومانية المقدسة . وأضيفت إلى الاتحاد ولايات جديدة : لوسون (١٣٣٢) وزيورخ (١٣٥١) وجلاروس وزج (١٣٥٢) وبرن (١٣٥٣) ، وأصبح اسم ولاية شوتز يطلق على الجميع عام ١٣٥٢ . وشجعت الحدود الجغرافية على الاستقلال الذاتى وقبل الاتحاد اللغات الفرنسية أو الألمانية أو الإيطالية وطرائق كل منها تبعا لانحدار أوديتها ومجارى أنهارها ، فاحتفظت كل ولاية بإصدار قوانينها بوساطة مجالس ينتخبها المواطنون . وتراوح تمثيل الحرية بين ولاية وأخرى ومن عصر إلى عصر ، ولكن جميع الولايات خضعت لسياسة خارجية موحدة وحل منازعاتها بوساطة مجلس اتحادى . ومع أن الولايات يحارب بعضها بعضا ، فإن دستور الاتحاد أصبح وظل مثالا موحيا بالاتحاد — اتحاد أقاليم تستمتع بالحكم الذاتى تحت أجهزة وقوانين اختبرت بحرية .

وتطلب دفاع الاتحاد عن حريته تدريبا عسكريا لجميع الذكور وخدمة عسكرية عند الطلب ، يتقدم بها جميع الرجال بين العاشرة والستين وأصبح

المشاة السويسريون ، المسلحون بالحراب والمدربون على النظام الدقيق ، أكبر جيش مخوف باهظ التكاليف فى أوربا . ورأت الولايات أن تقتصد فى دخلها ، فأجرت فرق جيشها للدول الأجنبية ، وجعلت « البسالة السويسرية حينا من الزمن سلعة تجارية . ولبث الأمراء النمسويون ، يدعون لأنفسهم حقوقا إقطاعية فى سويسرا ، وحاولوا الحصول عليها أحيانا ، فقضى على هذا الادعاء فى سمباتش (١٣٨٦) وتافلس (١٣٨٨) ، بمعارك تستحق الذكر فى تاريخ الديمقراطية . وأكدت معاهدة كنستانس عام ١٤٤٦ مرة أخرى ، حرية سويسرا الفعلية وولاءها الأسمى للإمبراطورية الفعلية .

٣ – ألمانيا تتحدى الكنيسة

كانت ألمانيا أيضا اتحاداً ، ولكن الأجزاء التى تألفت منها ، لم تكن تحكم بوساطة مجالس ديمقراطية ، وإنما بوساطة أمراء مدنيين أو دينيين ، يعترفون بولاء محدود ، فقط لرأس الإمبراطورية الرومانية المقدسة . وحكم بعض هذه الولايات مثـــل بفاريا ووتنبرج وثورنجيا وهى وناسو وميس وسكومونيا وبرندنبرج وكارنثيا والنمسا والبلتنيان — دوقات أو كونتات ، أومرغريفات(*) أو غيرهم من السادة المدنيين ، بينما خضعت ولايات أخرى — مثل مجديبرج وميتز وهال وبامبرج وكلونيا وبريمن وستراسبورج وسالزبورج وتريبه وبازل وهلديشين — من الناحية السياسية بدرجات متفاوتة ، لأساقفة أو رؤساء أساقفة ، وما وافت سنة ١٤٦٠ ، حتى كانت حوالى مائة مدينة قد حصلت على مواثيق تحررها بالفعل من حكامها المدنيين أو الدينيين . ويوجد فى كل إمارة مندوبون عن الطوائف الثلاث — النبلاء ورجال الدين والعامة — يجتمعون بين حين وآخر فى مجلس إقليمى ، يحدد عن طريق المال سلطة الأمير . وأرسلت الإمارات والمدن الحرة ممثلين لها إلى الريخستاج أو المجلس الإمبراطورى . وكان يدعى مجلس خاص هو كرفير ستنتاج

(*) المرغريفات : لقب ألمانى .

أو مجلس المنتخبين ، لاختيار الملك ، وجرى العرف أن يتألف من ملك بوهيميا ودوق ساكسونين ومارجريف Margrave براندنبرج وكونت بلاتين ورؤساء أساقفة منيز وترير وكلونيا . وكان اختيارهم يسفر عن تنصيب ملك ، ويصبح رأس الإمبراطورية الرومانية المقدسة ، عندما يتوجه البابا ، ومن ثم فلقبه قبل التتويج هو « ملك الرومان » والأصل أن يتخذ عاصمة فى نورمبرج ، وكثيراً ما يتخذها فى مكان آخر ، حتى فى براغ . وارتكز سلطانه على العرف والسمعة ، أكثر من اعتماده ، على الممتلكات أو القوة ، وليست له من الأرض سوى أملاكه الخاصة باعتباره أميراً إقطاعياً مثل كثيرين غيره ، وكان يعول على ريخستاج أو الكوفيرستنتاج للحصول على الأموال لإدارة حكومته أو شن الحرب ، ولقد فرض هذا التعويل على رجال قادرين من أمثال شارل الرابع أو سيجسمند ، سقوطاً مهيناً فى الشئون الخارجية . وقضى الباباوات الأقوياء فى القرن الثالث عشر على أسرة هوهنستوفن ، فأنهك ذلك الإمبراطورية الرومانية المقدسة التى أنشأها (٨٠٠) البابا ليو الثالث وشارلمان . أما فى عام ١٤٠٠ فقد كانت ارتباطاً واهياً من ألمانيا والنمسا وبوهيميا وهولنده وسويسرا .

وبعث الصراع بين الإمبراطورية والبابوية ، عندما أختار يوم واحد من عام ١٣١٤ ، فريقان متنازعان من المنتخبين لويس أمير بافاريا وفردريك صاحب النمسا ، ملكين متنافسين واعترف البابا يوحنا الثانى والعشرون ، من مقره البابوى فى الأفنيون بالاثنين كملكين ، ولم يجعل أحدهما إمبراطوراً ، واحتج بأنه ما دام البابا ، لا يملك إلا أن يتوج الملك إمبراطوراً ، فيجب أن يسمح له ، أن يحكم على صحة الانتخاب ، وقال الحبر الطموح أكثر من ذلك ، بأن إدارة شئون الإمبراطورية يجب أن تسند إلى البابوية بين وفاة إمبراطور وتتويج آخر . وآثر لويس وفردريك الاحتكام إلى الحرب . وانتصر لويس على غريمه وأسره فى موهلدورف (١٣٢٢) ومن ثم ادعى

لنفسه السلطة الإمبراطورية الكاملة . فأمره يوحنا أن يجرد نفسه من جميع الألقاب والسلطات ، وأن يمثل أمام المحكمة البابوية ليتلقى الحكم بعصيان الكنيسة . فأبى لويس وأصدر البابا قراراً بحرمانه (١٣٢٤) وطلب إلى جميع المسيحيين فى الإمبراطورية أن يخرجوا عن طاعته ، وحكم بحرمان كل إقليم يعترف به ملكا عليه . فتجاهلت معظم ألمانيا هذه المراسيم ، لأن الألمان كانوا كالإنجليز ، يعدون باباوات أفينيون ، خدامها وحلفاء لفرنسا . ولقد بدأ الناس يرون أنفسهم ، إبان ضعف العقيدة والبابوية المضطرد ، وطنيين أولا ومسيحيين بعد ذلك . واضمحلت الكاثوليكية ، التى تتجاوز لقومية ، ونشأت القومية وهى بروتستانتيلية .

وحصل لويس فى هذا المأزق على المعونة والتأييد من حلفاء متباينين . ووسمت نشرة البابا يوحنا «Pope John's bull Cam inter nonnulla» (١٣٢٣) بالهرطقة ، القول بأن المسيح والرسل أبوا تملك العقار ، وأنه وجه محكمة التفتيش ، لتستدعى أمام جلساتها « الفرنسسكان الروحانيين » الذين أكدوا هذا الرأى . ورد كثير من الإخوان الرهبان ، الاتهام بالهرطقة على البابا ، وعبروا عن فزعهم المقدس من ثروة الكنيسة ، ووصف بعضهم الحبر العجوز بأنه خارج على المسيحية ، وقاد ميــكل سيزينا ، رئيس الروحانيين ، أقلية كبيرة منهم ، إلى التحالف الصريح مع لويس ملك بافاريا (١٣٢٤) فتشجع لويس بتأييدهم ، وأصدر فى مدينة ساشزينها وزن منشوراً ضد « يوحنا الثانى والعشرين » ، الذى يدعى أنه بابا ، واتهمه بأنه سفاح نصير للظلم ، صمم على أن يقوض أركان الإمبراطورية ، وطالب بأن يعقد مجلس عام ، يحاكم البابا بتهمة الهرطقة .

ومما شجع الملك أكثر من ذلك ، ظهور أستاذين من جامعة باريس ، فى بلاطه بنورمبرج وهما مرسينيوز من بادوا وجون من جانداان — وليس من شك فى أن كتابهما « دفاع عن السلام » قد هاجم بابوية أفنيون ، فى عبارات

أدخلت السرور على الملك : « ما الذى تجده هناك غير حشد من تجار الرتب الدينية من كل صقع ؟ وماذا غير صخب المتلاعبين بالقضايا ، . . . وامتهان الرجال الشرفاء ؟ أما إنصافهم الأبرياء فيسقط فى الحضيض ، إلا إذا اشترى بالمال ، وردد المؤلفان أقوال الوعاظ الألبجنيين والولدنيزيين فى القرن الثالث عشر ، وسبقا لوثر بمائتى سنة ، وكانت حجتهما أن تعتمد المسيحية ، كلية على الكتاب المقدس . ويجب أن يدعى مجلس عام للكنيسة لا بوساطة البابا ولكن بوساطة الإمبراطور ، وينبغى أن يحصل على موافقة الأخير فى انتخاب أى حبر ، والبابا مثله فى ذلك مثل أى شخص آخر ، عليـــه أن يخضع للإمبراطور .

وابتهج لويس بذلك ، وصمم ليذهبن إلى إيطاليا ، وليتوجن إمبراطوراً ، بوساطة أهل روما . وخرج فى أوائل عام ١٣٢٧ على رأس جيش صغير ، وبعض الفرنسيسكان والفيلسوفين ، اللذين استخدمهما فى تأليف تصريحاته العامة . وأصدر البابا فى أبريل نشرات جديدة ، تقضى بالحرمان على جون ومارسيليوز ، وأمر لويس أن يترك إيطاليا . ولكن الفيكونت الحاكم رحب به فى ميلان ، وتسلم التاج الحديدى ، باعتباره الملك الاسمى للمبارديا . وفى السابع من يناير عام ١٣٢٨ ، دخل روما ، وسط تهليل ، جمهور ينكر إقامة البابا فى أفنيون . واستقر فى قصر الفاتيكان ، واستدعى مجلساً شعبياً للاجتماع فى الكابيتول . وظهر أمام الجمع الحاشد مرشحاً لتقلد التاج الإمبراطورى وأبدى الجمع موافقته الصاخبة ، وفى السابع عشر من يناير وضع على رأسه التاج المنشود ، وكان الذى وضعه هو المأمور سكيارا كولونا — عدو البابوية العنيد ، الذى حارب قبل ذلك بربع قرن تقريباً بونيفاس الثامن وتوعده بالموت ، والذى رمز ثانية فى لحظة ، إلى تحدى الدولة الناشئة ، للكنيسة الآخذة فى الضعف .

ولم يدر فى خلد البابا يوحنا قط ، وقد بلغ الثامنة والسبعين — أن يهزم -

فأعلن حرباً صليبية ليجرد لويس من كل سلطة ، وأمر الرومان ، أن يطردوه من مدينتهم ؛ حتى لا يقعوا تحت طائلة قرار الحرمان ، وأن يعودوا إلى طاعة البابوية . فأجاب لويس بعبارات تذكر بسلفه هنرى الرابع المحروم من غفران الكنيسة ، فعقد اجتماعاً شعبياً آخر ، وأصدر أمام الجمع مرسوماً إمبراطورياً ، يتهم البابا بالهرطقة والطغيان ، ويجرده من منصبه الكهنوتى ، وحكم عليه بعقوبة ، تقررها السلطات الزمنية . وتألفت لجنة ، من رجال الدين ومن العلمانيين ، بتوجيه لويس ، فعينت بيتر الكورفارى منافساً على كرسى البابوية . وعكس [لويس] تقاليد ليو الثالث وشارلمان ، فوضع التاج البابوى المثلث على رأس بيتر ، ونادى به بابا نيقولاس الخامس (١٢ مايو ١٣٢٨) . ودهش العالم المسيحى ، وانقسم إلى معسكرين ؛ على نفس الأسس تقريباً التى قسمت أوربا بعد الإصلاح الدينى .

وقلبت الأحداث المحلية الصغيرة الموقف رأساً على عقب . فقد عين لويس مارسيوز من بادوا مديراً روحانياً للعاصمة ، فأمر هذا الرجل ، القساوسة القليلين الذين بقوا فى روما ، أن يحتفلوا بالقداس كالمعتاد ، على الرغم من قرار الحرمان ، ثم عذب بعض الذين رفضوا ، وعرّض راهباً أوغسطينيا لجب الأسود على الكابيتول ؛ فأحس كثير من الرومان بأن هذه الأعمال تحمل الفلسفة فوق طاقتها . ولم يتعلم الإيطاليون قط ، حب التيوتون ، فلما اغتصب بعض الجنود الألمان ، الطعام من الأسواق ، دون أن يدفعوا له ثمناً ، شبت الفتن . واحتاج لويس إلى المال لينفق على جنده وحاشيته ، ففرض جزية مقدارها عشرة آلاف فلورن على المدنيين ، ومبالغ مماثلة على رجال الدين واليهود . وبلغت المعارضة حداً من الخطورة جعل لويس يرى أن الوقت قد حان ، ليعود إلى ألمانيا . فبدأ فى الرابع من أغسطس عام ١٣٢٨ ، انسحابه عبر إيطاليا . وفى اليوم التالى احتلت الكتائب البابوية روما ، وخربت قصور الذين أيدوا لويس من الرومان ، وصودرت

أملاكهم لحساب الكنيسة . ولم يبد الناس مقاومة ، بل عادوا إلى عباداتهم وجرائمهم .

واطمأنت نفس لويس فى بيزا بلقاء نصير جديد ، هو أشهر فيلسوف فى القرن الرابع عشر . فقد فر وليام الأوكهامى من سجن بابوى فى أفنيون ، وعرض على الإمبراطور خدماته قائلا (عن رواية غير محققة) « دافع عنى بسيفك وسأدافع عنك بقلمى » . فأصدر كتابات قوية ، ولكنه لم يستطع أن ينقذ الموقف . فقد أقصى لويس ، جميع العناصر الحاكمة فى إيطاليا ، وكان أنصاره من الجيبلين ، يأملون أن يحكموا شبه الجزيرة لمصلحتهم باسمه ، فأحزنهم أن يجدوه يزعم لنفسه السلطات والمصالح جميعها ، يضاف إلى ذلك أنه جعلهم يفرضون ضرائب باهظة لخزانته . وكانت قواته ضئيلة لا تناسب مزاعمه ، فانصرف عنه كثير من الجيبلين حتى للفيكونت ، وعقدوا مع البابا صلحاً بالشروط التى قدروا عليها . وترك منافس البابا ، لموارده فاستسلم لضباط البابا الذين قبضوا عليه ، وسيق أمام يوحنا الثانى والعشرين ، وحبل المشنقة حول عنقه ، فألقى بنفسه على قدمى البابا مستغفراً (١٣٢٨) . فعفى عنه يوحنا ، وعانقه كضال يعود إلى الكنيسة ، وحبسه مدى الحياة .

وعاد لويس إلى ألمانيا ، وأرسل الوفود مراراً إلى أفنيون ، تعلن سحبه لقراراته السابقة واعتذاراته ، من أجل عفو البابا واعترافه . فرفض يوحنا ، واستمر فى الحرب إلى أن مات (١٣٣٤) . واستعاد لويس بعض نفوذه ، عند ما بدأت إنجلترا حرب المائة عام ، ورغبت فى محالفته ، واعترف إدوارد الثالث بلويس إمبراطوراً ، وحيا لويس بدوره ، إدوارد ، باعتباره ملكاً لفرنسا . فاغتنم مجلس من الأمراء والمطارنة الألمان (فى ١٦ يوليوسنة ١٣٣٨) فرصة محالفته دولتين كبيرتين ضد البابوية ، وقرر ، أن اختيار ملك ألمانى بوساطة الناخبين الألمان ، لا تبطله سلطة أخرى ، وأعلن مجمع فى فرنكفورت الموافقة على الميْن (٣ أغسطس ١٣٣٨) أن قرارات البابا ضد لويس

ملغاة وباطلة . وحكم بأن لقب الإمبراطور وسلطته ، متحفاً من الناخبين الإمبراطوريين ، ولا يحتاجان إلى إقرار من البابا . وتجاهلت ألمانيا وإنجلترا احتجاجات البابا بندكت الثـانى عشر ، وبذلك سارا خطوة نحو الإصلاح الدينى .

وثمل لويس بالنجاح ، فقرر أن يطبق إلى أقصى حد نظريات مارسليوز ، وأن يمارس السلطة الدينية والدنيوية معاً ، فصرف من عينهم البابا عن صدقات الكنيسة ، وعين رجاله فى مكانهم ، ووضع يده على الأموال التى جمعها جباة البابا من أجل حرب صليبية ، ونسخ زواج مارجريت أميرة كارينثيا — وهى وارثة معظم التيرول — وزفها إلى ابنه ، على الرغم مما بينه وبينها من قرابة تجعل الزواج منها من ناحية الشريعة الكنسية باطلا . فأقسم الزوج المرفوض وهو أخوه الأكبر شارل كما أقسم أبوهما چون ملك بوهيميا أن ينتقما منه ، ورأى كليمنت السادس ، الذى أصبح بابا عام ١٣٤٢ ، فى هذا فرصة ، ليخلص من العدو العنيد للسدة البابوية . واستطاعت الدبلوماسية البارعة أن تكتسب ناخباً بعد آخر ، إلى الرأى الذى يقول ، إن السلام والأمن ، لا يعودان إلى الإمبراطورية ، إلا بخلع لويس وتنصيب شارل ملك بوهيميا إمبراطوراً ، وتعهد شارل بطاعة أوامر البابا ، فى مقابل تأييده . وفى يوليو عام ١٣٤٦ اجتمع مجلس ناخبين فى رنز ، وقرر بالإجماع ، أن يكون شارل ملكاً على ألمانيا . وأخفق لويس فى أن يجد ، أذناً صاغية فى أفنيون لإلحاحه بالخضوع للبابا ، فأعد العدة للحرب حتى الموت دون عرشه ، وكان أثناء ذلك مشغوفاً بالصيد وقد بلغ الستين من عمره ، وسقط عن جواده وقتل (١٣٤٧) »

وأحسن شارل الخامس الحكم ، ملكاً وإمبراطوراً . وكرهه الألمان لأنه جعل براغ عاصمة الإمبراطورية ، ولكنه أصلح الإدارة فى ألمانيا ، كما فعل فى موطنه ، وأمن التجارة والمواصلات ، وأنقص الضرائب ، واحتفظ بعملة

مستقرة ، وأمد الإمبراطورية كلها بجيل من الناس ينعم بسلام نسبي . وفى عام ١٣٥٦ ، نال شهرة فيها قدر من المغالطة فى التاريخ ، بإصدار سلسلة من القوانين عرفت « بالنشرة البابوية الذهبية » — وإن كانت قليلا من كثير من الوثائق تحمل الخاتم الإمبر اطورى الذهبي . لعله اقتنع بأن غيابه الطويل عن ألمانيا يتطلب مثل هذا الإجراء ، فقد منح الناخبين السبعة سلطات تكاد تمحو سلطة الإمبراطور . وكان على الناخبين أن يجتمعوا سنوياً ليصدروا التشريعات الخاصة بالمملكة ، والملك أو الإمبراطور ، مجرد رئيس لهم ويدهم المنفذة . وكانوا فى ولاياتهم يملكون السلطة القضائية الكاملة ، وملكية المناجم والمعادن الكامنة فى الأرض ، والحق فى ضرب السكة الخاصة بهم ، وزيادة الدخل إلى جانب الحق المقيد فى إعلان الحرب وإبرام معاهدات السلام . وكانت هذه النشرة بمثابة إقرار ثانوى للحقائق الواقعة ، فحاول شارل أن ينشئ بوساطتهم اتحاداً تعاونياً من الإمارات . ومع ذلك فقد شغل الناخبون بشئونهم الإقليمية ، وأهملوا مسئولياتهم باعتبارهم يؤلفون مجلساً إمبراطورياً ، حتى أن ألمانيا ظلت إمبراطورية بالإسم فقط . وقد هيأ الاستقلال المحلى للناخبين على هذا النحو لناخب سكسونيا أن يحمى لوثر ، وما أعقب ذلك من انتشار المذهب البروتستانتى .

وحافظ شارل فى شيخوخته على ولاية العهد الإمبراطورى لابنه بوساطة الرشوة بالجملة (١٣٧٨) وتحلى ونسسلوس الرابع ببعض الفضائل ، ولكنه كان يدمن الشراب ويحب موطنه الأصلى ، فكره الناخبون منه ذلك وخلعوه (١٤٠٤) . مؤثرين عليه روبرت الثالث الذى يخلف أثراً يذكر فى التاريخ . واختير سيجموند أمير لكسمبورج ملكا على المجر (١٣٨٧) وهو فى التاسعة عشرة من عمره ، وانتخب عام ١٤١١ ملكا على الرومان وسرعان ما حصل على لقب الإمبراطور . وكان رجلا ذا ملكات منوعة ، جذابا ،

جميلا مغروراً وكريماً محبوباً وقاسياً فى بعض الأحيان وثقف لغات متعددة وكلف بالأدب لا يفضل عليه سوى النساء والسلطان . وربما مهدت نياته الطيبة له موضعاً صغيراً فى جهنم ، ولكن شجاعته كانت تخونه فى الأزمات . ولقد حاول مخلصا أن يصلح مساوئ الحكومة الألمانية ويقضى على أسباب ضعفها ، وأصدر بعض القوانين الصالحة ، ونفذ القليل منها ، بيد أن الناخبين أحبطوا مساعيه ، باستقلالهم الذاتى ومحافظتهم على ما ألفوه وعدم رغبتهم فى الإسهام بنصيبهم فى نفقات صد هجمات الترك المتقدمين . وأوقف فى أعماله الأخيرة ماله ونشاطه على محاربة الهوسيين فى بوهيميا . ولما توفى (١٤٣٧) بكت أوربا فيه ، رجلا كان يمثل التقدم الأوربى فترة من الزمن وإن أخفق فى كل شىء إلا الكرامة .

ولقد أوصى شارل الناخبين فى بوهيميا والمجر وألمانيا أن يختاروا زوج ابنته ، ألبرت أمير هبسبورج . ونعم ألبرت الثانى بالتيجان الثلاثة ، ولكنه مات بالدوسنطاريا قبل أن تتفتح قدراته ، فى حملة ضد الأتراك (١٤٤٠) . ولم يخلف ابناً ، ولكن الناخبين ، اختاروا للتاجين الملكى والإمبراطورى ، شخصاً آخر من آل هبسبورج هو فريدريك أمير ستيريا ، ومنذ ذاك وقع اختيارهم مراراً على أمير من آل هبسبورج ، حتى أصبح السلطان الإمبراطورى فى واقع أمره ، ملكاً وراثياً ، فى هذه الأسرة الموهوبة الطموح . وجعل فريدريك الثالث ، النمسا ، دوقية كبرى ، واتخذ آل هبسبورج فينا عاصمة لهم ، وأصبح المفروض أن يكون ولى العهد ، هو الدوق الأكبر للنمسا ، ودخلت الصفة الوراثية فى الأخلاق النمساوية والفيناوية كمقوم نسائى رشيق يمتزج بخشونة الشمال المذكرة فى النفس التيوتونية .

٤ — المتصوفة

لقد غرس القرنان الرابع عشر والخامس عشر بذور الإصلاح الديني : وكابد لويس ملك بافاريا وويكليف فى انجلترا وهس فى بوهيميا ، التجربة قبل لوثر وهنرى الثامن وكالفن ونوكس وأصبحت ثورة رجال الدين المتزايدة فى اسكندناوة والمعفاة من الضرائب عبئاً ثقيلا على الشعب والحكومة وزعم النقاد أن الكنيسة كانت تملك نصف أراضى الدنمرك ، ولها الحق الإقطاعى على كوبنهاجن نفسها . ونظر النبلاء بحسد مشئوم ، إلى أملاك لا يحميها إلا العقيدة بل إن المسيحيين المحافظين كانوا ضد الكهنوت . أما فى سويسرا فقد كان الاستقلال الأشم للولايات تمهيداً لظهور زونجلى وكالفن . وفى عام ١٤٣٣ طردت مجديبرج ، كبير أساقفتها وكهانها ، وانتقضت بمبرج على حكم الأساقفة ، وحاصرت باسو أسقفها فى قلعته . وفى عام ١٤٤٩ ، وجه أستاذ فى جامعة أرفورت (حيث قدر للوثر أن يدرس) إلى البابا نيقولاس الخامس ، دفاعاً عن مجالس العامة باعتبارها أعلى سلطة من البابوات . وانتشرت أصداء من ثورة الهوسيين فى بوهيميا المجاورة ، إلى ألمانيا بأسرها ، وحافظت الجماعات الولدنيزية ، هنا وهناك ، سراً على الهرطقة القديمة والأطماع الشبيهة بالشيوعية . واتجه الورع نفسه إلى تصوف يقترب من الهرطقة .

وأجمع التصوف عند جوهانس إيكهارت ، مذهبا من مذاهب وحدة الوجود ، لا يعبأ بالكنيسة ، ويكاد يتجاهل القانون الديني المحدود . وكان هذا الراهب الدومينيكى على حظ من العلم جعل لقب « أستاذ » جزءا من اسمه . وصيغت كتاباته الفلسفية بلغة لاتينية متحذلقة ، ولو أنها كانت كل آثاره ، لما بلغ حظا من الشهرة أو الخطر . ولكنه كان يدعو بلغة ألمانيـــة منظومة فى ديره فى كولونيا ، إلى مذهبه الجرىء فى وحدة الوجود مما

عرضته لمحكمة التفتيش . واتبع ديونيس الأريوفاغيط(*) وجوهانز سكوتس ارجينا ، فجهد للتعبير عن حسه الغلاب بباله موجود فى كل مكان . وهذا الإله غير المحدود ، لم يتصوّره إيكهارت ، شخصا أو روحا ، ولكنه وحدة مطلقة خالصة . . . هوة بلا كيفية وبلا شكل ، للإله الصامت الواسع . . . حيث لا يرى قط خلاف ، لا أب ولا ابن ولا روح قدس ، حيث لا يوجد واحد فى داره ، ولكن حيث تكون جذوة النفس فى سلام أكثر مما تكون مع نفسها . ولا يوجد بصفة أساسية سوى هذا الإله الذى لا شكل له . . . " الله كل شىء ، وكل شىء هو الله . إن الأب ينجبنى بلا توقف ، فأكون ابنه . وأنا أقول أكثر من ذلك : إنه يُنْجِبُ فى ذاته ، وفى ذاته ينجبنى . والعين التى أرى بها الله هى العين ذاتها التى يرانى الله بها . . . وعينى وعين الله عين واحدة " .

وفى كل فرد قطعة من الله ، وعن طريقها تستطيع الاتصال به مباشرة وتستطيع أن تكون ذاته . لا عن طريق شعيرة الكنيسة ، ولا حتى عن طريق الكتاب المقدس ، ولكن عن طريق هذا الوعى الكونى وحده تستطيع النفس أن تقترب وأن ترى الله . وكلما تجرد الفرد من أغراضه الذاتية والدنيوية ، كلما أصبحت هذه الجذوة الإلهية أكثر شفافية وأحد بصرا حتى يكون الله والنفس واحد آخر الأمر ، و" نتحول كلية إلى الله " . فليست الجنة والأعراف والجحيم أماكن ، ولكنها أحوال النفس .. فالافتراق عن الله هو الجحيم ، والاتحاد معه هو الفردوس . واشتم كبير أساقفة كلونيا من هذه الأقوال رائحة الهرطقة ، فدعا إيكهارت للمحاكمة (١٣٢٦ فأكد الرجل صحة محافظته على العقيدة واقترح أن يحكم على أقواله باعتبارها مبالغات أدبية ، ومع ذلك فقد أدانه الأسقف . فاستأنف الراهب الحكم إلى

(*) قاضى بمحكمة يونانية عليا قديماً .

البـــابا يوحنا الثانى والعشرين ثم تخلص من المحرقة بالموت فى الوقت المناسب (١٣٢٧) .

وانتشر تأثيره على يد تلميذين دومينكيين عرفا كيف يحتفظان بمذهبه فى وحدة الوجود فى نطاق أمين . فقد عذب هانيريخ سوسو نفسه ، سته عشرة سنة ، فى زهادة صارمة ، وحفر اسم المسيح فى لحمه على قلبه ؛ وزعم أنه تلقى فى فمه دما من جراح المسيح ، « وألف » كتيبه فى الحكمة الخالدة » باللغة الألمانية . لأن الله كما قال ، أوحاه إليه بهذه اللغة . أما جوهانزتبولر فقد وصف ديكهارت بأنه « أســتاذه الأقدس » ودعا فى ستراسبورج وبازل إلى مذهب الاتحاد الصوفى بالله . ونسب لوثر إليه كتابا عنوانه علم اللاهوت الألمانى ، وكان تأثير هذا الكتاب ، فيه عميقا ؛ ببساطة معتقده : الله ، المسيح ، الخلود .

ونظرت الكنيسة بشيء من الاهتمام إلى المتصوفة الذين تجاهلوا أغلبه تعاليمها ، وأهملوا شعائرها وزعموا الوصول إلى الله بلا استعانة من القصص أو الأسرار المقدسة . وهنا نجد مبادئ الإصلاح الدينى بحكم الفرد على نفسه ، وكل إنسان فى ذاته قسيس ، وليس التبرير فى الأعمال الطيبة ولكنه فى العقيدة السامية . وفى رأى الكنيسة أن الإيحاءات الخارقة قد تأتى من الشياطين والمجاذيب كما تأتى من الله والقديسين ، وأن الأمر يحتاج إلى إرشاد صارم يحفظ الدين من التحلل إلى فوضى تتألف من ديانات وعلوم دين فردية . ولا يزال هذا الخلاف فى الرأى يقسم المخلصين .

٥ – الفنون

طال مكث الطراز القوطى فى ألمانيا ، بعد أن أخلى مكانه ، فى إيطاليا وفرنسا ، لمؤثرات عصر النهضة الكلاسية بأمد طويل . وهو الآن يتوج المدن المزدهرة فى أوربا الوسطى بكنائس ، لم تبلغ فى جلالها المهيب ما بلغته المزارات العظيمة فى فرنسا ، وهى مع ذلك ترفع الروح بجمالها الهادئ

وروعتها غير المتكلفة . ولقد بدأت إيسالا تشيد كاتدرائيتها عام ١٢٨٧ ، وفرايبورج السكسونية عام ١٢٨٣ ، وأولم عام ١٣٧٧ (وبها أعلى برج قوطى فى العالم) وشرعت فينا فى بناء كاتدرائية القديس ستيفن ١٣٠٤ ، وسترولزيند كنيسة السيدة مريم عام ١٣٨٢ ، ودانزج كنيسة أخرى للسيدة مريم عام ١٤٢٥ . وأضافت أخن وكلونيا موضع المرتلين فى كاتدرائيتهما ، وأتمت ستراسبورج « الموسيقى المجمدة » الخاصة بكاتدرائيتها عام ١٤٣٩ ، وشيدت أكزانتن كنيسة القديس فيكتور الجامعية الأنيقة ، وقد خربتها الحرب العالمية الثانية . واعتزمت نورمبرج بأربع كنائس مشهورة ، تصقل التقوى بالفن والذوق . وتلين كنيسة لورنز (١٢٧٨ — ١٤٧٧) إلى القرنين الرابع عشر والخامس عشر ، ببابها الفخم ونافذتها المستديرة المتلألئة . وكانت كاتدرائية القديس (١٣٠٤ — ١٤٧٦) ستيفن معلماً محببا ، فإن سقفها المنحدر يغطى صحن الكنيسة وممشيها بقنطرة واحدة ، وأسقطه إله الحرب عام ١٩٤٥ . وأعيـــد عام ١٣٠٩ بناء مماشى كنيسة سبالدوس وأقيم فيها عام ١٣٦١ مكان جديد للمرتلين ، وتم حوالى عام ١٩٤٨ بناء أبراجها الغربية وركب بين عامى ١٣٦٠ ، ١٥١٠ زجاجها الملون البديع . وزودت كنيسة السيدة مريم (١٣٥٥ — ١٣٦١) ، بدهليزها المزين بكثير من التماثيل ، وأصبحت أثراً بعد عين فى الحرب العالمية الثانية ، ولكنها أعيدت إلى ما كانت عليه ، وفى كل يوم عند الظهيرة تنحنى بلا كلل تماثيل الناخبين الأربعة ، فى الساعة المشهورة بالواجهة أمام شارل الرابع ، اعترافا بجميل دستوره المشهور . وكان فن النحت لا يزال ساذجا ، بيد أن الكنائس فى برسلاو وهالجارتن وكنيسة سيبالدوس فى نورمبرج ، كانت تتلقى تماثيل خشبية أو حجرية للعذراء من بعض النبلاء .

ولم تجمل المدن كنائسها فحسب وإنما جملت أيضا مبانيها العامة وحوانيتها ودورها . وقامت وقتذاك تلك الدور ، هرمية السقف المعرش نصفها

بالخشب ، التى تكسب المدن الألمانية ، فتنة مشوقة توحى بجو القرون الوسطى ، للعيون العصرية المثالية . وكانت « دار المجلس مركز الحياة المدنية ، وهي ملتقى النقابات الكبيرة أحياناً ، وقد تحمل حوائطها صوراً جدارية ، وكانت أعمال الخشب فيها تحفر عادة بما عرف عن التيوتون من عزم وقوة . وللبهو الكبير فى دار المجلس بمدينة بريمن (١٤١٠ — ١٤٥٠) سقف من جذوع الخشب المنقوش ، وسلم محوى بأعمدة وحاجز من الخشب المنقوش ، وثريات مزخرفة على شكل سفن . ولقد خربت دور المجالس الآتية فى الحرب العالمية الثانية : مجلس كلونيا (١٣٦٠ — ١٥٧١) عقد فيه الاجتماع العام الأول للاتحاد الهنسيانى ، ومجلس منستر (١٣٣٥) ، حيث أبرمت معاهدة وستفاليا ، ومجلس برنزفيك وهى من دور القرن الرابع عشر من المجالس البلدية التى على الطراز القوطى ، وفرنكفورت — على — المين (١٤٠٥) حيث دعا الناخبون إمبراطوراً جديداً لتناول طعام الغداء . وفى ماريلبورج ، شيد أشياخ الشعب التيوتونى قصرهم الألمانى الضخم (١٣٠٩ — ١٣٨٠) . وقد واجهت دار البلدية كنيسة سيبالدس فى نورمبرج ،وشيدت (١٣٤٠) لكى تسع جميع أعضاء ريشستاج الإمبراطورية ، ثم رمم ست مرات ، فلم يبق منه إلا القليل من طابع القرون الوسطى فى الشكل . وأقام هيفرتش بارلو ، وهو مثال من براج ، فى ميدان السوق أمام كنيسة العذراء ، النبع الجميل (١٣٦١) الذى تكثر فيه تماثيل أبطال وثنيين ويهود ومسيحيين وتجسم نورمبرج فى القرون الثلاثة بين عامى ١٢٥٠ ، ١٥٥٠ بتماثيلها وكنائسها وعمارتها المدنية ، الروح الألمانى فى أوجه وكماله . وكانت طرقاتها الملتوية فى أغلبها ضيقة غير مرصوفة ، ومع ذلك فقد كتب بابا المستقبل بيوس الثانى عن نورمبرج .

« عندما يأتى المرء من فرانكونيا السفلى ، ويرى هذه المدينة المجيدة ، فإن فخامتها تبدو عظيمة بحق . فإن دخلها ، تأكدت مشاعره الأولى بجماله

الطرقات وتناسب المنازل ، والكنائس . . جديرة بالعبادة جدارتها بالإعجاب . وتسيطر القلعة الإمبراطورية بشموخها على المدينة ، وكأنما بنيت دور نواب المقاطعة للأمراء . والحق أن ملوك اسكتلندة يسرهم أن يسكنوا بيوتاً مترفة كالتى يسكنها المواطن العادى فى نورمبرج » .

أما الفنون الصناعية الصغرى والصناعية فى المدن الألمانية ، على الخشب والعاج والنحاس والبرونز والحديد والفضة والذهب ، فقد بلغت وقتذاك النضج الكامل لنموها فى القرون الوسطى . وأنتج الفنانون والنساجون أقمشة مزركشة رائعة تعلق على الحوائط ، كما مهد النقاشون على الخشب الطريق لديرر وهولبين ، وزين المنمنمون المخطوطات عشية ظهور الطباعة على يد جوتنبرج ، ونقش العاكفون على زخرفة الخشب ، الأثاث الفخم ، وصاغ سباكو الحديد ، للكنائس ، فى القرن الخامس عشر ، نواقيس لا مثيل لها فى رخاصة حليها . ولم تكن الموسيقى فنا فحسب ، ولكنها كانت نصف حياة الفراغ فى المدن . ومثلت نورمبرج وغيرها من المدن حفلات تنكرية عظيمة تتألف من التمثيليات والأغانى الشعبية . ولقد عبرت الأغنية الشعبية عن أحاسيس الشعب الدينية أو الغرامية . وشنت الطبقات الوسطى هجوماً جماعياً على مشكلات تعدد الأنغام ، ونافست النقابات فى تأليف فرق الغناء الجماعى الضخمة ، وأخذ القصابون والدباغون وسباكو النواقيس وغيرهم من الرجال الأقوياء يتبارون للحصول على جائزة المغنى الأول فى دورات إنشادية صاخبة وأسست أول مدرسة للمغنيين الأوائل فى ميتز عام ١٣١١ ، ونشأت غيرها فى ستراسبورج وفرنكفورت على المين وويرزبرج وزيورخ وأوجزبرج ونورمبرج وبراغ . أما الطلاب الذين ينجحون فى الحصول على الأجازات الأربع وهى دارس وصديق مدرسة وشاعر ومغن فيمنحون لقب أستاذ . وهبط العنصران الرومانى والمثالى إلى الأرض عند

النسبيين(*) لما حمل نواب المقاطعات الألمان الأغنية ، واقعيتهم الشهوانية .

وإذا سيطرت الطبقة التجارية على المدن ، فإن جميع الفنون ما عدا عمارة الكنائس ، تتخذ اتجاها واقعيا . وكان الجوباردا ورطبا فى الغالب لا يشجع على العرى ، ولم تجد عبادة الجسم أو الكبرياء الجسمى موطنا ملائما هنا كما كان الحال فى إيطاليا إبان عصر النهضة أو فى بلاد الإغريق . ولما رسم كونراد وتز الكنستانسى « سليمان وملكة سبأ » ألبسهما وكأنهما يعيشان على جبال الألب فى فصل الشتاء . ومع ذلك فقد كان فى حوالى عشرة مدن مدارس تصوير فى القرن الخامس عشر : ألم وسالزبرج وفرنكفورت وأوجزبرج وميونخ ودرستاد وبازل وأخن ونورمبرج وهمبورج وكولمبار وكولونيا ، وبقيت إلى الآن نماذج من هذه المدارس جميعاً ونحن نقرأ فى أخبار ١٣٨٠ : « كان فى كولونيا فى هذا الوقت مصور مشهور اسمه ولهلم ، لا يوجد له مثيل فى طول البلاد وعرضها . ولقد رسم رجالا ببراعة يخيل للرائى معها أنهم أحياء » وكان الأستاذ ولهيلم واحدا من كثيرين « على الفطرة » . ولقد أنشأ الأستاذ برترام والأستاذ فرانك وأستاذ سانت فيرونيكا وأستاذ مذبح هسترباكر — تحت التأثير الفلمنكى فى الغالب نظاما للتصوير المشترك فى ألمانيا ، ورسموا موضوعات الإنجيل التقليدية بعاطفة دينية ، يمكن إرجاعها إلى إيكهارت والمتصوفة الألمان الآخرين .

وتنتهى بالمصور ستيفن لوكنر ، الذى مات فى كولونيا عام ١٤٥١ ، هذه المرحلة التمهيدية للتطور ، وبذلك نصل إلى أوج المدرسة الأولى . وتعد صورته « عبادة المجوس » مفخرة كاتدرائية كولونيا ، وهى تضارع معظم الصور التى أنشئت قبل منتصف القرن الخامس عشر ؛ ففيها عذراء جميلة متواضعة معتزة بنفسها فى وقت واحد ، وطفـــل مبتهج وحكماء الشرق وهم ألمانيو السحنة ولكنهم حكماء بحق . وتأليفها تقليدى ، وتلوينها ناصع بالأزرق

(*) النسبيون هم الشعراء الألمان الغنائيون الذين شاع مذهبهم من ١١٥٠ — ١٣٥٠ م .

والأخضر والذهبي . وفى « عذراء وردة التكعيبة وعذراء البنفسج » ، صورت الأمهات الشواب المثاليات الألمانيات ، ذوات الجمال الرقيق الرصين. بكل ما فى فن القرون الوسطى من حِرْفية ، تتجه بوضوح إلى التجديد . فقد كانت ألمانيا على عتبة أعظم عصورها .

٦ – جوتنبرج

ما الذى وضع نهاية للعصور الوسطى ؟ أسباب كثيرة أخذت تعمل خلال ثلاثة قرون : فشل الحروب الصليبية ، وزيادة معرفة أوربا الناهضة بالإسلام ، والاستيلاء المحقق على القسطنطينية ، وبعث الثقافة الكلاسية الوثنية ، وانتشار التجارة بفضل رحلات أسطول هنرى الملاح وكولمبس وفاسكو دا جاما ، ونشأة الطبقة التجارية التى مولت مركزية الحكومة الملكية ، وتقدم الدول القومية ، متحدية سلطة الباباوات التى تعلو على القومية ، وثورة لوثر الموفقة فى وجه البابوية ، والطباعة :

ولقد كان التعليم كله تقريبا ، قبل جوتنبرج ، فى يد الكنيسة . . . وكانت الكتب باهظة الثمن ، والنسخ مجهداً وغير معتنى به أحياناً . واستطاع قليل من الكتاب الاتصال بجمهور كبير ولكن بعد وفاتهم ، وكان عليهم أن يكسبوا عيشهم من التعليم ، أو الانخراط بفرقة من فرق الرهبان ، أو بمعاش يجريه عليهم الأغنياء أو صدقات يحصلون عليها من الكنيسة . ويدفع ناشرو كتبهم ، النزر اليسير لهم ، أولا يدفعون لهم شيئاً على الإطلاق ، بل إذا وجد ناشر يدفع لهم ، فإن حق الطبع لم يكن مكفولا لهم ، إلا بمنحة بابوية بين حين وآخر . وكانت المكتبات كثيرة ، وإن تكن صغيرة ، وكانت للأديرة والكاتدرائيات والكليات وبعض المدن مجموعات متواضعة قلما تزيد على ثلثمائة مجلد ، وحفظت الكتب عادة داخل الجدران ، وربط بعضها بالسلاسل فى المقارئ أو الأدراج . وكان لشارل الخامس ملك فرنسا

مكتبة مشهورة بحجمها ٩١٠ مجلدات ، ولهمفرى : دوق جلوسستر ٦٠٠ مجلد ، وربما كانت مكتبة الدير بكنيسة السيد المسيح فى كنتربرى ، تضارع فى الكبر أى مكتبة خارج حدود الإسلام ، وضمت ٣٫٠٠٠ مجلد ، عام ١٣٠٠ . وكانت خير مكتبة عامة فى انجلترا هى مكتبة ريتشارد دى بورى سانت ادموندز ، الذى سجل غرامه بكتبه فى رسالة « حب الكتب » (١٣٤٥) ، وجعل هذه الكتب تشكو من سوء المعاملة التى لقيتها من « ذلك الحيوان من ذوات الساقين الإثنين المسمى امرأة » ، الذى أصر على أن تستبدل بها التيل الرقيق أو الحرير .

وزاد الطلب على الكتب بكثرة المدارس وانتشار القراءة ورأت طبقات رجال الأعمال ، القراءة مفيدة فى شئون الصناعة والتجارة ، وفر نساء الطبقتين الوسطى والعليا ، بواسطة القراءة ، إلى عالم من الخيال ، يستعضن به عن دنيا الواقع ، وما إن جاء عام ١٣٠٠ حتى كان الوقت الذى لا يستطيع فيه القراءة غير رجال الدين قد ولى أو كاد ، وأدى هذا الإقبال المتزايد إلى ظهور جوتنبرج أكثر من أى شىء آخر ، حتى عن زيادة مقدار الورق وظهور مداد زيتى . ولقد أحضر المسلمون صناعة الورق إلى أسبانيا فى القرن العاشر ، وإلى صقلية فى القرن الثانى عشر ، وانتقلت إلى ايطاليا فى الثالث عشر ، وإلى فرنسا فى الرابع عشر ، وكانت صناعة الورق قد بلغ عمرها قرناً من الزمان عندما جاءت الطباعة . ولما صار ارتداء التيل مألوفاً فى أوربا فى القرن الرابع عشر ، اتخذت صناعة الورق مادتها الرخيصة من خرقه المنبوذة ، فهبط سعر الورق وتهاونت سهولة الحصول عليه مع انتشار القراءة ، على تقديم مادة الكتب المطبوعة وتسويقها .

أما الطباعة نفسها فكانت كالآثار المطبوعة ، أقدم من المسيحية فقد طبع البابليون على الآجر حروفاً أو رموزاً ، وطبع الرومان وشعوب كثيرة أخرى على النقود ، والخزانون على أوانيهم ، والنساجون على الأقمشة ، ومجلدو الكتب على أغلفتها ، واصطنع كل رجل من الأعيان ، فى العصور

القديمة أو الوسطى ، الطباعة ، كلما وقع الوثائق بخاتمه ، واستخدمت وسائل مماثلة فى الخرائط وأوراق اللعب . ويرجع تاريخ الطباعة الحجرية — وهى كتب من الخشب أو المعدن تنقش عليها كلمات أو رموز أو صور — فى الصين واليابان إلى القرن الثامن ، وربما قبل ذلك . ولقد طبع الصينيون بهذه الطريقة ، عملة ورقيـة ، فى القرن العاشر أو قبله . وظهرت الطباعة الحجرية فى تبريز عام ١٢٩٤ ، وفى مصر حوالى عام ١٣٠٠ ، ولكن المسلمين فضلوا النسخ بالخط على الطباعة ، ولم يعملوا فى هذه الحالة ، كما فى أحوال كثيرة أخرى ، على نقل التقدم الثقافى من الشرق إلى الغرب .

واستعملت طباعة الحروف — وهى الطبع بحرف منفصل متحرك — فى الصين منذ عام ١٠٤١ — ولقد استخدم وانج تشن عام ١٣١٤ حوالى ستين ألف حرف خشبى متحرك ، ليطبع كتاباً واحداً فى الزراعة ، وحاول أول الأمر استخدام حروف طبع معدنى ، ولكنه وجد أنها لا تستوعب المداد فى يسر كالخشب . وكان الحرف المطبعى المتحرك ، مع ذلك ، قليل التيسير أو الفائدة ، للغة لا أبجدية لها ولكنها تضم أربعين ألف حرف منفصل ، ولذلك ، ظلت الطباعة الحجرية هى المألوفة فى الصين إلى القرن التاسع عشر : وفى عام ١٤٠٣ طبع إمبراطور كورى ، عدداً كبيراً من المجلدات ، بوساطة حروف معدنية متحركة ، وكانت الحروف تحفر على خشب صلب ، وصبت قوالب من عجينة الخزف على تلك النماذج ، وفى هـذه القوالب صيغت الحروف المعدنية .

أما فى أوربا فربما ظهرت الطباعة بالحروف المتحركة فى هولندة أولا ، وهى ليست قبل عام ١٥٦٩ ، طبقاً للروايات الهولندية . وطبع لورنس كستر البارلمى ، كتيباً فى الدين بالحروف المعدنية المتحركة عام ١٤٣٠ ، بيد أن هذا الشاهد غير محقق . ولم يسمع شىء غير ذلك فى هولندة ، عن الحروف المتحركة ، حتى عام ١٤٧٣ ، عندما أقام ألمانى من كولونيا ، مطبعة

فى أترخت . ولكن هؤلاء الرجال كانوا قد تعلموا فن الطباعة فى مينز ه

وولد جوهان جوتنبرج هناك لأسرة ثرية حوالى عام ١٤٠٠. واسم أبيه جنز فليش ومعناه لحم الأوزة ، وآثر جوهان لقب أمه . وعاش معظم سنواته الأربعين الأولى فى ستراسبورج ، ويبدو أنه قام هناك بتجارب فى قطع الحروف المعدنية وصبها . وأصبح حوالى عام ١٤٤٨ مواطناً فى مينز . وفى الثانى والعشرين من أغسطس عام ١٤٥٠ تعاقد مع جوهان فست ، وهو صائغ غنى ، رهن له بمقتضى ذلك العقد ، مطبعته فى مقابل دين مقداره ٨٠٠ جلدر ، بلغ بعد ذلك ١٦٠٠ جلدر « وربما كان جوتنبرج هو الذى طبع صك غفران ، أصدره نيقولا الخامس عام ١٤٥١ ، ولا تزال باقية منه نسخ متعددة ، تحمل أقدم تاريخ طبع وهو عام ١٤٥٤ . وقاضى فست جوتنبرج مطالباً إياه بسداد الدين عام ١٤٥٥ ، فعجز عن الوفاء وتنازل عن مطبعته ؛ واستمر فست فى إدارة المؤسسة مع بيتر سكوفير ، الذى استخدمه جوتنبرج صفاً للحروف . ويعتقد البعض أن سكوفير هو الذى طور وقت ذاك ، الأدوات الجديدة وفن الطباعة : « مجوب » جامد فى الصلب المنقوش لكل حرف ورقم وفاصلة ، وبيت معدنى لتلقى المجاوب ، وقالب معدنى أيضاً لصف البيوت والحروف فى سطر ؛

وفى عام ١٤٥٦ ، أقام جوتنبرج ، بمال اقترضه مطبعة أخرى ، ومنها أصدر ، فى تلك السنة أو التى تليها ، ما اعتبر بصفة عامة أول كتاب له ، مطبوع بالحروف المعدنية المتحركة ، وهو النسخة المشهورة الجميلة المنسوبة لجوتنبرج من الكتاب المقدس — وهى مجلد ضخم فى ١٢٨٢ صحيفة من القطع الكبير على عمودين . وفى عام ١٤٦٢ حاصرت جنود أدولف أميرناسو ، مدينة مينز ، ففر الطابعون ، فنشروا بذلك الفن الجديد ، فى أنحاء ألمانيا . ولما جاء عام ١٤٦٣ كان هناك طابعون فى ستراسبورج وكولونيا وبازل وأوجزبرج ونورمبرج وإلم . أما جوتنبرج ، وكان أحد الفارين ، فقد أقام

فى التفيل ، حيث واصل طباعته . وجاهد الأزمات المالية المتلاحقة ، حتى تصدق عليه أدولف (١٤٦٥) بمنحة تضمن له دخلا يحميه غوائل الدين . ومات بعد ذلك بثلاث سنوات .

وليس من شك فى أن حروف الطبع المتحركة ، كان لا بد أن تظهر على يد غير جوتنبرج لو لم يولد ، إذ دعت إليها ، حاجة العصر الملحة ، وهذا يصدق على معظم المخترعات . ولقد كتب جويوم فيشيه الباريسى ، وهو من أهل باريس عام ١٤٧٠ ، رسالة يعبر فيها عن الترحيب الحماسى الذى قوبل به الاختراع وهو يقول : « لقد اكتشفت فى ألمانيا طريقة جديدة مدهشة لإنتاج الكتب ، ولقد حصـــل حذاقها فنهم ، فى مينز ومنها نشروه فى العالم . . . ولسوف ينتشر نور هذا الاكتشاف من ألمانيا ، حتى يعم جميع أنحاء الأرض . ولم يرحب به كل الناس . فقد احتج النساخون بأن الطباعة ستقضى على أسباب معاشهم ، وعارضته الطبقة العليا بحجة أنه ابتذال آلى ، وخشوا أن يقلل من قيمة مكتباتهم الخطية ، وارتاب فيه رجال السياسة والدين لاحتمال أن تصبح الطباعة محلية سهلة للآراء الهدامة . ومع هذا كله فقد شقت لنفسها طريق النصر . وفى عام ١٤٦٤ أقام ألمانيان مطبعة فى روما ، وفى عام ١٤٦٩ أو قبله افتتح ألمانيان آخران دار طباعة فى البندقية ، وفى عام ١٤٧٠ أدخل ثلاثة من الألمان أيضاً هذا الفن فى باريس ، وفى عام ١٤٧١ وصلت الطباعة إلى هولندة ، وفى عام ١٤٧٢ إلى سويسرا ، وفى عام ١٤٧٣ إلى المجر ، وفى عام ١٤٧٤ إلى إسبانيا ، وفى عام ١٤٧٦ إلى إنجلترا ، وفى عام ١٤٨٢ إلى الدنمرك وفى عام ١٤٨٢ إلى السويد وفى عام ١٤٩٠ إلى القسطنطينية . وأصبحت نورمبرج على يد أسرة كوبرجر وباريس على يد الاتيينين وليون بفضل دوليه والبندقية بفضل ألدوس مانوتيوس وبازل بوساطة أمرباخ وفروبن وزيورخ بوساطة فروشاور وليدن على يد الزيفير ، خلايا عامرة بالطباعة والنشر . وسرعان ما أصبح نصف سكان أوربا من القارئين كما لم يحدث ذلك قط

من قبل » . وأضحت الرغبة فى اقتناء الكتب ، إحدى عوامل الفوران فى عصر الإصلاح الدينى » وإليك ما كتبه دارس من بازل إلى أحد أصدقائه « فى هذه االحظة بالذات ، وصل من البندقية ، حمل عربة كاملة من الكتب الكلاسية ، من خير طبعات ألدوس . هل تريد شيئاً منها ؟ إن كنت تريد أخبرنى فى الحال ، وأرسل النقود ، فما نكاد سلعة كهذه تصل ، حتى ينهض إليها ثلاثون شارياً لكل مجلد ، متسائلين عن الثمن ، ويفقأ بعضهم أعين بعض للحصول عليها » واستمرت ثورة الطباعة بالحرف المتحرك .

وإذا أردنا أن نصف نتائجها جميعاً ، كان لزماً علينا أن نسجل نصف تاريخ العقل الإنسانى الحديث . ووصف أرازمس ، فى نشوة رواج مؤلفاته ، الطباعة بأنها أعظم المكتشفات ، ولعله بخس بذلك الكلام والنار والعجلة والزراعة والكتابة والقانون بل لعله قد بخس وصول الإنسان إلى استعمال الألفاظ النكرات الشائعة . وأحلت الطباعة محل المخطوطات الخفية ، نصوصا رخيصة الثمن ، تتضاعف بكثرة ، فى عدد نسخها ، التى تمتاز بدقتها وخفة حملها عما كانت عليه من قبل ، وتعمل بذلك على التوحيد بين لمشتغلين بالعلم ، حتى أن الدارسين فى بلاد شتى ، يستطيعون أن يعمل أحدهم مع الآخر بوساطة مراجع إلى صفحات معينة من طبعات معينة . وكثيراً ما كان الكيف ضحية الكم ، بيد أن أقدم الكتب المطبوعة ، كانت فى كثير من الأحوال نماذج فنية للطبع بالحرف المتحرك والتجليد . ولقد أذاعت الطباعة — أو بمعنى آخر يسرت للجمهور — كتيبات رخيصة للإرشاد فى الدين والأدب والتاريخ والعلم ، فأصبحت أعظم وأرخص الجامعات كلها ، تفتح أبوابها للجميع . ولم تثمر الطباعة عصر النهضة ، ولكنها مهدت الطريق للتنوير . . . للثورتين الأمريكية والفرنسية . . للديمقراطية . وجعلت الكتاب المقدس ملكاً شائعاً . وهيأت الناس لدعوة لوثر بالتحول من الاحتكام إلى البابوات إلى الإنجيل ، وسمحت بعد ذلك بدعوة العقليين من

الاحتكام إلى الإنجيل ، إلى الاحتكام إلى العقل . وقضت على الاحتكار الكهنوتى للتعليم ، وسيطرة القساوسة على التربية . وشجعت آداب اللهجات المحلية ، لأن الجمهور الكبير الذى تتطلبه لا يمكن الوصول إليه عن طريق اللغة اللاتينية ويسرت الاتصال والتعاون الدوليين بين العلماء . وأثرت فى نوع الأدب وقوامه بإخضاع المؤلفين لجيوب الطبقات الوسطى وأذواقها ، بدلا من إخضاعهم لمن يرعاهم من الطبقتين العليا والكهنوتية ، وأعدت بعد الحديث الملفوظ ، وسيلة ميسرة لاستيعاب الهذر ، أكثر مما عرف العالم إلى زماننا :

قصة الحضارة

ول وايريل ديورانت

الإصلاح الديني

وهو يروي تاريخ الحضارة الأوروبية خارج إيطاليا
من وكليف إلى لوثر ١٣٠٠ - ١٥١٧

ترجمة
الدكتور عبد الحميد يونس

الجزء الأول من المجلد السادس







بيروت
تونس